
رسائل شوق وحنين
(٣)
رسالة إلى ..
الإمام علي
د. نور الدين أبو لحية

هذا الكتاب

تحاول هذه الرسالة ـ بحدود الطاقة ـ التعريف بجوانب مهمة من حياة وشخصية الإمام علي، باعتباره من الشخصيات التي حظيت بما لم يحظ بها غيرها من مناقب وفضائل في أحاديث كثيرة جدا اتفقت الأمة عليها، بل خصصت لها الكتب والرسائل من لدن فحول المحدثين المعتبرين لدى المدارس المختلفة.

وهي بذلك تحاول إثبات ما في تلك الأحاديث من دلائل صدق النبوة.. فالرسول ﷺ لم يكن ينطق عن الهوى، ولم يكن يجامل أحدا حينما كان يشيد بالإمام علي، ويذكر فضله، أو يدعو إلى توليه، أو يخبر أنه أخوه، أو أنه نفسه، أو أنه معه مثلما كان هارون من موسى، أو يعتبره دائرا مع الحق حيثما دار، أو أنه سلم لمن سالم، وحرب لمن حارب..

رسائل شوق وحنين

(3)

رسالة إلى..

الإمام علي

د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

2017 – 1438

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة

تحاول هذه الرسالة ـ بحـدود الطاقـة ــ التعريـف بجـوانب مهمة من حياة وشخصية الإمـام علي باعتبـاره من الشخصـيات الـتي حظيت بمـا لم يحـظ بهـا غيرهـا من منـاقب وفضـائل في أحاديث كثيرة جدا اتفقت الأمة عليهـا، بـل خصصـت لهـا الكتب والرسائل من لدن فحول المحـدثين المعتـبرين لـدى المـدارس المختلفة.

وهي بذلك تحاول إثبـات مـا في تلـك الأحـاديث من دلائـل صدق النبوة.. فالرسول ﷺ لم يكن ينطـق عن الهـوى، ولم يكن يجامل أحدا حينما كان يشيد بالإمام علي، ويذكر فضله، أو يدعو إلى توليه، أو يخبر أنه أخوه، أو أنه نفسه، أو أنه معه مثلما كان هارون من موسى، أو يعتبره دائرا مـع الحـق حيثمـا دار، أو أنـه سلم لمن سالم، وحرب لمن حارب..

فكل هذه النصوص الواردة في كتب السنة، وغيرهـا كثـير، وكثـير منهـا متـواتر ومنقـول في الـتراث الحـديثي للمـدارس المختلفـة.. لا ينبغي أن نمـر عليهـا مـرور الكـرام، ولا يصـح أن نؤولها، ونعتبر رسول الله ﷺ متكلفا أو مجاملا أحدا من الناس.

وإنمـا الفهم الصـحيح لهـا هـو الـدعوة للبحث عن هـذه الشخصية، وأخلاقها وآدابها، لأن الولاية والمحبة والنصـرة ناتجـة عن المعرفة.. فلا يمكن أن نحب ولا أن نوالي ولا أن ننصـر، ولا أن نقتـدي بمن لا نعرفـه، وإنمـا نكتفي بسـماع بعض الأحـاديث عنه.

وبذلك فإن الهدف الأول من هذه الرسالة ليس هو شخص الإمام علي، وإنما الهدف هو إثبات صدق رسول الله ﷺ في كل ما ذكره عنه.

فالإمام علي ـ بالإضافة إلى كونه من آل البيت ــ هـو أكـثر الصحابة ملازمة لرسول الله ﷺ.. فقد ربي في حجـره مـذ كـان صبيا صغيرا جـدا.. وصـحبه في الشـعب.. وفي كـل مكـان كـان

فيه.. وكان أكثر الناس له ملازمة.. ولـذلك فإنـه يعتـبر النمـوذج الأمثـل للصـحابة السـابقين الصـادقين، ويعتـبر النمـوذج الأمثـل للتربية النبوية في قمة قمم كمالها.

ولذلك فـإن العقـل يقتضـي منـا البحث عن هـذا النمـوذج، والتعرف على سيرته وهديه، حتى نخرج علمنا من الإجمـال إلى التفصـيل، ومن التقليـد إلى التحقيـق، ومن المعرفـة العاطفيـة المجردة إلى المعرفة العقلية المحققة.

بناء على هذا حاولنا في هذه الرسالة أن نعرض ـ باختصـار شـديد ــ عشـرة جـوانب في شخصـية الإمـام علي المتمـيزة، وهي:

المريد الصادق: ونريد من خلاله إثبات تلمذة الإمام علي لرسول الله ﷺ الكاملة والخالصة، وإشـادة رسـول اللـه ﷺ بـه، وبصدقه، والأدلة الواقعية على ذلك.

الحاكم العادل: ونريد من خلالـه إثبـات الأسـس الكـبرى الـتي تقـوم عليهـا العدالـة عنـد الإمـام علي، والـتي تجلت في الفترة القصـيرة الـتي ولي فيهـا الحكم، وأعطى فيهـا النمـوذج المثالي للخلافة على منهاج النبوة.

التقي الورع: ونريد من خلاله إثبات مفهوم التقـوى عنـد الإمام علي، وصورة الشخصـية المسـلمة من كـل جوانبهـا كمـا تصورها أحاديثه وخطبه، وكما تمثلها حياته وشخصيته.

العفيـف الزاهد: ونريـد من خلالـه إثبـات تلمـذة الإمـام علي لرسـول اللـه ﷺ في عفتـه وزهـده، سـواء في الجـانب النظـري الـذي تحـدث عنـه في خطبـه ورسـائله، أو في جانبـه العملي، كما عاشه.

الأواب العابد: ونريد من خلاله إثبات تلمـذة الإمـام علي لرسول الله ﷺ في التعبد والخشوع والخضوع لله تعالى، وسنته في ذلك.

الولي العارف: ونريـد من خلالـه إثبـات أنـواع المعـارف

والحقائق التي عبر عنها الإمام علي، والتي تمثل الأساس الـذي تقوم عليه المعرفة الصحيحة البعيدة عن الدجل والأسطورة.

العـالم البصـير: ونريـد من خلالـه إثبـات صـدق تلـك الشهادات التي أخبر بهـا رسـول اللـه ﷺ عن علم الإمـام علي، وبصيرته النافذة في المجالات المتعددة.

الواعظ الناصح: ونريد من خلالـه بيـان المكانـة الكبـيرة التي احتلها الإمام علي ومواعظه، وتأثيرهـا الكبـير على الواقـع الإسلام في عصره أو ما بعده من العصور.

الحكيم المعلم: ونريـد من خلالـه إثبـات حكمـة الإمـام علي، وكيـف صـاغها في قـوالب جميلـة لقيت ولا تـزال تلقى إعجاب الجميع حتى من غير المسلمين.

الإنسان الكامل: ونريد من خلاله إثبات كون الإمام علي نموذجـا مثاليـا للشخصـية الممثلـة للإسـلام في أرقى جوانبـه، والشهادات الدالة على ذلك.

وقد حاولنا أن نعبر عن هذه الحقائق بمثـل مـا ذكرنـاه في أول هـذه السلسـلة، وهـو التعبـير العـاطفي الممـزوج باللغـة العلمية.. لأن الحديث عن هذا الإمام يمتزج فيه كلا الجانبين.

أما المصادر التي اعتمـدناها عليهـا، فهي مصـادر متنوعـة، وأهمها ما وصـل إلينـا من تـراث الإمـام علي نفسـه من خطبـه ورسائله وغيرهـا.. والـتي جمعهـا الشـريف الرضـي وغـيره من المحققين.

ولا يعنينا من يشكك في أمثال هذه المصادر، لأنـه لايعتمـد منهجا علميا ولا أخلاقيا.. ذلك أنه يضع كل الحوائـل الـتي تحـول بين ذلك التراث العظيم الذي تركه الإمـام علي، وبين اسـتفادة الأمة منه.. فهو يضع شـرطا مسـتحيلا لقبـول أحاديثـه، وهـو أن يكون رواة أحـاديث الإمـام علي من أصـحاب الفئـة الباغيـة، أو ممن ساندها ورضي عنها، أو ممن سكت عنها، ولم ينكر عليهـا، لأن ما عدا هؤلاء يعتبرون شيعة عنـد هـؤلاء المنكـرين.. ولـذلك

يرفضون حديثهم وأسانيدهم ورواياتهم.

وهذه شروط لا تتسم بالعلمية، ذلك أنه من المسـتحيل أن يروي عن الشخص إلا من صحبه، وتأثر به، وعايشه.. أما البعيـد عنه، أو الذي ينظر إليه نظرة سـلبية، أو يخـاف على نفسـه من الاقتراب منه، فإنه يستحيل أن يسمع كلامه، فكيف بروايته.

ونحب أن ننبـــه إلى أن اعتبـــار نهج البلاغـــة أو غـــيره من المصادر التي حوت أحاديث الإمام علي من كتب الشـيعة الـتي ينص التيار السلفي خصوصا على تكذيبها وحرمة الاقتراب منها، كـذب محض، فـالكثير من أعلم المدرسـة السـنية في القـديم والحديث يقتبسون من هذه المصادر سواء كـانوا من الصـوفية، أو من المعتزلة أو من الأشاعرة أو غيرهم.

ومن أكبر الأدلة على ذلك أن أكبر شارح لنهج البلاغة وهــو ابن أبي الحديــد، وهــو يتبــنى مواقــف المدرســة الســنية من الصحابة.. ومن شراحها الشيخ صبحي الصـالح، وهـو من علمـاء الحديث المعاصـرين.. من شـراحها الشـيخ محمـد عبـده.. وهـو داعية التنوير المعروف.. ومنهم الشيخ محمد محيي الـدين عبـد الحميد، وهو العالم الأزهري المعروف.

بل إن الشيخ محمـد عبـده أشـاد بهـا كثـيرا، واعتبرهـا من المصادر الضرورية للثقافة الإسلامية الراقية، فقـال في مقدمـة شرحه له، وبدايـة علاقتـه بـه: (عـرفت (نهج البلاغـة) في صـدر الصـبا.. وبقيت نغمـات في الأذن، ثم أخـذت أسـمع بعـد ذلـك - كلَّما لمع خطيب على منابر السياسة - قول النـاس تعليقـا على بلاغة الخطيب: لقد قـرأ (نهج البلاغـة) وامتلأ بفصـاحته وهـا أنـا أعيـد القـراءة هـذه الأيـام فـإذا البلاغـة قـد ازدادت في الأذنين حلاوة، وإذا العبارات كأنما أضافت طلاوة إلى طلاوة..)[1]

ثم قـــال بعـــد إطنـــاب شـــديد في وصـــفه: (فقلب معي الصفحات الرائعة الأدبيّة من (نهج البلاغـة) وقـل لي: أين ينتهي الأديب ليبدأ الفيلسوف، وأين ينتهي الفيلسـوف ليبـدأ الفـارس،

---

[1] انظر مقدمة الشيخ محمد عبده لشرحه على « نهج البلاغة ».

ثم أين ينتهي هذا ليبدأ السياسي إنّه لا فواصل ولا فـوارق، ففي هذه المختارات خطب ورسائل وأحكام، وحجاج وشواهد امـتزج فيها الأدب بالحكمة، والحكمة بالأريحيّة وهاتان بما نسميه اليـوم سياسـة يسـوس بهـا الحـاكم شـعبه، أو يـداور بهـا المفـاوض خصمه.. وإنّ النصـوص ليطـول بنـا نقلهـا إلى القـارئ مـا طـال (نهج البلاغة) فخير للقارئ أن يرجع اليه ليطالع نفسا قد اجتمـع فيها ما يصور عصرها من حيث الركون في إدراك حقائق الأمور إلى سـلامة السـليقة، وحضـور البديهـة، وصـدق البصـيرة بغـير حاجـة إلى تحليلات العقـل وتعليلاتـه، ولا إلى طريقـة المناطقـة في جمع الشواهد وترتيب الشواهد على المقدمات)

ومثلـه قـال الاسـتاذ محمـد محي الـدين عبـد الحميـد في مقدمة شرحه: (أوفى لي حكم القدر بالاطلاع على كتـاب (نهج البلاغة) مصادفة بلا تعمـل، فتصـفحت بعض صـفحاته، وتـأملت جملا من عباراته، فكان يخيل لي في كل مقام أن حروبا شبت، وغارات شنت، وان للبلاغة دولة، وللفصاحة صولة.. ذلك الكتاب الجليل هو جملة ما اختاره السيد الشريف الرضي - رحمه اللــه - من كلام سيدنا ومولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، جمع متفرقة وسـماه (نهج البلاغـة) ولا أعلم اسـما أليق بالدلالة على معناه منـه، وليس في وسـعي أن أصـف هـذا الكتاب بأزيد ممـا دل عليـه اسـمه، ولا أن آتي بشـيء في بيـان مزيته فوق ما أتى به صاحب الإختيار)

وهكـذا نجـد أعلامـا كبـارا في المدرسـة السـنية يقبلـون الكتاب، ويثنون عليه، بل يـدعون إلى دراسـته والاسـتفادة منـه في كل الجوانب القيمية والأدبية.

ومنهم على سبيل المثال الشيخ محمـود شـكري الآلوسـي الذي قال عنه: (نهج البلاغة، ذلك الكتاب الذي أقامه اللـه حجـة واضـحة على أن عليـا كـان أحسـن مثـال حي لنـور القـرآن وحكمته، وعلمه وهدايته، وإعجازه وفصـاحته.. اجتمـع لعلي في هذا الكتاب ما لم يجتمع لكبار الحكماء، وأفذاذ الفلاسفة، ونوابغ الربـانيين، من آيـات الحكمـة السـابغة، وقواعـد السياسـة

المستقيمة، ومن كل موعظة باهرة، وحجة بالغة تشهد له بالفضل، وحسن الأثر.. خاض علي في هذا الكتاب لجة العلم، والسياسة والدين، فكان في كل هذه المسائل نابغة مبرزا، ولئن سألت عن مكان كتابه من الادب بعد أن عرفت مكانه من العلم، فليس في وسع الكاتب المترسل، والخطيب المصقع، والشاعر المفلق أن يبلغ الغاية من وصفه، أو النهاية من تقريظه. وحسبنا أن نقول: أنه الملتقى الفذ الذي التقى فيه جمال الحضارة، وجزالة البداوة، والمنزل المفرد الذي اختارته الحقيقة لنفسها منزلا تطمئن فيه، وتأوي اليه بعد أن زلت بها المنازل في كل لغة)(1)

ومنهم عباس محمود العقاد الذي قال عنه: (نهج البلاغة: هو ما اختاره الشريف الرضي أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوي من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو الكتاب الذي ضم بين دفتيه عيون البلاغة وفنونها، وتهيأت به للناظر فيه أسباب الفصاحة ودنا منه قطافها، إذ كان من كلام أفصح الخلق - بعد الرسول ﷺ - منطقا، وأشدهم اقتدارا، وأبرعهم حجة، وأملكهم للغة يديرها كيف شاء الحكيم الذي تصدر الحكمة عن بيانه، والخطيب الذي يملأ القلب سحر بيانه، والعالم الذي تهيأ له من خلاط الرسول، وكتابة الوحي، والكفاح عن الدين بسيفه ولسانه منذ حداثته ما لم يتهيأ لأحد سواه)(2)

وغيرهم كثير.. فكلهم شهد بذلك.. ما عدا المدرسة السلفية، والتي سيطرت بطرق مختلفة على مقاليد الأمة في هذا الزمان، واحتكرت السنة، وحرمت هذا الجيل وما قبله من الأجيال من الاستفادة من هذا التراث الجليل لهذا الإمام.. لتحوله عن صورته التي أشاد بها النبي ﷺ إلى صورة هشة ضعيفة.. وتجعل العلاقة معه مجرد علاقة عاطفية مجردة عن أي دليل علمي.. بدليل لو أنك سألتهم عن أحاديث الإمام علي،

---

(1) جولات اسلامية للاستاذ محمد أمين النواوي ص ٩٨.

(2) عبقرية الإمام ص ١٧٨.

لما أتوك بشيء.. بل إن أحاديثهم الـتي يـذكرونها عن غـيره من صغار الصحابة والتابعين أكثر من أحاديثه التي يروونها عنه.

بل إن أحاديثهم عنه مملوءة بالتشـويه والتضـليل.. ولـذلك تجنبنا في هذه الرسالة كل تلك النصوص التي وضعها النواصـب عنه، والتي أرادوا من خلالها تشويه شخصه الشريف من أمثـال كونه خطب ابنة أبي جهل، ونهي رسـول اللـه ﷺ لـه عن ذلـك.. لأن مثل هذا الحديث لا يشوه شخص الإمـام علي فقـط، وإنمـا يشوه رسول الله ﷺ قبل ذلـك، ويجعلـه يعـارض النص القـرآني المجوز للتعـدد.. بـل يجعلـه لا يرضـى لابنتـه مـا يرضـاه لسـائر البنات.. ثم كيـف يعقـل أن يجمـع الإمـام علي بين فاطمـة بنت حبيه رسول الله ﷺ وبين ابنة عدوه أبي جهل؟

وهكذا بعض الأحاديث التي نتوسم فيها البعد الأمـوي الـذي كان يستعمل كل الوسائل لتشويه هذا الإمام وصرف المسلمين عنه.. بل إنه شرع سبه على المنابر لعقود طويلة.

وبناء على ذلك كان تركيزنا على النصوص التي قالها هــو.. فهو أحسـن من يعـبر عن نفسـه.. وسـيرى القـارئ الكـريم من خلال تلك التعابير ـ التي لم نختر إلا جزءا قليلا منها ـ مـا يملـؤه بالعجب.

هذه أغراض رسـالتنا للإمـام علي.. وهي نقطـة من بحـره العميق.. فمن ذا يطيق الحـديث عنـه.. ومن ذا يسـتطيع أن يلم بجميع مكارمه؟

الديباجة

سيدي يا أمير المؤمنين وولي المتقين وحبيب الله ورسوله..

هذه رسالتي إليك في ذكرى استشهادك التي مر عليها مئات السنين، ومع ذلك لا تزال حية عالقة بجبين التاريخ، وألما وحرقة في قلب كل حر على هذه الأرض..

ماذا عساي أقول لك، وقد مر على استشهادك كل تلك السنين الطوال العجاف، ومر بنا فيها مئات المآسي والآلام والمصائب، وتخلفت أمتنا عن ركب الأمم، بعد أن استولى أصحاب الملك العضوض على زمام أمر الأمة، وملأوها بالدجل والخرافة والاستبداد.

لقد حولوا التوحيد الذي كنت تدعو إليه تجسيما.. والعدالة التي عشتها ورسمت معالمها جورا.. والعلم الذي ظللت طول عمرك تدعو إليه جهلا وخرافة..

ولم يكتفوا بذلك، بل راحوا إلى تلك القيم النبيلة التي عشت حياتك كلها تمثلها وتدعو إليها قيما مملوءة بالتناقضات.

لقد حول أبناء الملك العضوض بعدك الشخصية المسلمة التي وصفتها في موعظتك لهمام، والممتلئة بالسلام والمحبة والتواضع إلى شخصية ممتلئة بالعنف والبغض والكبرياء.. حتى صارت صورة المسلم لا تختلف عن صورة الوحش الكاسر، الذي لا ترى منه إلا أنيابه وشدته وحدته.

وكيف لا يحصل لنا ذلك سيدي.. وكيف لا يحيق بهذه الأمة ما نزل بها، وقد عزلتك، وعزلت معك أولئك السابقين الصادقين، وعزلت بعدهم سيدا شباب أهل الجنة، وأبناءهم من العترة الطاهرة، ليتولى أمرها الطلقاء وأبناء الطلقاء، وليعيثوا فيها ما شاءت لهم شياطينهم وأهواؤهم من ألوان الفساد.

في هذه الأيام أتذكر ضرارا.. ذلك الصاحب الوفي الذي

استطاع أن يقهر كل المخاوف، وأن ينطق بصفاتك أمام ألد أعدائك، مثلما فعل مؤمن آل فرعون حينما راح يذب عن موسى عليه السلام..

لقد قال في مجلسهم عندما طلبوا منه وصفك: (كان والله! بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلا، ويحكم عدلا، يتفجّر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من لسانه، يستوحش من الدنيا وزخرفها، ويستأنس بالليل ووحشته، وكان غزير الدمعة، طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشب، وكان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، وينبئنا إذا استنبأناه، ونحن ـ والله! ـ مع تقرّبه لنا وقربه منّا لا نكاد نكلّمه هيبة له، يعظّم أهل الدين، ويقرّب المساكين، لا يطمع القويّ في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله، وإنّي أشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه ـ وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه ـ قابضا على لحيته يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين وهو يقول: (يا دنيا غرّي غيري، إليّ تعرّضت أم إليّ تشوّقت؟ هيهات هيهات، قد باينتك ثلاثا لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وخطرك كبير، وعيشك حقير، آه! من قلّة الزّاد، وبعد السّفر، ووحشة الطّريق) [1]

وعندما سئل بعد نعته هذا عن مقدار حزنه عليك، قال: (حُزن من ذُبحَ ولدها في حجرها فلا ترقَأ عبرتها، ولا يَسكُن حُزنها)

ونحن مثله ـ سيدي ـ لا يقل حزننا عن حزنه، وألمنا عن ألمه.. وكيف لا يكون حزننا وألمنا كذلك.. وقد عشنا المآسي بعدك، ولا زال نعيشها.. فكل تحريف وقع في الإسلام، وكل دم سفك فيه.. هو بسبب ذلك التهور الذي وقع فيه من عزلك وأبعدك، وعزل معك كل تلك الوصايا النبوية التي دعت إليك، واعتبرتك إماما قمت أو قعدت.. واعتبرت الحق معك.. بل يدورمعك حيثما درت.

1 () لاستيعاب 3: 107، حلية الأولياء 1: 84.

في هذه الأيام أتـذكر ــ سـيدي ــ أمـك فاطمـة الـتي كـان رسول الله ﷺ يناديها أمي.. لقد كانت تسير بجنب الكعبة، وهي حامـل بـك، وشـاء اللـه أن تولـد في الكعبة(1)، كمـا شـاء أن تستشهد في مسجد الكوفـة.. وبين ولادتـك واستشـهادك كـانت حياتك كلها مسجدا وعبـادة وتقـوى، وكأنهـا تـردد بلسـان حالهـا قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَـاتِي لِلّـهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:162]

في هـذه الأيـام، وفي كـل الأيـام، أتـذكر ــ سـيدي ــ تلـك الضائقة المباركة التي نـزلت بوالـدك، وأنت لا تـزال في صـباك البـاكر، حينهـا طلب رسـول اللـه ﷺ من عمّيـه وعميـك حمـزة والعباس أن يتحمّلا ما نـزل بأخيهمـا، حينهـا أخـذ العبـاس أخـاك طالبا، وأخذ حمزة أخاك جعفرا.. أما رسول الله ﷺ، فقد أخـذك أنت، لأنه يعلم من تكون، وإلام يصير إليه أمرك.

ومنذ ذلك الوقت وإلى آخر يوم من حياته ﷺ، وأنت بجانبه، وهو لك مقام الوالد والأخ والأستاذ والمربي.. وكل شيء..

وحتى عندما أمر بغلق الأبواب المفتوحة إلى المسجد أمـر بـترك بابـك مفتوحـا، وكيـف لا يتركـه، وفيـه أنت.. وفيـه ابنتـه الزهراء.. وفيـه عترتـه الطـاهرة وريحانتـاه وسـيدا شـباب أهـل الجنة؟

لقد ورد في الحديث الذي حـاول الكثـير التشـكيك فيـه، لا من باب البحث العلمي، وإنما رغبة عنك، ما يدل كل عاقل على

---

(1) يشكك البعض في ولادة الإمام علي في الكعبة، ويتصور أن ذلـك قـول الشـيعة، وهذا غير صحيح، فالمصادر السنية والشـيعة تـذكر ذلـك، ومن علمـاء السـنة الـذي نصـوا على هذا، الحاكم النيسـابوري صـاحب المسـتدرك، حيث قـال: (وقـد تـواترت الأخبـار ان فاطمة بنت أسد ولـدت أمـير المؤمـنين علي بن أبي طـالب كـرّم اللـه وجهـه في جـوف الكعبة) (المستدرك 3 / 483)

ومنهم العلامة المحدث شاه ولي الله أحمد الدهلوي في (إزالـة الخفـاء)، حيث قـال : (قد تواترت الاخبار ان فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين علياً في جوف الكعبة)

ذلك، فعن زيد بن أرقم، وغيره من الصحابة قال: (كانت لنفر من أصحاب رسول الله ﷺ أبواب شارعة في المسجد، فقال ﷺ يوماً: سدّوا هذه الأبواب الاّ باب عليّ قال: فتكلّم في ذلك ناس، فقام رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (أما بعد، فاني أمرت بسدّ هذه الأبواب غير باب علي، فقال فيه قائلكم، والله ما سددت شيئاً ولا فتحته، ولكن أمرت بشيء فاتبعته) (1)

وهكذا روى الحرث بن مالك، قال: (أتيت مكة فلقيت سعد بن أبي وقاص، فقلت له: هل سمعت لعلّي منقبة؟ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في المسجد فنودي فينا لسدّه ليخرج من في المسجد الا آل رسول الله ﷺ، قال: فخرجنا، فلما أصبح أتاه عمّه، فقال: يا رسول الله، أخرجت أصحابك وأعمامك وأسكنت هذا الغلام؟ فقال رسول الله ﷺ: ما أنا أمرت بإخراجكم ولا بإسكان هذا الغلام، ان الله هو أمر به)(2)

لقد ذكرتَ ذلك ـ سيدي ــ لأعدائك الذي جهلوا مقامك، وراحوا يضعونك في محل واحد مع الطلقاء والبغاة والظلمة.. لقد كنت تقول لهم بكل تواضع، وأنت تذكر الحقيقة التي لم ولن يستطيع أحد إنكارها: (وقد علمتم موضعي من رسول الله ﷺ بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة. وضعني في حجره وأنا وليد، يضمّني إلى صدره، ويكنفني في فراشه، ويمسّني جسده، ويشمّني عرفه. وكان يمضغ الشّيء ثمّ يلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قول، ولا خطلة في فعل. وكنت أتّبعه اتّباع الفصيل أثر أمّه، يرفع لي في كلّ يوم من أخلاقه علما، ويأمرني

(1) رواه الترمذي، وقال عقبه: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وقد سمع مني محمد بن إسماعيل ـ يعني البخاري ـ هذا الحديث، سنن الترمذي ج5 ص 305، ورواه ابن المغازلي في المناقب ص260 الحديث 308 وابن عساكر في ترجمة الإمام علي بن أبي طالب من تاريخ مدينة دمشق ج1 ص258.

ومثلهم رواه أحمد في المسند (2/26)، وفي الفضائل (955)، وقال الحافظ ابن حجر: (هو حديث مشهور له طرق متعددة كل طريق منها على انفراده لا تقصر عن رتبة الحسن، ومجموعه مما يقطع بصحته على طريق كثير من أهل الحديث) [القول المسدد (20)]

(2) خصائص أميرالمؤمنين للنسائي، ص13.

بالاقتداء به)(1)

وذكرت لهم تلك الحقيقة التي لا يعقلها إلا من يقدر النبـوة حـق قـدرها، فقلت: (ولقـد قـرن اللـه بـه ﷺ من لـدن أن كـان فطيمـا أعظم ملـك من ملائكتـه، يسـلك بـه طريـق المكـارم ومحاسـن أخلاق العـالم ليلـه ونهـاره، ولقـد كنت أتبعـه اتبـاع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علما ويأمرني بالاقتداء به) (2)

أذكر جيدا ـ سيدي ومولاي ـ أنـك في تلـك السـنوات الـتي سبقت البعثة، حيث كان رسول الله ﷺ متوجها توجهـا كليـا إلى ربه.. كنت أنت ترى ذلك منه، وتتـأثر بـه.. وكنت ــ إذا مـا ذهب إلى غار حراء ليتعبد لربه ـ توصل له الطعام، وتلبث معه.

لقد ذكرت ذلك كله لمن جهل مقدارك، فقلت: (ولقد كــان يجاور في كل سنة بحراء، فأراه ولا يراه غيري، ولم يجتمع بيت واحـد يومئـذ في الإسـلام، غـير رسـول اللـه ﷺ وخديجـة، وأنـا ثالثهمـا، أرى نـور الـوحي والرسـالة، وأشـم ريح النبـوة، ولقـد سـمعت رنـة الشـيطان حين نـزل الـوحي عليـه ﷺ، فقلت: يـا رسـول اللـه! مـا هـذه الرنـة؟ فقـال: هـذا الشـيطان أيس من عبادته، إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى، إلا أنـك لسـت بنـبي، ولكنك وزير، وإنك لعلى خير)(3)

وقلت: (لقد عبدت اللـه تعـالى قبـل أن يعبـده أحـد من هـذه الأمّة) (4)، وقلت: (إني عبدالله وأخو رسوله، وأنا الصـديق الأكـبر، لا يقولها بعدي الاّ كاذب، صلّيت قبـل النـاس بسـبع سـنين قبـل أن يعبده أحدٌ من هذه الأمة) (5)

1() نهج البلاغة، الخطبة 192.

2() نهج البلاغة، الخطبة 192.

3() نهج البلاغة، الخطبة 190.

4() صفة الصفوة 1: 162.

5() المستدرك على الصّحيحين ج 3 ص 112.

ولـذلك لم تدنسـك الجاهليـة بأدناسـها، وكيـف تدنسـك وأنت تربية رسول الله ﷺ الخالصة.. وهـل يمكن لأحـد ربي في أحضـان رسـول اللـه ﷺ أن يلم بمـا يلم بـه أهـل الجاهليـة من الشـرك والفسوق والعصيان؟

وقد ظللت ـ سيدي ـ ملتزما بتلك التربية النبوية لا تحيـد عنهـا إلى آخر لحظة من حياتك، أذكر جيدا ذلك اليوم الذي عوتبت فيه على تقلّلك من الدنيا وشـدّة عيشـك.. حينهـا بكيت بحرقـة.. ثم قلت: (كان رسـول اللـه ﷺ يـبيت اللّيـالي طاويـاً ومـا شـبع من طعام أبداً، ولقد رأى يوماً ستراً موشى على باب فاطمة فرجـع ولم يدخل وقال: مالي ولهذا غَيِّبوه عنّي، ومـالي وللـدنيا، وكـان يجوع فيشدّ الحجر على بطنـه وكنتُ أشـدّه معـه، فهَـل أكرمَـهُ الله بذلك أم أهَانهُ؟ فاِن قال قائل اَهانَهُ كذب ومـرق، وان قـال اكرَمَهُ فيعلم ان الله قد أهان غيره حيث بسَط له الدنيا وزوَاهـا عن أقرب الناس اليـه وأعـزّهُم عليـه حيث خـرَجَ منهـا خميصـاً وورَدَ الآخـرة سـليماً، لم يرفـع حجـراً على حجـر، ولا لبنـة على لبنة، ولقد سَلكنا سبيله بعـده، واللـه لقـد رَفعتُ مـدرعتي هـذه حتى استحييتُ من راقعها، ولقد قيل لي الا تستبدل بهـا غيرهـا، فقلت للقائل ويحك اعزُب، فعند الصباح يحمـد القـوم السـرى) [1]

الركن الشديد:

ولهذا، فإنـه لا غرابـة أن تكـون أول النـاس إسـلاما.. لأنـك أسلمت نفسك لرسول الله ﷺ قبل ذلك، فكنت فانيا فيـه، وفي كل ما جاء به.. وهل يمكن لأحد في مثل عقلك وأدبك، يعيش مـع رسول الله ﷺ، ويـتربى على يديـه الشـريفين، ثم يعـرض عنـه، أو يسبقه أحد إليه؟

ولم تكتف بإعلان إسـلامك فقـط، ولا بصـلاتك مـع حبيبـك ﷺ فقط.. بل كنت معه في كل المحال تتلقى بخضوع مطلق كـل مـا يتنزل عليه من أوامر إلهية.. فعندما تنزل عليه الأمـر بقيـام الليـل، كما قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّل (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (2) نِصْـفَهُ

[1] () تذكرة الخواص: ص117.

أوِ انقُصْ مِنْـهُ قَلِيلاً (3) أَوْ زِدْ عَلَيْـهِ وَرَتِّلِ الْقُـرْآنَ تَـرْتِيلاً (4) إِنَّا سَـنُلْقِي عَلَيْـكَ قَـوْلاً ثَقِيلاً (5) إِنَّ نَاشِـئَةَ اللَّيْـلِ هِيَ أَشَـدُّ وَطْءًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [المزمل: 1-6] كنت معه في ذلـك.. وظللت طـول عمره معه في ذلك.

وعندما نزل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنـذِرْ عَشِـيرَتَكَ الأَقْـرَبِين﴾ [الشعراء:214] دعاك رسول الله ﷺ، وطلب منك أن تقف معه في هذا الموقـف الـذي لا يـزال خصـومك يتسـترون عليـه، بـل يتمنون لو قدروا أن يحذفوه من دواوين المؤرخين.

لكنه مع ذلك وصلنا بالأسانيد الكثيرة، لأن الباطـل لا يمكن أن يقاوم الحق، ونور الله لا يمكن أن تطفئه أفواه البشر.. لقـد بلغنا حديثك عن ذلك المشهد، لقد بلغنا قولك: (لما نـزلت هـذه الآية على رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِين﴾ [الشعراء: 214]، دعانى رسول الله ﷺ فقال لي: يا علي، إن اللـه أمـرني أن أنذر عشيرتي الأقربين.. فاصنع لنا صاعا من طعـام، واجعـل عليه رحل شاة، واملأ لنا عسـا من لبن، ثم اجمـع لي بـني عبـد المطلب حتى أكلمهم، وأبلغهم ما أمرت بـه، ففعلت مـا أمـرني بـه ثم دعـوتهم لـه، وهم يومئـذ أربعـون رجلا، يزيـدون رجلا أو ينقصونه، فلما اجتمعوا إليه دعاني بالطعـام الـذي صـنعت لهم، فجئت به، فلما وضعته تنـاول رسـول اللـه ﷺ حذيـة من اللحم، فشقها بأسـنانه، ثم ألقاهـا في نـواحي الصـحفة ثم قـال: خـذوا بسم الله، فأكل القوم حـتى مـا لهم بشـيء حاجـة ومـا أرى إلا موضع أيديهم، وأيم الله الذي نفس علي بيده، وإن كان الرجــل الواحد منهم ليأكل مـا قـدمت لجميعهم ثم قـال: اسـق القـوم، فجئتهم بذلك العس، فشربوا منـه حـتى رووا منـه جميعـا، وأيم الله إن كان الرجل الواحد منهم ليشرب مثله، فلما أراد رسـول اللــه ﷺ أن يكلمهم بــدره أبــو لهب إلى الكلام، فقــال: لهــدما سحركم صـاحبكم! فتفـرق القـوم ولم يكلمهم رسـول اللـه ﷺ، فقال: الغد يا علي، إن هذا الرجل سـبقني إلى مـا قـد سـمعت من القول، فتفرق القوم قبـل أن أكلمهم، فعـد لنـا من الطعـام بمثل ما صـنعت، ثم اجمعهم إلي، قـال: ففعلت، ثم جمعتهم ثم دعاني بالطعام فقربتـه لهم، ففعـل كمـا فعـل بـالأمس، فـأكلوا

حتى ما لهم بشيء حاجة ثم قال: اسقهم، فجئتهم بذلك العس، فشربوا حتى رووا منه جميعا، ثم تكلم رسول الله ﷺ، فقال: يا بني عبد المطلب، إني والله ما أعلم شابا في العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟ قال: فأحجم القوم عنها جميعا، وقلت: وإني لأحدثهم سنا، وأرمصهم عينا، وأعظمهم بطنا، وأحمشهم ساقا، أنا يا نبي الله، أكون وزيرك عليه فأخذ برقبتي، ثم قال: (إن هذا أخي ووصى وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا)، فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع) (1)

وهكذا كنت معه عندما نزل عليه قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر:94]، حينها تعرض رسول الله ﷺ هو والسابقون من الصحابة لكل أصناف الأذى، وكنت معه في ذلك كله تعاني مثلما يعاني، وتصد عنه مثلما كان أبوك يصد عنه.

فعندما حوصر في الشعب الذي دام ثلاث سنوات كاملة، كنت معه في الشعب، وفي ذلك الحصار الشديد.. ولم يكن معك أحد من الصحابة إلا من آمن من بني هاشم وأبو سلمة وزوجه أم سلمة.. وهذه السنوات والمعاناة التي كنت تعاني فيها، وتتربى على يدي رسول الله ﷺ، وتستمع إلى القرآن الكريم، وهو ينزل غضا طريا كفيلة لأن تعطيك من المرتبة ما لا تناطحه الجوزاء، وما لا يدانيك فيه أحد.

وهكذا ظللت مع رسول الله ﷺ إلى أن أخرجه أبو سفيان وحزبه، والذين حولتهم الأمة بعدك إلى صحابة أجلاء، وقرنتهم بك وبالسابقين من أصحابك، وحينها قدمت درسا من دروس الفداء العظيمة، حين خلفته في فراشه، وحين اتشحت ببردته الخضراء لتوهم أولئك المشركين المتربصين برسول الله ﷺ أنك هو.. وكنت حينها مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن

1() تاريخ الطبري، (2/ 319)

يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ الله وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ [البقـرة: 207]

لقد قال بعض الشعراء يعبر عن تضحيتك العظيمة تلك:

ومواقف لك دون أحمد — بمقامك التّعريف
فعلى الفراش مبيت — تهدي إليك بوارقا
فرقدت مثلوج الفؤاد — يهدي القراع لسمعك
فكفيت ليلته وقمت — بالنّفس لا فشلا ولا
واستصبحوا فرأوا دوين — جبلا أشمّ وفارسا
رصدوا الصّباح لينفقوا — أوما دروا كنز الهدى

وعندما ذهب رسول الله ﷺ للمدينة، كنت سنده فيها، كمـا كنت سنده في مكة المكرمـة، بـل كنت تتـولى أصـعب المهـام وأشدها وأخطرها، ولذلك فليس غريبا أن يتخذك رسول الله ﷺ أخا له عندما آخى بين المهاجرين والأنصار.. بـل إنـه آخى بينـك وبينه قبل ذلك في مكة المكرمـة، كمـا حـدث بـذلك المحـدثون الثقاة.

فقـد حـديث ابن عمـر قـال: إن رسـول اللـه ﷺ آخى بين أصحابه، فآخى بين أبي بكـر وعمـر، وبين طلحـة والزبـير، وبين عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، فقال علي: يـا رسـول الله: إنك قد آخيتَ بين أصحابك، فمن أخي؟، قـال رسـول اللـه ﷺ: (أما ترضى يـا علي أن أكـون أخـاك؟.. أنت أخي في الـدنيا والآخرة)[1]

بل إن في قوله ﷺ: (أنت مني بمنزلـة هـارون من موسـى إلا أنه لا نبي بعدي)[2] ما يدل دلالـة واضـحة على تلـك الأخـوة، التي لم تكن أخوة عاطفية فقط، بل كـانت أخـوة مشـاركة في

1() المستدرك للحاكم 3/ 14، سنن الترمذي (6/ 80)

2() هذا الحديث من الأحاديث المتواترة التي نقلها الفريقان بأسنادهم الكثيرة عن رسول الله ﷺ عنـد توجّهـه إلى غـزوة تبـوك. وهـو مـذكور في أغلب المجاميع السنيّة والشيعية.

تنفيذ المهام العظيمـة الـتي تتطلبهـا الرسـالة الإلهيـة الخاتمـة، والـتي عـبر عنهـا قولـه تعـالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ [المزمل:5]

ولذلك كنت سند رسول الله ﷺ في كل ما مر به وبالدعوة الإسلامية من شدائد ومحن.. لعل أعظمهـا تلـك الحـروب الـتي ووجـه بهـا الإسـلام في المدينـة المنـورة.. فالتـاريخ يحفـظ لـك بطولاتك العظيمة.. فليس هناك معركة ولا غزوة إلا كنت بطلها الذي ترتعد منه قلوب الأعداء.. وكنت بحق سيف الله المسلول على أعدائه.

أذكـر جيـدا موقفـك يـوم بـدر، وفي أول معركـة جمعت معسـكر الإيمـان مـع معسـكر الشـيطان.. حينهـا طلب صـناديد المشركين من يبارزهم.. وكنت حينها شابا يافعـا، وكـان يمكنـك أن تختبئ في أي محل، أو تنشغل بأي شـيء، لتحفـظ حياتـك.. لكنك لم تفعل، وتعرضت لصناديد المشركين، وأبطالهم الكبـار، وجرعتهم مرارة سيفك.

وهكـذا كـان حالـك في كـل المواقـف.. لقـد قـال ابن أبي الحديد يصف شجاعتك: (وأمّا الشجاعة فإنّه أنسى النـاس فيهـا ذكر من كـان قبلـه، ومحـا اسـم من يـأتي بعـده، ومقاماتـه في الحـرب مشـهورة تضـرب بهـا الأمثـال إلى يـوم القيامـة. وهـو الشجاع الذي ما فرّ قطّ، ولا ارتاع من كتيبـة، ولا بـارز أحـدا إلاّ قتله، ولا ضرب ضربة قطّ فاحتاجت الأولى إلى الثانية)[1]

وقد شهد لك أعداؤك بتلك الشجاعة والبطولـة، فقـد روي أنه لمّا دعوت معاوية إلى المبارزة ليستريح النـاس من الحـرب بقتل أحدكما، قـال لـه عمـرو: لقـد أنصـفك، فقـال معاويـة: مـا غششتني منذ صحبتني إلاّ اليوم، أتـأمرني بمبـارزة أبي الحسـن وأنت تعلم أنّه الشجاع المطرق، أراك طمعت في امارة الشـام بعدي[2]..

1() شرح نهج البلاغة ـ ابن أبي الحديد 1/ 20.

2() شرح نهج البلاغة 1/20 و5/217، محاضرات الأُدباء للجاحظ 1/131.

بل إن أعداءك كانو يفتخرون بأنك أنت الذي قتلتهم.. فقد روي أن أخت عمرو بن عبد ودّ قالت ترثيه(1):

لو كان قاتل عمرو غير قاتله بكيته ما أقام الرّوح في جسدي
لكنّ قاتله من لا يعاب به وكان يدعى أبوه بيضة البلد

وما تلك الشجاعة والبطولة التي وهبك الله إياها من دون كثير من الناس إلا لما كان في قلبك من قوة الإيمان التي زرعها فيك وتعهدها حبيك محمد ﷺ.. لذلك كنت تخرج في أيام صفّين وحدك بغير حماية، ولما قيل لك: تقتل أهل الشام بالغداة وتظهر بالعشي في إزار ورداء؟ قلت: (بالموت تخوّفوني؟ فو الله ما أبالي سقطت على الموت أم سقط عليّ!)(2)

أذكر جيدا موقفك يوم الخندق.. إن صورتك يومها لا تبرح بالي، لأنها عجيبة من عجائبك، فقد وصف الله تلك الأيام الشديدة التي اجتمع فيها الشرك والنفاق واليهودية لضرب الإسلام بقوله: ﴿إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب:10]

في ذلك اليوم الذي ارتعدت فيه القلوب، وبلغت الحناجر، وقال ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ [الأحزاب:12] كان قلبك ثابتا ممتلئا قوة وإيمانا.

في ذلك اليوم خرج عمرو بن عبد ود، ونادى بكل كبرياء: هل من مبارز؟ فلم يجبه أحد من المسلمين، فاستأذنت حينها رسول الله ﷺ، فقال لك: (إنّه عمرو).. ثم كرّر النداء ثانية وثالثة، وأنت في كل حين تستأذن رسول الله ﷺ، فيجيبك بمثل ذلك، إلى أن اكتشف من كان حاضرا في تلك المعركة أنه لا

---

(1) شرح نهج البلاغة ـ ابن أبي الحديد 1/ 20.

(2) العقد الفريد 1/ 102.

يمكن لأحـد أن يـبرز لـه، حينهـا أذن لـك رسـول اللـه ﷺ.. ولم يؤخرك حرصا عليك، وإنما أخرك ليعرف الجمع مقامك.

وعندما برزت له، ونظر رسول الله ﷺ إليـك، وإلى الأنـوار التي تشع منك، قال: (برز الايمان كلّه إلى الشرك كلّه)(1)

وعندما دنوت من عدوك اللدود صاحب القوة والبطش، لم تستعجل بضـربه، وإنمـا رحت تـدعوه إلى اللـه،وتقـول لـه: (يـا عمـرو إنّـك كنت تقـول: لا يـدعوني أحـد إلى ثلاث إلاّ قبلتهـا أو واحدة منها)، قال: أجـل، فقلت: (إنّي أدعـوك إلى شـهادة أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمداً رسول الله، وأن تسلم لربّ العـالمين)، فقال: أخّر هذا عنّي، فقلت: (أما أنّهـا خـير لـك لـو أخـذتها)، ثمّ قلت له: هـا هنـا أخـرى، قـال: ومـا هي؟ قلت: ترجـع من حيث أتيت، قال: لا، تحدّث نساء قريش عنّي بذلك أبداً، فقلت: ها هنا أخرى، قال: وما هي؟ قلت: أبارزك وتبارزني.

حينها تعجب عمـرو من جرأتـك، وضـحك ضـحكة سـخرية، وقال: إنّ هـذه الخصـلة مـا كنت أظنّ أحـداً من العـرب يطلبهـا منّي، وأنا أكره أن أقتل الرجـل الكـريم مثلـك، وقـد كـان أبـوك نديماً لي، فقلت: وأنا كذلك، ولكنّي أحبّ أن أقتلك ما دمت أبيّاً للحق.

بعدها حصل ما عبر عنه جابر بن عبد الله بقولـه: (وتجـاولا وثارت بينهما فـترة، وبقيـا سـاعة طويلـة لم أرهمـا ولا سـمعت لهما صوتاً، ثمّ سمعنا التكبير فعلمنا أنّ علياً قد قتله)(2)

لم يكن ذلك موقفك الوحيد.. بل كانت له أخوات كثيرة..

من بينها موقفـك يـوم خيـبر ذلـك الـذي شـهد لـه التـاريخ، وحفظه الرواة، ونقلوه بالأسانيد الكثـيرة الـتي لا مجـال للشـك فيها، منها ما حـدث بـه عبـد الرحمـان بن أبي ليلى، قـال: كـان

1() كشـف الغمـة: 1/205، وإعلام الـورى ص194 ، ومنـاقب آل أبي طـالب: 3/136.

2() انظر: البيهقي في دلائل النبوة، السيرة النبوية لابن كثير ج3 ص204.

علي يخــرج في الشــتاء في إزار ورداء، ثــوبين خفيفين، وفي الصيف في القباء المحشو، والثوب الثقيل، فقـال: النـاس لعبـد الرحمان: لو قلت لأبيك فإنـه يسـهر معـه، فسألت أبي، فقلت: إن الناس قد رأوا من أمير المؤمنين شيئا استنكروه، قال: ومــا ذاك؟ قال: يخرج في الحر الشديد في القباء المحشـو، والثـوب الثقيل، ولا يبـالي ذلـك، ويخـرج في الـبرد الشـديد في الثـوبين الخفيفين، والملاءتين، لا يبالي ذلك، ولا يتقي بردا، فهل سمعت في ذلك شيئا؟ فقـد أمـروني أن أسـألك أن تسـأله إذا سـمرت عنده، فسـمر عنـده، فقـال: يـا أمـير المؤمـنين، إن النـاس قـد تفقدوا منك شيئا، قال: وما هو؟ قـال: تخـرج في الحـر الشـديد في القباء المحشو، والثـوب الثقيـل، وتخـرج في الـبرد الشـديد في الثــوبين الخفيفين، وفي الملاءتين، لا تبــالي ذلــك ولا تتقي بردا، قال: ومـا كنت معنـا يـا أبـا ليلى بخيـبر؟ قـال: قلت: بلى، والله قد كنت معكم، قـال: فـإن رسـول اللـه ﷺ بعث أبـا بكـر، فسـار بالنـاس فـانهزم، حـتى رجـع إليـه، وبعث عمـر، فـانهزم بالناس، حتى انتهى إليه، فقـال رسـول اللـه ﷺ: لأعطين الرايـة رجلا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله له، ليس بفرار، فأرسل إلي فدعاني، فأتيته وأنا أرمد لا أبصر شيئا، فتفل في عيني، وقال: اللهم اكفه الحر والـبرد، قـال: فمـا آذاني بعـد حر ولا برد[1].

لقد شهد الكثير من الصـحابة ذلـك الموقـف، وكلهم تمنـوا أن يحصل لهم مثله.. لقد ورد في الحديث عن سـعد بن وقـاص قوله، وهو يذكر مناقبـك: (وسـمعته يقـول يـوم خيـبر: (لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، فتطاولنا لها فقال: ادعو لى عليًـا، فـأتى بـه أرمـد، فبصـق فى عينـه، ودفـع الراية إليه، ففتح الله عليه)[2]

المناقب الشريفة:

1() رواه أحمـد 1/99 (778) و1/133 (1117)، وابن ماجـة 117، ورواه البخـاري: 4/64 (2975) و5/23 (3702) وفي 5/171 (4209)، ومسلم: 7/122 (6303)

2() رواه الترمذى فى المناقب: مناقب على بن أبى طالب، وقال: هـذا حـديث حسـن صـحيح غـريب من هـذا الوجـه. صـحيح الترمـذى: 5/638؛ وأخرجه مسلم من الطريقين جميعًا فى فضائل الصحابة: من فضائل على بن أبى طالب: 5/268.

وهكـذا كـان رسـول اللـه ﷺ يشـيد بـك في كـل محـل، ليعرفــوك، وليقتــدوا بــك في تقــواك وإخلاصــك وشــجاعتك وتسليمك التام لله ورسوله.. بل إن اللـه تعـالى هـو الـذي كـان يتولى ذلك.

لقد ذكرت ذلك، فقلت: لمـا نـزلت عشـر آيـات من بـراءة على النبى ﷺ دعا النبى ﷺ أبا بكر فبعثه بهـا ليقرأهـا على أهـل مكة، ثم دعانى النبى ﷺ فقال: أدرك أبا بكر فحيثما لحقته، فخذ الكتـاب منـه، فـاذهب إلى أهـل مكـة فـاقرأه عليهم، فلحقتـه بالجحفـة، فأخـذت الكتـاب منـه، ورجـع أبـو بكـر إلى النـبى ﷺ، فقال: يـا رسـول اللـه نـزل فى شـيء، قـال: (لا، ولكن جبريـل جاءنى، فقال: لن يؤدى عنك إلا أنت أو رجل منك)[1]

وقد وصلنا بالأسانيد الصحيحة أنك قلت حينها لرسول اللــه ﷺ، وكأنــك تعتــذر لــه: (يــا نــبي اللــه إني لســت باللســن ولا بالخطيب)، فقال: (ما بد أن أذهب بهـا أنـا، أو تـذهب بهـا أنت)، فقلت حينهــا: (فــإن كــان ولا بــد، فســأذهب أنــا)، فقــال ﷺ: (فانطلق، فإن الله يثبت لسـانك ويهـدي قلبـك)، ثم وضـع يـده الشريفة على فمك الشريف [2].

وهكذا اختارك رسول الله ﷺ بأمر من ربه سبحانه وتعـالى لتكون معه يوم المباهلة التي ذكرها اللـه تعـالى، فقـال: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَـاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُـلْ تَعَـالَوْا نَـدْعُ أَبْنَاءَنَـا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِـلْ فَنَجْعَـلْ لَعْنَتَ الله عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: 61]

ففي الحديث الذي رواه جابر بن عبد الله، قال: قـدم على النبي ﷺ العاقب والطيب، فدعاهما إلى الملاعنـة فواعـداه على أن يلاعناه الغـداة. قـال: فغـدا رسـول اللـه ﷺ، فأخـذ بيـد علي وفاطمة والحسـن والحسـين، ثم أرسـل إليهمـا فأبيـا أن يجيئـا، وأقرا بالخراج، قال: فقال رسول الله ﷺ: (والذي بعثني بــالحق

1() رواه أحمد (1/151، رقم 1296)، وعبد الله فى زوائده على المسند، وأبو الشيخ، وابن مردويه، [كنز العمال 4400]

2() انظر الحديث في: مسند أحمد 1 ص 150.

لو قالا لا لأمطر عليهم الوادي نارا)، قال جابر: فيهم نزلت تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ

وقد قال جابر في تفسير الآية الكريمة: وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ، رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب نَدْعُ أَبْنَاءَنَا الحسن والحسين وَنِسَاءَنَا فاطمة[1].

وهكذا قال يوم سار ﷺ إلى تبوك، حينها تركك في المدينة.. وذكر لك ولجميع من حضر تبوك أنك منه بمنزلة هارون من موسى.. ولا فارق بينكما إلا في النبوة، لأن النبوة ختمت برسول الله ﷺ.

ففي الحديث عن سعيد بن المسيب، قال: قلت لسعد بن مالك: إني أريد أن أسألك عن حديث، وأنا أهابك أن أسألك عنه، فقال: لا تفعل يا ابن أخي، إذا علمت أن عندي علما فسلني عنه، ولا تهبني، قال: فقلت: قول رسول الله ﷺ لعلي حين خلفه بالمدينة في غزوة تبوك، فقال سعد: خلف النبي ﷺ عليا بالمدينة في غزوة تبوك، فقال: يا رسول الله، أتخلفني في الخالفة في النساء والصبيان؟ فقال: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ قال: بلى يا رسول الله، قال: فأدبر علي مسرعا كأني أنظر إلى غبار قدميه يسطع[2].

فقد كان رسول الله ﷺ ينتهز أي مناسبة لبيان فضلك، ولترغيب المؤمنين في ولايتك ومحبتك ونصرتك لأنه يعلم المصير الذي ينتظرك من طرف الطلقاء والمنافقين ومرضى القلوب.

ومن تلك المناسبات ما صار يسمى [حديث الطير]، والذي اجتهد كل مناوئيك على إنكاره على الرغم من أسانيده الكثيرة[3].. ولو أن أحدها فقط كان في أعدائك، لطاروا به فرحا، ولحفظوه كما يحفظون السورة من القرآن.

1() مسلم 97/119 (6295و6296)، والنسائي في الكبرى: 8381، وغيرهم كثير.

2() مسلم 97/119 (6295و6296)، والنسائي في الكبرى: 8381، وغيرهم كثير.

لقد حدث أنس بن مالك قال: كنت أخدم رسول الله ﷺ، فقدم لرسول الله ﷺ فرخ مشوي، فقال: (اللهم ائتني بأحب خلقك إليك يأكل معي من هذا الطير) قال: فقلت: اللهم اجعله رجلا من الأنصار فجاء علي، فقلت: إن رسول الله ﷺ على حاجة، ثم جاء، فقلت: إن رسول الله ﷺ على حاجة ثم جاء، فقال رسول الله ﷺ: (افتح) فدخل، فقال رسول الله ﷺ: (ما حبسك علي) فقال: (إن هذه آخر ثلاث كرات يردني أنس يزعم إنك على حاجة)، فقال: (ما حملك على ما صنعت؟) فقلت: يا رسول الله، سمعت دعاءك، فأحببت أن يكون رجلا من قومي، فقال رسول الله: (إن الرجل قد يحب قومه)(1)

بل إنه ﷺ لم يكتف بذلك، وخاصة عندما كان يرى المنافقين ومرضى القلوب وهم ينظرون بحقد شديد إلى مواقفك وبطولاتك ونصرتك للإسلام وحب رسول الله ﷺ لك.. فلذلك أخبر ﷺ ـ وهو الذي لا ينطق عن الهوى ــ أن بغضك علامة من علامات النفاق.

ففي الحديث عنك قلت: (والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبي الأمي ﷺ: (ألا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق)(2)

وحدث ابن عمر قال: (ما كنا نعرف المنافقين على عهد النبي ﷺ إلا ببغضهم علياً)

3() رواه من الصحابة: أنس بن مالك، وعلي، وابن عباس، وجابر بن عبد الله، وأبي رافع، ويعلى بن مرة، وسفينة.. ولذلك فإنه يكاد يصير من الأحاديث من المتواترة، بل هناك من صرح بتواتره.. قد ذكر ابن كثير: أنّ الحافظ الذهبي ألف جزءا في طرق الحديث، فبلغ عدد من رواه عن أنس: بضعة وتسعين نفسا [البداية والنهاية (4/416)]، وقال الذهبي: (له طرق كثيرة جدا قد أفردتـُها بمصنـَّف، ومجموعها يوجب أن يكون الحديث له أصل) [تذكرة الحفاظ (3/1043)]

1() المستدرك على الصحيحين للحاكم (3/ـ 141)،وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

2() مسلم في صحيحه (78)، والترمذي (5/306) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه(114) والنسائي (8/117) وفي خصائص علي (100-102)، وعبد الله بن أحمد في زياداته على الفضائل (1102) وأبو نعيم في الحلية (4/185)

وحدث جابر قال: (ما كنا نعرف منافقينا معشر الأنصـار إلا ببغضهم لعلي)[1]

وحدث أبو سعيد الخـدري قـال: (إنمـا كنـا نعـرف منـافقي الأنصار ببغضهم عليا)[2]

وحدث أبو عثمان النهدي، قال: قال رجل لسلمان: ما أشد حبك لعلي؟ قال سمعت رسول الله ﷺ يقـول: (من أحب عليـاً فقد أحبني، ومن أحبـني فقـد أحب اللـه عـز وجـل، ومن أبغض علياً فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله عز وجل) [3]

لقد اتفق هؤلاء وغيرهم كثير على ما لك من منزلة، وعلى أن الله تعالى شاء، ولا راد لاختيـاره أن تكـون ميزانـا تـوزن بـه القلوب، ويميز به بين المؤمنين والمنافقين، كما شاء قبـل ذلـك أن يجعـل آدم عليـه السـلام محكـا لتميـيز المسـتكبرين عن المتواضعين المخلصين.

بل كما شاء أن يجعل ناقة ثمود معيارا يميز بـه المؤمنـون الخالصون من أصحاب الأهواء والقلوب المريضة.. فاللـه يخلـق ما يشاء.. ويختار ما يشاء... وويـل لمن يعـارض اختيـار اللـه، أو يجادل فيه، أو يستكبر عليه..

لقد ذكر اللـه تعـالى ذلـك عن سـائر الأمم، وأنهـا لم تبتـل فقط بأنبيائها، وإنما ابتليت أيضا بأبنائهم وأحفادهم، قال تعـالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ الله مِن فَضْلِهِ فَقَـدْ آتَيْنَـا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء:54]

ولهذا ورد في الحديث عن رسو الله ﷺ قوله: (عليّ قسيم

---

[1] البزار (كشف الأستار 3/169)، وعبد الله في زيادات الفضائل (1086)

[2] أحمد في فضائل الصحابة بإسناده على شرط البخاري.

[3] انظر: المستدرك (3/130) الطبراني في المعجم الكبير(23/380/901) عن أم سلمة، وقال الهيثمي في المجمـع (9/132): (وإسـناده حسـن)، وقـد علـق عليـه الشـيخ ممدوح بقوله: (فهذا طريقان للحديث كلاهما حسن لذاته، فالحديث: صحيح بهما)

الجنة والنار)(1)

وقد فسره أحمد بن حنبل، الذي يدعي الكثير ممن يناصبونك العداء نسبتهم إليه، فقد حدث محمد بن منصور الطوسي قال: كنّا عند أحمد بن حنبل فقال له رجل: يا أبا عبد الله، ما تقول في هذا الحديث الذي يروى أنّ علياً قال: (أنا قسيم النار)؟ فقال: وما تنكرون من ذا؟ أليس روينا أنّ النبي ﷺ قال لعلي: (لايحبّك إلاّ مؤمن ولا يبغضك إلاّ منافق)؟ قلنا: بلى. قال: فأين المؤمن؟ قلنا: في الجنة. قال: وأين المنافق؟ قلنا: في النار، قال: فعليٌّ قسيم النار (2).

بل إن أحمد نفسه أقام الحجة على من يدعي نسبته إليه من أنه لم يرد في حق أحد من الصحابة ما ورد في فضلك، فقد روي عنه قوله: (ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ من الفضائل ما جاء لعلي) (3)

بل إنه اعتبر كل ما ورد في فضل أعدائك مدسوسا ومكذوبا على رسول الله ﷺ ليجعلوك وأعداءك في مرتبة واحدة، فقد حدث عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: سألت أبي فقلت: ما تقول في علي ومعاوية؟ فأطرق ثم قال:إيش أقول فيهما؟إنّ علياً كان كثير الأعداء، ففتش أعداؤه له عيباً فلم يجدوا، فجاءوا إلى رجل قد حاربه وقاتله فأطرَوه كياداً منهم له(4).

وقد علق ابن حجر على هذه الرواية بقوله: (فأشار بهذا إلى ما اختلقوه لمعاوية من الفضائل ممّا لا أصل له، وقد ورد في فضائل معاوية أحاديث كثيرة لكن ليس فيها ما يصحّ من طريق الإسناد، وبذلك جزم إسحاق بن راهويه والنسائي

1() مستدرك الصحيحين للحاكم النيسابوري 3/127..

2() رواه ابن أبي يعلى في الطبقات(358/2)

3() المستدرك على الصحيحين:3/107.

4() الموضوعات لابن الجوزي: 2/24..

وغيرهما)[1]

الولاية الشاملة:

لقد قرأت سيدي بشغف وشوق وحنين تلك الكلمات المقدسة التي نطق بها رسول الله ﷺ، وهو يتحدث عنك، وعن فضلك، وعن الدور العظيم الذي كلفت به في هذه الأمة، والذي لا يختلف أبدا عن دور هارون مع أخيه موسى عليهما السلام.

لكني لم أجد موقفا ممتلئا بالعبر لمن يعتبر مثل موقفه في غدير خم.. فقد كان موقفا عجيبا واضحا.. ولست أدري كيف غيب، ولا كيف طمس، ولا كيف أهيلت عليه كل ألوان الكتمان والتحريف، مع كونه قد روي بكل صيغ التواتر التي يؤمنون بها، فقد رواه مائة وعشرة من الصحابة كما ذكر ذللك المحققون الصادقون، لا المحققون المتلاعبون [2].

دعني سيدي أستعيد تلك المشاهد التي كافأك الله بها على صدقك وإخلاصك وتحققك بالإسلام المحمدي الأصيل الذي لم يمزج بأي جاهلية، ولا مرض، ولا نفاق.. ولا أي غرض من الأغراض، أو شائبة من الشوائب.

بعد أن قضى رسول الله ﷺ مناسكه[3] وقفل راجعا إلى المدينة، فلمّا انتهى إلى غدير خم، في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة نزل عليه قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ الله لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِين﴾ [المائدة:67]

حينها طلب رسول الله ﷺ أن يقام له من حدائج الإبل، فصعد عليه، ثم قال: (إنّي أوشك أن أدعى فأجيب، وإنّي مسئول، وأنتم مسئولون، فما ذا أنتم قائلون؟)، فقالوا: نشهد أنّك قد بلّغت، ونصحت وجهدت فجزاك الله خيرا.

1() فتح الباري:7/104.

2() انظر موسوعة الغدير، المحقّق الأميني: 1: 14 ـ 61.

3() ما أورده هنا هو من روايات متفرقة وردت في الصحاح والسنن وغيرها.

ثم قال لهم رسول الله ﷺ: (ألستم تشهدون أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمّدا عبده ورسوله، وأنّ جنّته حق، وأنّ ناره حق، وأنّ الموت حقّ، وأنّ السّاعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور...)، فقالوا: بلى نشهد بذلك، فقال ﷺ: (اللهمّ اشهد)

ثم قال ﷺ: (إنّي فرط على الحوض، وأنتم واردون عليّ الحوض، وإنّ عرضه ما بين صنعاء وبصرى، فيه أقداح عدد النّجوم من فضّة، فانظروا كيف تخلّفوني في الثّقلين؟.. الثّقل الأكبر كتاب الله، طرف بيد الله عزّ وجلّ، وطرف بأيديكم فتمسّكوا به لا تضلّوا، والآخر الأصغر عترتي، وإنّ اللّطيف الخبير نبّأني أنّهما لن يتفرّقا حتّى يردا عليّ الحوض، فسألت ذلك لهما ربّي، فلا تقدّموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا) (1)

ثمّ أخذ ﷺ يده الشريفة بيدك الشريفة، ثم رفعها، حتى بان بياض إبطيهما، ثم قال مخاطبا الجموع الكثيرة التي احتشدت لتشهد تتويجك بتلك المكرمة العظيمة: (أيّها النّاس، من أولى النّاس بالمؤمنين من أنفسهم؟)، فأجابوا: الله ورسوله أعلم.

فقال ﷺ: (إنّ الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعليّ مولاه)

وكرر ذلك وأكده، ثم ختمه بقوله: (اللهمّ وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحبّ من أحبّه، وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحقّ معه حيث دار، ألا فليبلّغ الشّاهد الغائب...)(2)

---

(1) صحيح مسلم (2408) والترمذي (3788) واللفظ له. وغيرهما كثير.

(2) الشطر الأول من الحديث ـ كما ينص المحدثون ـ: متواتر، نص على تواتره عدد من الحفاظ، وأما الزيادة الواردة في الحديث، وهي قوله ﷺ: (اللهم وال من والاه،وعاد من عاداه) فهي صحيحة، وقد وردت عن عدد من الصحابة، وصححها عدد من الحفاظ من رواية أنس بن مالك، وأبي سعيد الخدري، وزيد بن أرقم، وسعد بن أبي وقاص.. وقد خصص الحافظ ابن عقدة لها مصنفا مستقلا، استوعب فيه طرقها، ومثله السيد أحمد بن الصديق الغماري في: (الإعلام بطرق المتواتر من حديثه عليه السلام)، بل إن الإمام

لكن هذا الموقف مع وضـوحه وجلائـه لم يـزد أعـداءك إلا رغبة عنك.. فراحوا يشككون فيه، ويؤولونـه.. بـل يحولونـه إلى مذمة، بدل أن يكون منقبة.

وأحسنهم حالا من زعم أن الولاء لـك لا يختلـف عن الـولاء لسائر المؤمـنين، من المحبـة والنصـرة وإلقـاء السـلام.. وكـأن رسول الله ﷺ كان عابثا عندما جمع كل تلـك الجمـوع، وأوقفهـا ليخبرها بذلك البلاغ الخطير الذي نفذ به قولـه تعـالى:: ﴿ يَاأَيُّهَـا الرَّسُـولُ بَلِّغْ مَـا أُنـزِلَ إِلَيْـكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَـلْ فَمَـا بَلَّغْتَ رِسَـالَتَهُ وَاللّـهُ يَعْصِـمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللـه لاَ يَهْـدِي الْقَـوْمَ الْكَافِرِين﴾ [المائدة:67]

بل إن بعضهم راح يفسر ذلك تفسيرا عجيبـا يسـيء إليـك، حين زعم أن النبي ﷺ أراد الرفـع من شـأنك، والـذب عنـك لأن بعض أهـل اليمن وقـع فيـك، وتنقصـك لأجـل بعض متـاع الـدنيا القليل..

وقد نسـي هـؤلاء الـذين يزعمـون لأنفسـهم العلم أن أهـل اليمن قـد عـادوا من مكـة إلى اليمن، وأن مـا حصـل لا يحتـاج لجمـع النـاس وإيقـافهم تحت الشـمس بعـد أن اقـتربوا من المدينة..

ونسوا أكثر من ذلك أنهم يستدركون على رسول الله ﷺ.. فهو ذكر كل ذلـك مطلقـا من دون تحديـد.. فلم يـأتِ على ذكـر اليمنيين أصلاً، وإنما كان كلامـه عن المسـتقبل، فقـد أخـبر أنـه سيأتي داعي ربه فيجيبه.. وداعي ربه هو الموت..

لم تقتصر ـ سـدي ـ إسـاءتهم إليـك في ذلـك.. بـل إنهم ـ بالحقد الـذي يعمـر قلـوبهم ـ راحـوا يشـيعون بين النـاس أنـك رغبت عن فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ، وأردت أن تتزوج بنت أبي جاهلة.. ويلهم كيـف يتجاسـرون عليـك، وعلى مقامـك الرفيع.. وهل يمكن لمن يكون في بيته سيدة نساء العالمين أن يضم إليها بنت عدوه اللدود؟

أحمد نفسه ذكر في (الفضائل)، والنسائي في (الخصائص)، وابن الجزري في (المناقب)، والهيثمي في (المجمع) روايات كثيرة في الدلالة عليه وعلى معناه.

وهل يمكن لمثلك، وأنت العاشق لرسول الله ﷺ الفاني في حبه، أن تؤذيه وتؤذي ابنته، وأنت تعلم مكانتها ودرجتها عند الله؟

لا يمكنني لك ـ سيدي ـ وأنا أعيش في رحاب ذكراك أن أذكر لك كل ما أساءوا به إليك.. ولا يمكنني أن أذكر لك كيف حولوا من سبك شريعة ودينا، وعلموه الصبيان.. وحفظوه لأولادهم كما يحفظونهم القرآن.. حتى صار من يذكرك متهما، ومن يحبك زنديقا ومجوسيا.

حتى أنهم في ذلك الزمان الذي انتصر فيه الطلقاء، وأقاموا دولتهم صار التسمي باسمك سبة وعارا.. بل صاروا يحاكمون من يفعل ذلك.. وكأنهم يريدون أن يخمدوا ذكرك.. بل يخمدوا كل شيء فيك حتى اسمك.. وينسون أنهم حين يفعلون ذلك.. إنما يحاربون الله.. و﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ الله بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى الله إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُون﴾ [التوبة: 32].. ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ الله بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُون﴾ [الصف:8]

المهام الجسيمة:

لكنك.. ومع كل ما ورد في شأنك.. كنت في منتهى السلام والمحبة مع كل من خالفك.. لأنك لم تكن تعيش لنفسك.. وإنما كنت تعيش لربك ولدينك وللمهمة العظيمة التي كلفت بها.

لقد وردت الأحاديث الكثيرة الصحيحة التي تعبر عن تلك المهمة، وأنها امتداد للنبوة، وتصحيح لمسارها، بعد أن يتلاعب المحرفون والمتأولون بها، مثلما تلاعب أصحاب موسى بعد غياب موسى عليه السلام عنهم.

ومن تلك الأحاديث ما حدث به أبو سعيد الخدري قال: كنا جلوسا ننتظر رسول الله ﷺ، فخرج علينا من بعض بيوت نسائه، قال: فقمنا معه، فانقطعت نعله، فتخلف عليها علي يخصفها، فمضى رسول الله ﷺ ومضينا معه، ثم قام ينتظره، وقمنا معه، فقال: (إن منكم من يقاتل على تأويل هذا القرآن،

كما قاتلت على تنزيله)، فاستشرفنا وفينا أبو بكر وعمر، فقال: لا، ولكنه خاصف النعل. يعني عليا، قال: فجئنا نبشره، فلم يرفع رأسه، كأنه قد كان سمعه من رسول الله ﷺ)[1]

كان في إمكان كل الذين يناصبونك العداء أن يكتفوا بهذا الحديث الذي هو نبوءة من نبوءات رسول الله ﷺ.. ونبوءاته ﷺ يستحيل أن تتخلف، فهو الصادق المصدوق.

لكنهم أبوها، وأعرضوا عنها.. وأعرضوا معها على كل تلك الأحاديث التي تضع العلامات الدالة على الفئة الصادقة المحافظة على نور النبوة، وهديها.

ومن بينها إشادته ﷺ بكل أولئك الذين وقفوا معك، وكانوا في صفك في كل ما حل بك.. فقد ورد في الحديث قوله ﷺ: (إن الله أوحى إلي أنه يحب أربعة من أصحابي، وأمرني بحبهم، فقيل له من هم يا رسول الله؟ قال: علي سيدهم، وسلمان، والمقداد، وأبو ذر)[2]

فمع أن رسول الله ﷺ يخبر في هذا الحديث على أن هذا الأمر وحي أوحي إليه من ربه إلا أن كل الحجب أسدلت عليه، وكتم لئلا يسمع به أحد.. فإن سمع.. راحوا إلى ما تعلموه من الطلقاء الدهاة الذين انقلبوا عليك، يصبغون على كل ألوان التأويل والتحريف والتبديل.

فهكذا فعلوا مع حبيبك وصاحبك والمخلص لك عمار بن ياسر.. الذي عاش حياته كلها مواليا لرسول الله ﷺ.. ومواليا لك.. إلى أن ختم حياته بالشهادة.

لقد كان ﷺ يشيد به كل حين.. لأنه يعلم أنه سيكون علامة لمن أصابت أعينهم الغشاوة.. فلم يعرفوك إلا بغيرك.

1() رواه النسائي في خصائص علي (ص 29) وابن حبان (2207) وأحمد (3 / 33 و82) وأبو يعلى (1 / 303 ـ 304) وأبو نعيم في الحلية (1 / 67) وابن عساكر (12 / 179 / 2 - 180 / 2)، والحاكم (3 /122 - 123)، وقال: صحيح على شرط الشيخين.

2() رواه أحمد في المسند (5/351)، والترمذي (3718)، وابن ماجه في مقدمة سننه (149)

ومن تلك الأحاديث قوله ﷺ: (ويح عمار تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار)[1]

ومنها قوله: (ابن سمية ما خير بين أمرين إلا اختار أرشدهما)[2] ، وقوله: (ابن سمية ما عرض عليه أمران قط إلا أخذ بالأرشد منهما)[3]

بل إنه ﷺ لم يكتف بالتلميح، فراح إلى التصريح، حتى يرفع كل الذرائع على من تخلف عنك.. فقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ نظر إلى علي وفاطمة والحسن والحسين، ثم قال: (أنا حرب لمن حاربكم، وسلم لمن سالمكم)[4]

وقال في حديث آخر غاضبا بعدما رأى بعضهم يؤذيك: (ما تريدون من علي؟ إن عليا مني، وأنا منه، وهو ولي كل مؤمن بعدي)[5]

وقال في حديث آخر: (رحم الله علياً، اللهم أدر الحق معه حيث دار)[6]

وقد شهد لك بذلك الكثير من الصحابة.. منهم ميمونة بنت

1() رواه أحمد (5/306، رقم 22663) ، ومسلم (4/2235، رقم 2915)، والبيهقى (8/189، رقم 16566) ، وأبو نعيم فى الحلية (7/198)، وغيرهم كثير.

2() ابن أبى شيبة (6/385، رقم 32246)

3() أحمد (1/389، رقم 3693) ، والحاكم (3/438، رقم 5664) وقال: صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبى.

4() فضائل الصحابة (1350)، ورواه الحاكم في المستدرك (3/149) وقال: (هذا حديث حسن من حديث أبي عبد الله أحمد بن حنبل)، وله شواهد عند الترمذي (5/699)، وابن ماجه(1/52)، والطبراني في الكبير (3/149)، والحاكم في المستدرك (3/149) وغيرهم.

5() رواه الطيالسي (829)، وابن أبي شيبة (12/79). وأحمد في المسند (4/437)، وفي الفضائل (1035)،والترمذي (5/269)، والنسائي في الخصائص (88)،وابن حبان (6929)،والحاكم (3/110)

6() مستدرك الحاكم، حديث رقم: (4686)، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

الحارث زوج رسول الله ﷺ، فعن جري بن كليب العامري قال : لما سار علي إلى صفين كرهت القتال، فأتيت المدينة ،فـدخلت على ميمونــة بنت الحــارث فقــالت : ممن أنت ؟ ، قلت : من أهل الكوفة ، قالت : منأيهم ؟ ، قلت : من بني عـامر ، قـالت : رحبـا على رحب ، وقربـا على قــرب ، تجيء مـا جاءبـك ؟ ، قال :قلت : سار علي إلى صفين وكـرهت القتـال ، فجئنـا إلىها هنا ، قالت : أكنت بايعته ؟ ، قـال : قلت : نعم،قـالت : (فـارجع إليه ، فكن معه ، فوالله ما ضل ، ولا ضل به) [1]

ومنهم أم سلمة، زوج رسول الله ﷺ .. فقد روى محمد بن إبـراهيم التميمي، قـال: (إن فلانـاً دخـل المدينـة حاجـاً ، فأتـاه الناس يسلمون عليه فدخل سـعد فسـلم فقـال : وهـذا لم يعنـا على حقنا على باطل غيرنا . قال : فسـكت . فقـال : مـا لـك لا تتكلم ؟ فقال ك هـاجت فتنـة وظلمـة، فقـال لبعـيري : إخ إخ ، فانحنت حتى انجلت . فقـال رجـل : إني قـرأت كتـاب اللـه من أوله إلى آخره فلم أر فيـه إخ إخ . فقـال : أمـا إذا قلت ، فـاني سمعت رسول اللـه ﷺ يقـول : (علي مـع الحـق ، أو الحـق مـع علي حيث كان)، قال : من سمع ذلـك ؟ . قـال : قالـه في بيت أم سلمه، قال : فأرسل إلى أم سـلمه فسـألها . فقـالت : قـد قاله رسول الله في بيتي، فقال الرجل لسـعد : مـا كنت عنـدي ألــوم منــك الآن . فقــال : ولم ؟ قــال : لــو ســمعت هــذا من الرسول ﷺ لم أزل خادماً لعلي حتى أموت)[2]

ومنهم أبو سعيد الخدرى، فقد قال: كنا عنـد بيت النـبي ﷺ في نفـر من المهـاجرين والأنصـار فقـال : ألا أخـبركم بخيـاركم قـالوا: بلى ، قـال : الموفـون المطيبـون، إن اللـه يحب الخفى التقى ، قـال : ومـر علي بن أبى طـالب فقـال : (الحـق مـع ذا الحق مع ذا)[3]

1() مسـتدرك الحـاكم، حـديث رقم: (4735)، وقـال: حـديث صـحيح على شـرط الشيخين، ولم يخرجاه.

2() مجمع الزوائد: ج 9 ، ص 134.

3() رواه أبو يعلي ورجاله ثقات، انظر: مجمع الزوائد: 7/234.

في هذه الأيام تمر على خاطري ـ سيدي ـ ذكريات كثيرة ممتلئة بالجمال عن الفترة التي مثلت فيها الخلافة النبوية خير تمثيل، على الرغم من كل تلك الحروب التي أعلنت عليك.. وبالرغم من كل ذلك الشغب الذي أثير ضدك..

لقد عملت فيها بكل ما تتطلبه الخلافة من قيم العدالة والرحمة والإنسانية.. فوقفت في صف الفقراء والمستضعفين لتخلصهم من جشع المستكبرين، ولتضمن لهم العيشة الرغدة السعيدة المتناسبة مع كرامة الإنسان.. وما كان لك أن تفعل ذلك لولا تلك التربية النبوية والقرآنية التي غرست في نفسك، ومنذ صباك الباكر، كل قيم الزهد والعفاف والعدالة والرحمة.

لقد شهد لك بهذا العدو والصديق.. بل كان هذا هو سبب تلك المؤامرت التي حيكت ضدك، والتي ختمت بشهادتك.. فلم يكن للمستكبرين أن يتركوا سند المستضعفين دون أن يعلنوا عليه الحرب.

لقد قال فضيل بن الجعد، يذكر السبب الحقيقي لتلك الحرب التي أعلنت عليك: (آكد الأسباب في تقاعد العرب عن أمير المؤمنين، أمر المال، فإنه لم يكن يفضل شريفا على مشروف ولا عربيا على عجمي، ولا يصانع الرؤساء وامراء القبائل كما يصنع الملوك، ولا يستميل أحدا إلى نفسه، وكان معاوية بخلافذلك فترك الناس عليا والتحقوا بمعاوية)[1]

وذكر ابن عبد البر بعض مشاهد عدلك، فقال: (كان علي إذا ورد عليه مال لم يبق منه شيئا إلا قسمه، ولا يترك في بيت المال منه إلا ما يعجز عن قسمته في يومه ذلك، ويقول:يا دنيا غري غيري، ولم يكن يستأثر من الفيء بشيء، ولا يخص به حميما ولا قريبا، ولا يخص بالولايات إلا أهل الديانات والأمانات، وإذا بلغه عن أحدهم خيانة كتب إليه: (قد جاءتكم موعظة من

---

[1] شرح نهج البلاغة: 1/488.

ربكم، فأوفوا الكيل والميزان بالقسط، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين، بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ.. إذا أتاك كتابي هذا فاحتفظ بما في يديك من عملنا حتى نبعث إليك من يتسلمه منك)ثم يرفع طرفه إلى السماء فيقول:(اللهم إنك تعلم أني لم آمرهم بظلم خلقك ولا بترك حقك)(1)

وقال سيد قطب بعد تتبعه لأسباب انهيار العدالة في المجتمع الإسلامي عبر التاريخ: (لقد جاء علي ليدخل نظرية الإسلام في الحكم في قلوب القادة والناس من جديد، وليطبقها عمليا.. جاء ليأكل خبز الشعير الذي طحنته زوجته بيديه، ويختم على جرابه ويقول:(لا أحب أن آكل ما لا أعلم)...و ربما باع سيفه ليشتري بثمنه غذاء ولباس، وأبى أن يسكن القصور الزاهية الفخمة)(2)

وقال شبلي شميل ـ وهو أبعد الناس عن الدين ــ عندما قرأ عن عدالتك: (إن علي بن أبي طالب إمام بني الانسان ومقتداهم، ولم ير الشرق والغرب نموذجا يطابقه أبدا لا فيالغابر ولا في الحاضر)(3)

وكل هذه الشهادات وغيرها لا يمكن أن تعبر عن حقيقتك، وحقيقة العدالة التي أقمتها ودعوت إليها، ورسمت معالمها.

البيعة.. لا الإكراه:

وكان أول غيث عدالتك ـ سيدي ـ أنك لم تتول على الناس إلا برضاهم، وبعد إلحاحهم في الطلب.. لقد ذكرت ذلك، فقلت: (فما راعني إلا والناس إلي كعرف الضبع، ينثالون علي من كل جانب، حتى لقد وطىء الحسنان، وشق عطفاي، مجتمعين حولي كربيضة الغنم.. فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة، ومرقت

---

(1) الاستيعاب: 3/48.

(2) العدالة الاجتماعية في الاسلام لسيد قطب.

(3) انظر الإمام علي صوت العدالة الانسانية، 1/70.

أخرى، وقسط آخرون، كـأنهم لم يسـمعوا اللـه سـبحانه يقـول: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيـدُونَ عُلُـوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَـادًا وَالْعَاقِبَـةُ لِلْمُتَّقِين﴾ [القصـص:83]..ـ بلى! واللـه لقـد سـمعوها ووعوهـا، ولكنهم حليت الـدنيا في أعينهم، وراقهم زبرجهـا! أمـا والـذي فلـق الحبـة، وبـرأ النسـمة، لـولا حضـور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ اللـه على العلمـاء ألا يقاروا على كظة ظالم، ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هـذه أزهـد عندي من عفطة عنز)[1]

هذه هي مقاصـدك في تـولي أمـر المسـلمين.. لا مـا ذكـر أعداؤك الذين نصبوا لك العداء.. والذين تصوروا لجهلهم بك أنك خرجت لأجل الدنيا، وأن زهدك لم يكتمل فيها[2].

وكيف تفعل ذلك.. وقد عرض عليك بعد وفاة رسـول اللـه ﷺ أن تتولى أمر المسلمين، وجاءك العباس وأبوسفيان، وطلبـا أن يبايعاك بالخلافة، بعد أن تمت البيعة لأبي بكر في السقيفة.. وكان يمكنـك أن تقبلهـا، وأن تجـد من يعينـك عليهـا، ويسـاندك فيها.. لكنك هربت من الفتنة..

لقد قلت مخاطبـا لمن جـاءك بـذلك: (أيهـا النـاس، شـقوا أمـواج الفتن بسـفن النجـاة، وعرجـوا عن طريـق الــمنافرة، وضـعوا تيجـان الــمفاخرة. أفلح من نهض بجنـاح، أو استسـلم فأراح، ماء آجن، ولقمـة يغص بهـا آكلهـا، ومجتـني الثمـرة لغـير وقت إيناعها كالزارع بغير أرضه، فإن أقـل يقولـوا: حـرص على الـملك، وإن أسكت يقولوا: جزع من الموت! هيهـات بعـد اللتيـا

---

[1] () نهج البلاغة، خطبه 3 ص 48.

[2] () ومنهم ابن تيمية الذي قال في كتابـه [الخلافـة والملـك: ص28]: (ويسـتفاد من هذا أن مافعله عثمان وعلي من الاجتهاد الذي سبقهما بما هو أفضل منـه أبـوبكر وعمـر، ودلت النصوص وموافقه جمهـور الأمـه على رجحانـه، وكـان سـببه افـتراق الأمـه لايـؤمر بالاقتداء بهما فيه، إذ ليس ذلك سنة الخلفاء، وذلك أن أبابكر وعمر ساسـا الأمـه بالرغبـه والرهبه وسلما من التأويل في الدماء والأموال، وعثمان غلب الرغبه وتأول في الأمـوال، وعلي غلب الرهبه وتأول في الدماء، وأبوبكر وعمر كمـل زهـدهما في المـال والرياسـه، وعثمان كمل زهده في الرياسه، وعلي كمل زهده في المال)

والتي، والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه، بل اندمجت على مكنون علم لو بحت بـه لاضـطربتم اضـطراب الأرشية في الطوي البعيدة!)(1)

لقد ذكر المؤرخون كيف توافد عليك الناس من كـل حـدب وصوب.. وكيف جاءك المهاجرون والأنصار.. كلهم يرغب في أن تتولى أمـر المسـلمين.. وهم يقولـون لـك: يـا أبـا الحسـن هلم نبايعك؟..

وكنت تقول لهم: لا حاجة لي في أمركم، فقالوا: ما نختـار غيرك.. فاختلفوا إليك مرارا، وأصرّوا عليك إصرارا، واضـطروك إلى القبول اضطرارا(2)..

فلم تجد إلا أن التكليف الشرعي أصبح ملزما لك بالقبول.. فقبلت.. فقد كنت تقول: (الواجب في حكم الله وحكم الإسـلام على المسلمين، بعدما يموت إمـامهم، أو يقتـل ضـالّا أو مهـديا، أن لا يعملــوا عملا، ولا يقــدموا يــدا ولا رجلا قبــل أن يختــاروا لأنفسهم إماما عفيفا، عالما، ورعا، عارفا بالقضاء والسّنّة يجبي فيئهم ويقيم حجمهم، وجمعهم، ويجـبي صـدقاتهم)(3)، ولم يكن أحد من الناس تتوفر فيه هذه الصفات غيرك.

لكنك كنت تدرك جيدا صعوبة حمل النـاس على المبـادئ.. وكنت تدرك أكثر من ذلك مؤامرات الشيطان التي سيحيكها لك عن طريق أولئك الذين لم يفهموا الإسلام، ولا عرفوا مقاصده..

لقد عبرت عن ذلك، فقلت ـ عندما جاؤوا إليـك بعـد مقتـل عثمان ـ: (دعوني والتمسوا غيري، فإنّا مستقبلون أمرا له وجوه وألوان، لا تقوم له القلـوب، ولا تثبت عليـه العقـول وإن الآفـاق قد أغامت، والحجّة قـد تنكّـرت. واعلمـوا أنّي إن أجبتكم، ركبت بكم مـا أعلم (أي طبقت فيكم الحـق بلا تميـز) ولم أصـغ إلى

1() نهج البلاغة: خطبة 5 ص 52.

2() السبيل إلى إنهاض المسلمين: ص 429.

3() كتاب سليم بن قيس: ص 182.

قول القائل، وعتب العاتب، وإن تركتموني، فأنا كأحدكم، ولعلّي أسمعكم وأطوعكم لمن ولّيتموه أمركم، وأنا لكم وزيرا خير لكم منّي أميرا)[1]

وقد حصل كل ما ذكرته لأولئك الذين رغبوا في بيعتك.. ولذلك ذكرتهم قائلا: (والله ما كانت لي في الخلافة رغبة، ولا في الولاية إربة، ولكنكم دعوتموني إليها، وحملتموني عليها، فلما أفضت إليّ نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا، وأمرنا بالحكم به فاتّبعته، وما استنّ النبي ﷺ فاقتديته)[2]

وقد صدقك الكل في قولك هذا، لأنهم رأوا بأعينهم كيف أنك لم تتعرض لكل أولئك الذين توقفوا عن بيعتك.. فلم تتعرض لا لعبد الله بن عمر، ولا لغيره ممن رفضوا بيعتك [3]..

بل إنك سيدي رفضت تلك البيعات الخاصة التي بويعت بها.. بل طلبت أن تبايع علانية وفي المسجد.. ليكون الخيار للناس فيها، يقبلون أو يرفضون..

لقد ذكر ابنك محمد بن الحنفية ذلك، قال: كنت مع أبي حين قتل عثمان، فقام فدخل منزله، وأغلق بابه، فأتاه أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: إن هذا الرجل قد قتل، ولا بد للناس من إمام، ولا نجد (أو لا نعلم) اليوم أحداً أحق بهذا الأمر منك، لا أقدم سابقةً، ولا أقرب من رسول الله ﷺ، فقال: لا تفعلوا، فإني أكون وزيراً خير من أن أكون أميراً.. فقالوا: والله، لا نعلم أحق بها منك.. لا والله، ما نحن بفاعلين حتى نبايعك.. قال: ففي المسجد، فإن بيعتي لا تكون خفياً، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين.. فمن شاء أن يبايعني بايعني.. قال: فخرج إلى المسجد فبايعه الناس[4].

1() الكامل: ج 3، ص 193.

2() نهج البلاغة: الخطب، ص 205.

3() قال أبو عمرو: (واجتمع على بيعته المهاجرون والأنصار، وتخلف عن بيعته نفر. فلم يكرههم) (الإستيعاب ج3 ص1121 وذخائر العقبى ص 111).

لقد كنت ـ سيدي ـ تدرك المخاطر التي تنجر على بيعتك في المسجد.. وكنت تعرف المشاغبين وأصحاب القلوب المريضة.. لكنك مع ذلك أصررت أن تكون بيعتك علانية وفي المسجد ومن غير إكراه أحد.

لقد قال عبد الله بن عباس يذكر موقفه حينها: (فلقد كرهت أن يأتي المسجد مخافة أن يشغب عليه؛ وأبى هو إلا المسجد، فلما دخل المهاجرون والأنصار فبايعوه، ثم بايعه الناس)(1)

وقال أبو بشير العابدي: كنت بالمدينة حين قتل عثمان، واجتمع المهاجرون والأنصار، فيهم طلحة والزبير، فأتوا علياً فقالوا: يا أبا الحسن؛ هلم نبايعك.. فقال: لا حاجة لي في أمركم، أنا معكم فمن اخترتم فقد رضيت به، فاختاروا.. فقالوا: والله ما نختار غيرك؛ واختلفوا إليه بعد قتل عثمان مراراً، ثم أتوه في آخر ذلك، فقالوا له: إنه لا يصلح الناس إلا بإمرة، وقد طال الأمر.. فقال لهم: إنكم قد اختلفتم إلي وأتيتم، وإني قائل لكم قولاً إن قبلتموه قبلت أمركم، وإلّا لا حاجة لي فيه.. قالوا: ما قلت من شيء قبلناه إن شاء الله. فجاء فصعد المنبر، فاجتمع الناس إليه، فقال: إني قد كنت كارهاً لأمركم، فأبيتم إلا أن أكون عليكم؛ ألا وليس لي أمر دونكم، إلا أن مفاتيح مالكم معي، ألا وإنه ليس لي أن آخذ درهماً دونكم. رضيتم؟! قالوا: نعم.. قال: اللهم اشهد عليهم. ثم بايعوه على ذلك(2).

وقد ذكر المؤرخون نص البيعة، وما تحمله من معان سامية، فقد ذكروا أن الذي كان يأخذ البيعة عمار بن ياسر، وأبو الهيثم بن التيهان، وهما يقولان: (نبايعكم على طاعة الله وسنة رسوله ﷺ، وإن لم نف لكم، فلا طاعة لنا عليكم، ولا بيعة في

4() تاريخ الأمم والملوك ج4 ص427، الكامل في التاريخ: ج3 ص190.

1() جواهر المطالب لابن الدمشقي ج1 ص293 وذخائر العقبى ص111.

2() تاريخ الأمم والملوك ج4 ص427 و428، والكامل في التاريخ ج3 ص190.

أعناقكم. والقرآن إمامنا وإمامكم)[1]

المبادئ.. لا المصالح:

هكذا كانت بيعتك ـ سـيدي ــ واضـحة نقيـة شـرعية.. ليس فيها إكراه ولا خداع ولا تكليف للرعية بما لا تطيق.. وهكذا كـان الأمر بعد مبايعة الناس لك..

فقد كان يمكنك أن تمارس ما يمارسه غيرك من استعمال الوسائل المختلفة التي تهيئ لك أمـرك، وتيسـر عليـك المضـي في حكمك..

كان يمكنـك في ذلـك الحين الصـعب أن تشـتري أصـحاب القلوب المريضة، والنيـات الفاسـدة، والانتهـازيين ليتحولـوا إلى صفك.. ولتستعملهم بعد ذلك كما تشاء.. لكنك لم تفكر أبدا في مصالحك الآنية.. وإنما كنت تفكر فقط في مبادئك وقيمك الـتي رباك عليها رسول الله ﷺ..

لقـد ذكـرت ذلـك، فقلت: (أيّهـا النّـاس: إن الوفـاء تـوأم الصـدق، ولا أعلم جنّـة أوقى منـه، ومـا يغـدر من علم كيـف المرجع، ولقد أصبحنا في زمان قد اتّخذ أكثر أهله الغـدر كيسـا، ونسبهم أهل الجهل إلى حسن الحيلة.. ما لهم؟! قـاتلهم اللّـه!. قد يرى الحوّل القلّب (البصير بتحـولات الأمـور وتقلباتهـا) وجـه الحيلة ودونها مـانع من أمر اللـه ونهيـه، فيـدعها رأي العين بعـد القدرة عليها، وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدّين)[2]

هذه هي سيرتك سيدي التي واجهت بها خصومك الكثيرين الذين عبر معاوية عنهم، فقال: (و الله لأغلبنّ بدنياي دين علي)

لكنك كنت تقول لمن يتهمك بقلة الحيلة والدهاء: (واللّه ما معاويـة بـأدهى منّي ولكنـه يغـدر ويفجـر، ولـو لا كراهيـة الغـدر لكنت أدهى الناس، ولكن كلّ غدرة فجـرة، وكـل فجـرة كفـرة،

---

[1] () فضائل أمير المؤمنين لابن عقدة ص91.

[2] () نهج البلاغة: الخطب 41- ورسائل الجاحظ: ص 125.

ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة! (والله ما استغفل بالمكيدة، ولا أستغمز بالشديدة)[1]

وكنت تقول: (و الله إني لأعلم بدائكم ودوائكم ولكن هيهات أن أصلحكم بخراب نفسي)

وكنت تقول: (أتأمروني أن أطلب النصر بالجور، واللّه لا أطور به ما سمر سمير وما أمّ نجم في السماء نجما)[2]

وكنت تقول: (اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنرد المعالم من دينك، ونظهر الأصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك، وتقام المعطلة من حدودك)[3]

لقد توفرت لك ـ سيدي ـ فرص كثيرة لتقضي على ألد أعدائك، لكنك لم تفعل.. لا حبا لهم، ولا حرصا عليهم، وإنما حرصا على أخلاقك ومبادئك وقيمك.. لقد ذكر المؤرخون أنه بعد أن كثر القتل والقتال في صفّين علوت فوق التل، وناديت بأعلى صوتك: (يا معاوية.. علام يقتتل الناس؟ ابرز إليّ ودع الناس فيكون الأمر لمن غلب).. وكررت ذلك مرارا، فهاب معاوية منك.. وكيف لا يهاب، وهو يعلم ما فعل سيفك بأبطال العرب.. حينها خرج عمرو إليك..ولم يطل الأمر بسيفك حتى طعنه فصرعه، وحينها أدرك عمرو أنه لن يستطيع مواجهتك.. فراح يستغل تقواك وعفتك وحياءك.. فكشف عن عورته.. حينها لم تملك إلا أن تصرف وجهك عنه.. وتتركه يعود من حيث أتى.

أذكر جيدا أن بعضهم عاتبك حينها، وقال: (أفلت الرجل يا أمير المؤمنين)، فقلت: (تلقّاني بعورته، فصرفت وجهي عنه)[4]

---

[1] نهج البلاغة: الكلام 200 ص 319.

[2] نهج البلاغة: الخطب 126.

[3] نهج البلاغة: (ك 131)

ولم تكن تكتفي بذلك لنفسك، بـل كنت تكتب إلى عمالـك قائلا: (فلا تغدرنّ بذمّتك، ولا تخيّسن بعهـدك، ولا تختّلن عـدوّك، فإنه لا يجترىء على الله إلّا جاهل شقي، وقـد جعل اللـه عهـده وذمّتـه أمنـا أفضـاه بين العبـاد برحمتـه، وحريمـا يسـكنون إلى منعته، ويستفيضون إلى جواره فلا ادغال، ولا مدالسة، ولا خداع فيـه، ولا يـدعونّك ضـيق أمـر لزمـك فيـه عهد اللـه إلى طلب انفساخه بغير الحق، فإن صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجــه، وفضل عاقبته خير من غدر تخاف تبعته، وإن تحيط بك من اللـه فيه طلبه)[1]

وهكذا كـانت كتبـك إلى عمالـك، أو من وليتـه أي أمـر من أمـور المسـلمين، فقـد كـانت كلهـا أمـر بـالمعروف ونهي عن المنكر، ونصيحة للمؤمنين.. فقد كتبت لبعضهم تقول: (أمّا بعـد، فإنّ المرء ليفـرح بالشّـيء الّـذي لم يكن ليفوتـه، ويحـزن على الشّيء الّذي لم يكن ليصيبه، فلا يكن أفضل ما نلت في نفسـك من دنياك: بلوغ لذّة، أو شفاء غيظ، ولكن إطفاء باطل، أو إحياء حقّ. وليكن سرورك بما قدّمت، وأسفك على ما خلّفت، وهمّـك فيما بعد الموت)[2]

وكتبت لآخر تقـول: (و تمسّـك بحبـل القـرآن واستنصـحه، وأحلّ حلاله وحرّم حرامه، وصدّق بما سـلف من الحـقّ، واعتـبر بما مضـى من الـدّنيا لمـا بقي منهـا، فـإنّ بعضـها يشـبه بعضـا، وآخرها لاحق بأوّلها، وكلّهـا حائـل مفـارق. وعظّم اسـم اللّـه أن تذكره إلّا على حقّ، وأكثر ذكر الموت، وما بعد الموت، ولا تتمنّ الموت إلّا بشرط وثيق، واحذر كلّ عمل يرضاه صـاحبه لنفسـه، ويكره لعامّة المسلمين، واحذر كلّ عمـل يعمـل بـه في السّـرّ، ويستحى منه في العلانية، واحذر كلّ عمل إذا سئل عنه صـاحبه

4() لفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ص70 ، وعلي وعصره: ج 4، ص 258، وقد روي أن عمرا حدث معاوية بما وقع له مع الإمام، فقـال لـه معاوية: (احمد اللّه، وعورتك)، ثم قال شعرا يزري بعمرو، فقال عمرو: (ما أشدّ تعظيمك عليا في أمري هذا. وهـل هـو إلّا رجـل لقيـه ابن عمـه فصـرعه! فترى أن السماء قاطرة لذلك دما)؟. قال معاوية: (لا.. ولكنّها معقبة لك خزيا)

1() نهج البلاغة: الخطب 53.

2() نهج البلاغة: الكتاب رقم(66)

أنكره، أو اعتذر منه.. ولا تجعل عرضك غرضا لنبـال القـول، ولا تحدّث النّاس بكلّ ما سمعت به، فكفى بذلك كذبا، ولا تردّ على النّـاس كـلّ مـا حـدّثوك بـه، فكفى بـذلك جهلا.. واكظم الغيـظ، وتجاوز عند المقدرة، واحلم عنـد الغضـب، واصـفح مـع الدّولـة، تكن لـك العاقبـة، واستصـلح كـلّ نعمـة أنعمهـا اللّـه عليـك، ولا تضيّعنّ نعمة من نعم اللّه عندك، ولير عليك أثر ما أنعم اللّه بــه عليـك. واعلم أنّ أفضـل المؤمـنين أفضـلهم تقدمـة من نفسـه وأهله وماله، فإنّك ما تقدّم من خير يبق لك ذخـره، ومـا تـؤخّره يكن لغيرك خيره، واحذر صحابة من يفيـل رأيـه، وينكـر عملـه، فإنّ الصّاحب معتبر بصاحبه) [1]

وهكذا كانت رسـائلك ــ وفي ذلـك الجـو الممتلئ بـالفتن ـ دعوة للأخلاق، لأنك تربية من بعث ليتمم مكـارم الأخلاق.. فقـد كنت تشعر أن اللـه مـا ابتلاك بمـا ابتلاك بـه من أنـواع البلاء إلا ليقيم حجته على خلقك في أخلاقهم وتقواهم وتمسـكهم بـالقيم القرآنية في أحلك الأوقات وأشدها.

ولــذلك كــان في إمكانــك ســيدي ــ بعــد أن تــوليت أمــر المسلمين ـ أن توافـق على ولايـة معاويـة، وتثبتـه على الشـام، لتضمن ولاءه وولاء من تبعه لـك.. لكنـك لم تفعـل.. ولم تسـمع لمن نصحك بذلك.. لأنك تعلم أن الطلقاء أبعـد النـاس عن فهم الإسلام.. ومن كان كذلك لا يحق له أن يتولى أمر المسلمين.

لقد جاءك في تلك الأيـام العصـيبة المغـيرة بن شـعبة بعـد مبايعته، فقال لك: (إن لك حـق الطاعـة والنصـيحة، وإن الـرأي اليوم تحرز به ما في غد، وإن الضياع اليوم تضيع به ما في غـد، أقرر معاوية على عمله، وأقرر العمـال على أعمـالهم، حـتى إذا أتتـك طـاعتهم وبيعـة الجنـود اسـتبدلت أو تـركت)، لكنـك أبيت بشدة، وقلت: (لا أداهن في ديني، ولا أعطي الدنيئة في أمري) [2]

---

[1] () نهج البلاغة: الكتاب رقم(69)

[2] () تاريخ الأمم والملوك ج4 ص440 و 441 والفصول المهمة لابن الصباغ ج1 ص 358 والكامل في التاريخ ج3 ص197 و 198.

حينها عرض عليك المغيرة عرضا آخر، فقال: (فإن كنت أبيت عليّ فانزع من شئت واترك معاوية، فإنّ في معاوية جرأة، وهو في أهل الشام يستمع له ولك حجّة في إثباته.. إذ كان عمر قد ولّاه الشام)

لكنك قلت بكل قوة: (لا واللّه.. لا أستعمل معاوية يومين)

وفي موضع آخر، قال لك: إن أردت أن يستقيم لك الأمر، فاستعمل طلحة بن عبيد الله على الكوفة، والزبير بن العوام على البصرة، وابعث معاوية بعهده على الشام، فقلت له: أتضمن لي عمري يا مغيرة فيما بين توليته إلى خلعه؟! قال: لا.. فقلت: لا يسألني الله عز وجل عن توليته على رجلين من المسلمين ليلة سوداء أبداً ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُداً﴾ [الكهف: 51] ، لكن أبعث إليه، وأدعوه إلى ما في يدي من الحق، فإن أجاب فرجل من المسلمين، له ما لهم وعليه ما عليهم، وإن أبى حاكمته إلى الله[1].

لقد كنت تعلم ما سيفعله بك.. وكنت موقنا تماما من غدره.. لكنك مع ذلك لم تداهنه.. لسبب بسيط عبرت عنه بقولك: (الوفاء لأهل الغدر غدر عند اللّه، والغدر بأهل الغدر وفاء عند اللّه)[2]

وعبرت عنه بقولك ـ بعد بيعتك ـ: (ذمّتي بما أقول رهينة، وأنا به زعيم، إنّ من صرّحت له العبر عمّا بين يديه من المثلات، حجزته التّقوى عن تقحّم الشّبهات، ألا وإنّ بليّتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيّه ﷺ، والّذي بعثه بالحقّ لتبلبلنّ بلبلة، ولتغربلنّ غربلة، ولتساطنّ سوط القدر، حتّى يعود أسفلكم أعلاكم، وأعلاكم أسفلكم، وليسبقنّ سابقون كانوا قصّروا، وليقصّرنّ سبّاقون كانوا سبقوا. واللّه، ما كتمت وشمة، ولا كذبت كذبة، ولقد نبّئت بهذا المقام وهذا اليوم.. ألا وإنّ الخطايا خيل شمس، حمل عليها أهلها، وخلعت لجمها،

[1] الفصول المهمة لابن الصباغ ج1 ص358 والكامل في التاريخ ج3 ص198 و تاريخ الأمم والملوك ج3 ص460.

[2] روض الأخيار: ص 139.

فتقحّمت بهم في النّار.. ألا وإنّ التّقوى مطايا ذلل، حمل عليها أهلها، وأعطوا أزمّتها، فأوردتهم الجنّة، حقّ وباطل ولكلّ أهل، فلئن أمر الباطل لقديما فعل، ولئن قلّ الحقّ فلربّما ولعلّ، ولقلّما أدبر شيء فأقبل)(1)

هذه هي التقوى والورع الذي رباك عليه رسول الله ﷺ.. والذي صحبك طول حياتك.. فلم تختر إلا الصراط المستقيم الذي لا يزيغ لا ذات اليمين، ولا ذات الشمال، كما عبرت عن ذلك بلسانك البليغ بقولك: (اليمين والشّمال مضلّة، والطّريق الوسطى هي الجادّة، عليها باقي الكتاب، وآثار النّبوّة، ومنها منفذ السّنّة، وإليها مصير العاقبة، هلك من ادّعى، وخاب من افترى، من أبدى صفحته للحقّ هلك، وكفى بالمرء جهلا أن لا يعرف قدره.. لا يهلك على التّقوى سنخ أصل، ولا يظمأ عليها زرع قوم، فاستتروا في بيوتكم، وأصلحوا ذات بينكم، والتّوبة من ورائكم، ولا يحمد حامد إلّا ربّه، ولا يلم لائم إلّا نفسه)(2)

بل إنك ـ سيدي ـ لم تكتف بهذا السلوك لنفسك، وإنما رحت تبينه كتشريع يقوم عليه بنيان السياسة الشرعية في الإسلام، وكأنك كنت تعلم من سيخلفك على هذه الأمة، وكيف يزيح كل تلك المعاني السامية ليحل بدلها الأهواء والمصالح، ويلبسها لباس الدين والشريعة.

لقد عبرت عن ذلك بقولك في وصف من يتصدى للحكم بين الأمّة وليس لذلك بأهل: (إنّ أبغض الخلائق إلى الله رجلان: رجل وكله الله إلى نفسه، فهو جائر عن قصد السّبيل، مشغوف بكلام بدعة، ودعاء ضلالة، فهو فتنة لمن افتتن به، ضالّ عن هدي من كان قبله، مضلّ لمن اقتدى به في حياته، وبعد وفاته حمّال خطايا غيره، رهن بخطيئته.. ورجل قمش جهلا، موضع في جهّال الأمّة، عاد في أغباش الفتنة، عم بما في عقد الهدنة، قد سمّاه أشباه النّاس عالما وليس به، بكّر فاستكثر من جمع، ما قلّ منه خير ممّا كثر، حتّى إذا ارتوى من

1() نهج البلاغة: الخطبة رقم(16)، والإرشاد: ج 1 ص 239- 240..

2() نهج البلاغة: الكلام 16 ص 58.

ماء آجن، واكتثر من غير طائل، جلس بين النّاس قاضيا، ضـامنا لتخليص ما التبس على غيره([1])

ثم وصفت هذا الجاهل المحتال المخادع، الذي لبس لبـاس الدين ليشوهه، وليقضي مصالحه من خلاله، فقلت: (فإن نـزلت به إحدى المبهمات هيّأ لها حشوا رثّا من رأيه ثمّ قطـع بـه، فهـو من لبس الشّبهات في مثل نسج العنكبوت، لا يـدري أصـاب أم أخطأ؟ فإن أصاب خاف أن يكون قد أخطـأ، وإن أخطـأ رجـا أن يكون قد أصاب، جاهل خبّاط جهالات، عاش ركّاب عشوات، لم يعضّ على العلم بضـرس قـاطع، يـذرو الرّوايـات ذرو الـرّيح الهشيم. لا مليّ واللّه بإصدار ما ورد عليه، ولا أهل لما قرّظ به، لا يحسب العلم في شيء ممّا أنكـره، ولا يـرى أنّ من وراء مـا بلغ مذهبا لغيره، وإن أظلم عليه أمر اكتتم به لما يعلم من جهل نفسه، تصرخ من جور قضائه الدّماء، وتعجّ منه المواريث) ([2])

وهكذا قلت، وأنت تحدد أسباب الفتن وجذورها: (إنمـا بـدء وقوع الفتن أهواء تتبع، وأحكام تبتدع، يخـالف فيهـا كتـاب اللـه، ويتولى عليها رجال رجالا، على غير دين الله)([3])

لقد درس الصادقون من المحققين فعلك وقولـك، وراحـوا يقارنونه بسلوك من حاربك، وحارب مبادئك.. فلم يملكوا إلا أن يشيدوا بك، فـأنت الممثـل الحقيقي للمسـلم الممتلئ بالصـدق والعدالة..

ومن أولئك سيد قطب أثنـاء ذكـره لأسـباب انتصـار البغـاة المحرفين للعدالة على مشروعك، فقد قال: (إن معاوية وزميله عمراً لم يغلبا علياً لأنهما أعرف منه بدخائل النفوس، وأخبر منه بالتصرف النافع في الظرف المناسب. ولكن لأنهما طليقان في اسـتخدام كـل سـلاح، وهـو مقيـد بأخلاقـه في اختيـار وسـائل الصراع. وحين يركن معاوية وزميلـه عمـرو إلى الكـذب والغش

[1] () نهج البلاغة: الخطبة رقم(17)

[2] () نهج البلاغة: الخطبة رقم(17)

[3] () نهج البلاغة: (ك 50)

والخديعة والنفاق والرشوة وشراء الذمم لا يملك على أن يتدلى إلى هذا الدرك الأسفل.فلا عجب ينجحان ويفشل، وإنه لفشل أشرف من كل نجاح. على أن غلبة معاوية على علي، كانت لأسباب أكبر من الرجلين: كانت غلبة جيل على جيل، وعصر على عصر، واتجاه على اتجاه. كان مد الروح الإسلامي العالي قد أخذ ينحسر. وارتد الكثيرون من العرب إلى المنحدر الذي رفعهم منه الإسلام، بينما بقي علي في القمة لا يتبع هذا الانحسار، ولا يرضى بأن يجرفه التيار. من هنا كانت هزيمته، وهي هزيمة أشرف من كل انتصار)[1]

ومنهم الدكتور طه حسين الذي قال مقارنا بينك وبين خصومك: (كان الفرق بين علي ومعاوية عظيماً في السيرة والسياسة، فقد كان علي مؤمناً بالخلافة ويرى أن من الحق عليه أن يقيم العدل بأوسع معانيه بين الناس، أما معاوية فإنه لا يجد في ذلك بأساً ولا جناحاً، فكان الطامعون يجدون عنده ما يريدون، وكان الزاهدون يجدون عند علي ما يحبون)[2]

وشهد لك بذلك عبد الرحمن الشرقاوي، فقال ـ واصفا لك ـ (الإمام عليّ رجل دولة بصير بسياسة أمور الرعية، ولكنه يريد أن يقيم سياسته على دعائم من مكارم الأخلاق، ولا يضيره ما يعاني وهو يشقّ الطريق الوعر إلى الحقيقة، ليقيم العدل، ويحقق للناس المساواة، ويدفع الظلم، ولو أنه عدل عن نهجه السوي لحظة، لتهدّمت قيم نبيلة، وانهارت مثل عليا.. الإمام عليّ يرى أن صلاح الغاية لا يتم إلّا بصلاح الوسيلة، وغايته مصلحة الأمة، وصلاحها، ولأن يخسر أمنه، وراحته، خير من أن يهدر قيمه.. ولأن يهدي به الله رجلا واحدا، خير له من الدنيا وما فيها.. الإمام علي استقى من منبع النبوّة، وتربّى بخلق النبوة، فكان رباني هذه الأمة)[3]

---

[1] () كتب وشخصيات، ص 242 – 243.

[2] () علي وبنوه: ص59.

[3] () علي إمام المتّقين: ج 2، ص 330.

وهكذا قال قبلهما الجاحظ عندما قارن بينك وبين البغاة والظلمة: (كان عليٌّ لايستعمل في حربه إلا ماعدّله ووافق فيه الكتاب والسنة، وكان معاوية يستعمل خلاف الكتاب والسنة، ويستعمل جميع المكايد، وجميع الخدع، حلالها وحرامها، ويسير في الحرب سيرة ملك الهند إذا لاقى كسرى، وخاقان إذا لاقى زنبيل، وفنغور إذا لاقى المهراج، وعليّ يقول: لاتبدؤوهم بقتل حتى يبدؤوكم، ولاتتبعوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح، ولا تفتحوا باباً مغلقاً)(1)

بل هكذا شهد لك غير المسلمين ممن بهرتهم عدالتك وزهدك وعفافك وكل شيء فيك، فقد قال الكاتب والأديب المسيحي جبران خليل جبران، يذكرك: (قتل علي في محراب عبادته لشدة عدله)(2)

الشورى.. لا الاستبداد:

وهكذا ـ سيدي ـ سرت في حكمك لرعيتك بعدما شاء الله أن تتولى أمر المسلمين برضاهم ورغبتهم.. فأنت لم تطبق فيهم إلا سنة حبيبك ﷺ الذي رباك على يديه.. والذي قال الله له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ الله لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى الله إِنَّ الله يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِين﴾ [آل عمران:159]

لقد كانت هذه الآية الكريمة.. وكان تنفيذ رسول الله ﷺ لها هو دستورك الذي سرت عليه في حياتك جميعا، وفي الفترة التي تنعمت فيها الأمة بحكمك لها.

لقد قلت معبرا عن سنتك في ذلك: (ألا وإن لكم عندي ألّا أحتجز دونكم سرا إلّا في حرب، ولا أطوي دونكم أمرا إلّا في حكم، ولا أؤخّر لكم حقا عن محله، ولا أقف به دون مقطعه)(3)

1() رسائل الجاحظ ص 365 (الرسائل السياسية)

2() علي: صوت العدالة الإنسانية، جورج جرداق.

لا أزال أذكر جيدا تلك الفترة العصيبة التي قام فيها البغـاة بإعلان بغيهم وتمردهم.. وحينها لم تصدر أمـرا ملكيـا، ولا قـرارا رئاسيا، تفرضـه على رعيتـك فرضـا، وتعـاقب كـل من يخالفـه، مثلما فعل أعداؤك، ولا زالوا يفعلون.. وإنما رحت تخبرهم عمـا حصل، وتستشيرهم في الرأي المناسب.. وإن كان الله قد آتاك من العلم والحكمة والبصيرة ما يغنيك عن ذلك كله.

لقد ذكر الرواة الثقاة أنك جمعت في ذلك الحين من معك من المهاجرين والأنصار، ثم حمدت الله وأثـنيت عليـه، ثم قلت: (أمـا بعـد فـإنكم ميـامين الـرأي، مقاويـل بـالحق، أهـل الحلم، مباركو الفعـل والأمـر، وقـد أردنـا المسـير إلى عـدوّنا وعـدوّكم فأشيروا علينا برأيكم)

حينها قام عمار بن ياسر، فحمد الله وأثنى عليـه، ثم قـال: (يـا أمـير المؤمـنين إن اسـتطعت ألّا تقيم يومـا واحـدا فافعـل، اشخص بنا قبل استعار نار الفجرة واجتماع رأيهم على العـدوان والفرقة، وادعهم إلى رشدهم، فإن قبلـوا سـعدوا، فـإن أبـوا إلّا حربنا فو الله إن سفك دماءهم، والجدّ في جهـادهم لقربـة عنـد اللّه)

وخاطبته حينها بقولك: (لله درّك يا عمّـار. سـمعت رسـول الله ﷺ يقول: (إن عمارا ملئ إيمانا إلى مشاشه)، وكـان عمـار إذا استأذن على النبي ﷺ يقول: (ائذنوا له)، فإذا دخـل اسـتقبله ﷺ بقوله: (مرحبا بالطيب المطيب)

بعــدها قــام ســعد بن قيس بن عبــادة، فقــال: (يــا أمــير المؤمنين.. عجّل بنا إلى عدوّنا، فو اللـه لجهـادهم أحب إليّ من جهاد الترك والـروم لإدهـانهم في دين اللـه، واسـتذلالهم أوليـاء الله من أصـحاب محمـد ﷺ من المهـاجرين والأنصـار والتـابعين بإحسان.. إذا غضبوا على رجل حبسوه أو ضـربوه أو حرمـوه أو سيّروه (نفـوه)، وفيئنـا لهم في أنفسـهم حلال، ونحن لهم فيمـا يزعمون قطين (أي رقيق وعبيد)

---

[3] () نهج البلاغة: الكتب، 50.

ثم قام سهل بن حنيف، فقال: (يا أمير المؤمنين. نحن سلم لمن سالمت وحرب لمن حارب، ورأينا رأيك، ونحن كفّ يمينك، وقد رأينا أن تقوم بهذا الأمر في أهل الكوفة، فتأمرهم بالشخوص، وتخبرهم بما صنع الله لهم في ذلك من الفضل، فإنهم هم أهل البلد وهم الناس، فإن استقاموا لك استقام لك الذي تريد وتطلب، وأما نحن صحابة رسول الله ﷺ، فليس عليك منّا خلاف، متى دعوتنا أجبناك، ومتى أمرتنا أطعناك)[1]

وهكذا أحييت نفس ما فعله رسول الله ﷺ يوم بدر، حين استشار أصحابه في المسير إلى المشركين.. وحينها كانت نفس الإجابات، ونفس الصدق، ونفس العزيمة.

ولم تكتف سيدي بما أشير عليك لتتخذه ذريعة لسن القوانين التي تفرضها على رعيتك.. وإنما رحت تتيح لهم كل الحرية في المشاركة وعدم المشاركة.. فقد رأيت قوما لا يرغبون في الحرب، فقلت لهم: (خذوا عطاءكم، واخرجوا إلى الدّيلم)[2].. أي إلى حدود البلاد لحماية ثغور المسلمين.

وأتتك جماعة، وهم يومئذ أربعمائة رجل ــ وكنت بحاجة شديدة إليهم ـ فقالوا: (إنا شككنا في هذا القتال على معرفتنا بفضلك، ولا غنى بنا ولا بك ولا المسلمين عمن يقاتل العدو، فدعنا لبعض الثغور فنكون به ثم نقاتل عن أهله)، فلم تملك إلا أن تتركهم، وما أرادوا، ثم وجهتهم إلى ثغر الري[3].

هذه مجرد أمثلة بسيطة عن مشاركتك لرعيتك في الحكم، ولها أخوات كثيرات لا يمكن إحصاؤها.. حتى أنهم ــ وبسبب استشارتك لهم في كل محل ــ بالغوا في ذلك حتى قلت ـ مخاطبا لهم ـ: (أفسدتم عليّ رأيي حتى قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب.. للّه أبوّهم! وهل أحد منهم أشدّ لها مراسا، وأقدم فيها مقاما منّي؟ لقد

[1] () وقعة صفين (ص: 92)

[2] () احمد بن يحيى بن جابر البلاذري، فتوح البلدان، ج2، ص395.

[3] () وقعة صفين، ص115.

نهضت فيها وما بلغت العشرين، وها أنا ذا قد ذرفت على الستّين. ولكن لا رأي لمن لا يطاع)(1)

وقلت مخاطبا لهم غاضبا منهم: (أما والّذي نفسي بيده، ليظهرنّ هؤلاء القوم عليكم، ليس لأنّهم أولى بالحقّ منكم، ولكن لإسراعهم إلى باطل صاحبهم، وإبطائكم عن حقّي.. ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها، وأصبحت أخاف ظلم رعيّتي، استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا، وأسمعتكم فلم تسمعوا، ودعوتكم سرّا وجهرا فلم تستجيبوا، ونصحت لكم فلم تقبلوا. أشهود كغيّاب، وعبيد كأرباب؟! أتلو عليكم الحكم فتنفرون منها، وأعظكم بالموعظة البالغة فتتفرّقون عنها، وأحثّكم على جهاد أهل البغي فما آتي على آخر قولي حتّى أراكم متفرّقين أيادي سبا، ترجعون إلى مجالسكم، وتتخادعون عن مواعظكم، أقوّمكم غدوة، وترجعون إليّ عشيّة، كظهر الحنيّة، عجز المقوّم وأعضل المقوّم) (2)

وكنت تقارن بأصحاب معاوية الذين يطيعونه في معصية الله، وتقول: (أيّها القوم الشّاهدة أبدانهم، الغائبة عنهم عقولهم، المختلفة أهواؤهم، المبتلى بهم أمراؤهم، صاحبكم يطيع اللّه وأنتم تعصونه، وصاحب أهل الشّام يعصي اللّه وهم يطيعونه؟! لوددت واللّه أنّ معاوية صارفني بكم صرف الدّينار بالدّرهم، فأخذ منّي عشرة منكم وأعطاني رجلا منهم)(3)

لقد كنت تقول لهم هذا وغيره.. ولا أزال أذكر ذلك الموقف الذي أحترق كلما ذكرته، وينشق قلبي حزنا كلما خطر على بالي.. موقفك من (التحكيم) في صفّين، حين لاحت علامات النصر، ولم يبق بينك وبين هزيمة البغاة إلا القليل.. حينها دبر الشيطان للفئة الباغية حيلة التحكيم.. ورفع أصحاب معاوية المصاحف على الرماح داعين إلى كتاب الله.

1() نهج البلاغة: خطبة 27.

2() نهج البلاغة: الخطبة رقم(97)، والإمامة والسياسة: ج 1 ص 171- 172.

3() نهج البلاغة: الخطبة رقم(97)، والإمامة والسياسة: ج 1 ص 171- 172.

في ذلك الحين رأيت أنت والثلة الصادقة معك أن تستمر الحرب، خاصة وأن الأشتر كان على مقربة من موقع معاوية.. لكن بعض من كان معك ممن لم يعرفوا منزلتك، خدعتهم تلك الحيلة.. فحاولت إقناعهم بكل ما أوتيت من حجج.. لكن الشيطان لعب بعقولهم.. وأصروا على مخالفتك.

حينها لم تملك إلا أن تتنازل لهم، لا قناعة بما قالوا.. وإنما رعاية لمبادئك التي تجعلك خاضعا لها حتى لو وقفت في وجه مصالحك..

لقد فعلت معهم مثلما فعل هارون عليه السلام عندما غلب على أمره مع بني إسرائيل الذين أبوا طاعتك، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (91) قَالَ يَاهَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93) قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94)} [طه: 90 - 94]

لقد ذكر الحادثة بعض من حضرها، فقال: (كنت عنده حين بعث إلى الأشتر أن يأتيه، وقد كان الأشتر أشرف على معسكر معاوية ليدخله، فأرسل إليه علي يزيد بن هانىء: أن ائتني.. فأتاه فبلغه فقال الأشتر: (ائت أمير المؤمنين فقل له: ليس هذه بالساعة التي ينبغي لك أن تزيلني فيها عن موقفي. إني قد رجوت الله أن يفتح لي فلا تعجلني)، فرجع يزيد بن هانىء إلى عليّ فأخبره، فما هو أن انتهى إلينا حتى ارتفع الرهج وعلت الأصوات من قبل الأشتر، وظهرت دلائل الفتح والنصر لأهل العراق، ودلائل الخذلان، والإدبار على أهل الشام. فقال له القوم: واللّه ما نراك إلّا أمرته بقتال القوم. قال: (أرأيتموني ساررت رسولي إليه؟! أ ليس إنما كلّمته على رؤوسكم علانية وأنتم تسمعون؟)، قالوا: (فابعث إليه فليأتك، وإلّا فو اللّه اعتزلناك)، قال: (ويحك يا يزيد بن هانىء. قل للأشتر أقبل إليّ فإن الفتنة قد وقعت)، فأتاه فأخبره، فقال الأشتر: ألرفع هذه

المصاحف؟! قال: نعم. قال: أما واللّه لقد ظننت أنها حين رفعت ستوقع اختلافا وفرقة! إنها مشورة ابن النابغة- يعني ابن العاص- ثم قال ليزيد: ويحك! ألا ترى إلى ما يلقون؟ ألا ترى إلى الذي يصنع الله لنا؟ أينبغي أن ندع هذا وننصرف عنه؟! فقال له يزيد: أتحب أنك ظفرت ها هنا وأن أمير المؤمنين بمكانه الذي هو به يسلّم إلى عدوّه؟. قال: سبحان اللّه! لا واللّه ما أحب ذلك. فأقبل الأشتر حتى انتهى إليهم فصاح فيهم: يا أهل الذلّ والوهن، أحين علوتم على القوم فظنّوا أنكم لهم قاهرون، ورفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها؟! قد واللّه تركوا ما أمر الله به فيها وتركوا سنّة من أنزلت عليه، فلا تجيبوهم أمهلوني فواقا (ما بين الحلبتين للناقة) فإني قد أحسست بالفتح.. قالوا: لا.. قال: فأمهلوني عدوة الفرس فإني قد طمعت في النصر.. قالوا: لا، إذن ندخل معك في خطيئتك.. قال: فحدّثوني عنكم- وقد قتل أماثلكم وبقي أراذلكم- متى كنتم محقّين؟ أحين كنتم تقتلون أهل الشام؟ فأنتم الآن حين أمسكتم عن القتال مبطلون؟ أم أنتم الآن في إمساككم عن القتال محقّون؟ فقتلاكم إذن الّذين لا تنكرون فضلهم وكانوا خيرا منكم، في النار.. قالوا: دعنا منك يا أشتر. قاتلناهم في الله وندع قتالهم في اللّه. إنّا لسنا نطيعك فاجتنبنا.. قال: خدعتم واللّه فانخدعتم، ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم. يا أصحاب الجباه السود، كنّا نظن أن صلاتكم زهادة في الدنيا وشوق إلى لقاء اللّه، فلا أرى فراركم إلّا إلى الدنيا من الموت، ألا فقبحا لكم، ما أنتم برائين بعدها عزّا أبدا، فابعدوا كما بعد القوم الظالمون)[1]

في ذلك الحين أرسلت إلى معاوية كتابا تقول فيه: (من عبد الله أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان أما بعد، فإن أفضل ما شغل به المرء نفسه اتّباع ما يحسن به فعله، ويستوجب فضله، ويسلم من عيبه، وإن البغي والزور يزريان بالمرء في دينه ودنياه.. فاحذر الدنيا! لا فرح في شيء وصلت إليه منها، وقد علمت أنك غير مدرك ما قضى فواته. وقد رام

---

[1] وَقعَة النَهرَوانْ، أو الخَوارج، عَلي بنِ الحُسَيْن الهَاشِميّ، ص22.

قوم أمرا بغير الحقّ فتأوّلوا على الله تعالى، فأكذبهم، ومتّعهم قليلا ثم اضطرهم إلى عذاب غليظ، فاحذر يوما يغتبط فيه من أحمد عاقبة عمله، ويندم فيه من أمكن الشيطان من قياده ولم يحاده، فغرّته الدنيا واطمأن إليها. ثم إنّك دعوتني إلى حكم القرآن، ولقد علمت أنك لست من أهل القرآن، ولست حكمه تريد، واللّه المستعان. وقد أجبنا القرآن إلى حكمه ولسنا إياك أجبنا، ومن لم يرض بحكم القرآن فقد ضلّ ضلالا بعيدا)[1]

وبعد أن تم هذا رغم إرادتك.. أشار عليك أصحاب القلوب المريضة، بأن ترسل أبا موسى الأشعري، ليكون ممثلا لك، فقلت لهم: (قد عصيتموني في أول هذا الأمر فلا تعصوني الآن، إني لا أرى أن أولي أبا موسى الأشعري)

حينها قام أولئك المرضى، وقالوا: (لا نرضى إلا بأبي موسى)

فقلت لهم محتجا عليهم: (ويحكم! هو ليس لي بثقة! لقد فارقني وخذل الناس عنّي، ثم إنه هرب شهورا إلى مكة حتى أمنته، لكن هذا عبد الله بن عباس أولّيه ذلك)

حينها تحركت أمراض الجاهلية في أولئك الذين زعموا صحبتهم لك، وصاح صائحهم: (و الله لا يحكم فيها مضريان)[2]

وحين طرحوا هذا قلت لهم: (إن أبيتم ابن عباس، فالأشتر).. والأشتر قحطاني مثلهم.. لكنهم رفضوا، وقالوا: (وهل سعر الأرض، وهاج هذا الأمر، وأشعل ما نحن فيه إلّا الأشتر؟ لا نرضى بغير أبي موسى الأشعري.. فإنه حذّرنا ما وقعنا فيه)

حينها قلت لهم: (إن معاوية لم يكن ليضع لهذا الأمر أحدا هو أوثق برأيه في نظره من عمرو بن العاص، وإنّه لا يصحّ

---

[1] وقعة صفين (ص: 493)

[2] يقصدون أن ابن العاص وابن عباس من قريش فهما مضريان، أما أغلب الخوارج فمن قحطان، وبين مضر وقحطان عداء قديم وتنافس منذ الجاهلية.

للقرشي إلّا مثله. فعليكم بعبد الله بن عباس فارموا به، فإن عمرو بن العاص لا يعقد عقدة إلّا حلها عبد الله، ولا يحلّ عقدة إلّا عقدها)(1)

لكنهم أصروا على عنادهم وكبريائهم.. ولم تجد إلا أن تنفذ لهم رغبتهم، مع علمك بما سيؤول إليه أمرهم.. لكنك لم تكن لتتنازل عن مبادئك في سبيل أي مصلحة من المصالح.

أما عدوك اللدود فرعون هذه الأمة.. فقد عمل مع أهل الشام بمثل ما عمل به سلفه فرعون، كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: 54]، ولذلك لم يكن ليستشيرهم، وإنما كان يقابل كل من يتوسم فيه مخالفته له بقتله أمام الملأ، أو بدس السم له في العسل.

النظام.. لا الفوضى:

وهكذا ــ سيدي ــ كنت أحرص الناس على تطبيق سنة رسول الله ﷺ في علاقتك مع رعيتك، وفي علاقة رعيتك بك.. لقد كنت حريصا على أن تبلغهم حقوقهم، كما كنت حريصا على أن تطلب منهم أداء واجباتهم.. وكنت أمينا في ذلك غاية الأمانة، منظما غاية التنظيم.

فعلى الرغم من كل أنواع البلاء التي عصفت بك، وبالزمن الذي توليت فيه، والذي هرعت فيه كل الشياطين لصدك عن أداء وظيفتك التي انتدبتك لها العناية الإلهية إلا أن الورع والتقوى والحكمة هي التي كانت تسوقك لكل كلمة تقولها، أو قرار تصدره.

لقد قلت مخاطبا رعيتك تبصرها بحقوقها وواجباتها: (أمّا بعد فقد جعل الله سبحانه لي عليكم حقّا بولاية أمركم، ولكم عليّ من الحقّ مثل الذي لي عليكم.. فالحقّ أوسع الأشياء في التواصف وأضيقها في التناصف، لا يجري لأحد إلّا جرى عليه،

1() شرح نهج البلاغة: 2/224، و وقعة صفين (ص: 493)

ولا يجري عليه إلّا جرى له، ولو كان لأحد أن يجري له ولا يجري عليه لكان ذلك خالصا للّه سبحانه دون خلقه، لقدرته على عباده، ولعدله في كلّ ما جرت عليه صروف قضائه، ولكنّه جعل حقّه على العباد أن يطيعوه، وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب تفضّلا منه وتوسّعا بما هو من المزيد أهله. ثم جعل سبحانه من حقوقه حقوقا افترضها لبعض الناس على بعض، فجعلها تتكافأ في وجوهها ويوجب بعضها بعضا، ولا يستوجب بعضها إلّا ببعض) [1]

ثم شرعت توضح لهم العلاقة بين الراعي والرعية، والواجبات المنظمة لأدوار كليهما، فقلت: (و أعظم ما افترض الله سبحانه من تلك الحقوق حقّ الوالي على الرعيّة، وحقّ الرعيّة على الوالي، فريضة فرضها الله سبحانه لكلّ على كلّ، فجعلها نظاما لإلفتهم وعزّا لدينهم، فليست تصلح الرعية إلّا بصلاح الولاة، ولا تصلح الولاة إلّا باستقامة الرعيّة، فإذا أدّت الرعيّة إلى الوالي حقّه وأدّى الوالي إليها حقّها، عزّ الحقّ بينهم، وقامت مناهج الدين، واعتدلت معالم العدل، وجرت على أذلالها السنن، فصلح بذلك الزمان وطمع في بقاء الدولة، ويئست مطامع الأعداء.. وإذا غلبت الرعيّة واليها أو أجحف الوالي برعيّته اختلفت هنالك الكلمة، وظهرت معالم الجور، وكثر الإدغال في الدين، وتركت محاجّ السنن، فعمل بالهوى وعطّلت الأحكام، وكثرت علل النفوس؛ فلا يستوحش لعظيم حقّ عطّل، ولا لعظيم باطل فعل، فهنالك تذلّ الأبرار وتعزّ الأشرار، وتعظم تبعات الله سبحانه عند العباد)

ثم بينت لهم ما عليهم فعله لتستقيم الأمور، ولتنتظم الأحوال، فقلت: (فعليكم بالتناصح في ذلك، وحسن التعاون عليه، فليس أحد- وإن اشتدّ على رضا الله حرصه، وطال في العمل اجتهاده- ببالغ حقيقة ما الله سبحانه أهله من الطاعة له.. ولكن من واجب حقوق الله سبحانه على العباد النصيحة بمبلغ جهدهم، والتعاون على إقامة الحقّ بينهم، وليس امرؤ- وإن عظمت في الحق منزلته، وتقدّمت في الدين فضيلته-

1 () نهج البلاغة: الخطب، ص 216.

بفـوق أن يعـان على مـا حمله اللـه من حقّـه، ولا امـرؤ- وإن صغّرته النفوس، واقتحمته العيون- بـدون أن يعين على ذلـك أو يعان عليه)[1]

وقد كنت سيدي دائم التذكير لهم بحقـوقهم ليطـالبوا بهـا، كمـا كنت دائم التـذكير لهم بواجبـاتهم ليؤدوهـا.. ومن كلماتـك الـتي لا نـزال نحفظهـا قولك: (أيّهـا النـاس إن لي عليكم حقّـا، ولكم عليّ حق، فأمّا حقّكم عليّ فالنصيحة لكم، وتوفـير فـيئكم عليكم، وتعليمكم كيلا تجهلوا، وتأديبكم كيما تعلموا.. وأمّـا حقّي عليكم فالوفاء بالبيعة، والنصيحة في المشهد والمغيب، والإجابة حين أدعوكم، والطاعة حين آمركم)[2]

هـذه كلماتـك سـيدي.. ولا نعجب منهـا.. فقـد كنت ملازمـا لحبيبك رسـول اللـه ﷺ، وكنت تحضـر عقـوده الاجتماعيـة الـتي يتعامل بها مع مختلف الأصناف، فاستننت بـه في ذلـك، وجعلت ذلك سنة لمن يريد أن يحيي الخلافة الراشدة الـتي تسـير على منهاج النبوة.

ولم يكن ما قلته ـ سيدي ـ مجرد كلمات، بل كـانت حياتـك كلها تنفيذا لهـا.. فـأنت مـع مـا ابتليت بـه من أصـناف النـاكثين والقاسطين والمارقين إلا أنك لم تتجاوز ما تمليه عليك التقـوى والأخلاق الرفيعة والمثل العليا التي رباك عليها رسول الله ﷺ.

لقد كنت مثالا حقيقيا حيا لقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَـوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِـيرٌ بِمَـا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:8]

لقد فسرت كلماتك وحكمك حياته هذه الآية الكريمـة خـير تفسير.. لقد كنت تقول: (أعـدل النـاس من أنصـف من ظلمه)، وتقـول: (أجـور النـاس من ظلم من أنصـفه) ، وتقـول: (أعـدل الناس من أنصف عن قوّة) ، وتقول: (الاستصلاح للأعداء بحسن

---

[1] () نهج البلاغة: الخطب، ص 216.

[2] () نهج البلاغة: الخطب 34.

المقال، وجميل الأفعال، أهون من ملاقاتهم ومغالبتهم بمضـيض القتال) (1)

وهكذا أوصيت ابنك الحسن، فقلت له: (أوصيك بتقوى الله في الغنى والفقـر.. وبالعـدل على الصـديق والعـدوّ)، وقلت في وصية أخرى: (أوصيك يا بـني بالصـلاة عنـد وقتهـا.. والعـدل في الرضى والغضب) (2)

ولهذا، فإنك قبل أن تواجه أي عدو من أعدائك بمبــارزة أو غيرها كنت تقيم عليه الحجـة أولا، وتـدعوه إلى الحـق، قبـل أن تبادر إلى ما أمـرك اللـه بـه من تكـاليف.. حـتى ذلـك المشـرك المتكبر عمرو بن ودّ العامري لم تبـارزه إلا بعـد أن أقمت عليـه الحجة.

وهكـذا فعلت قبـل معركـة الجمـل.. حينمـا دعـوت طلحـة والزبير لتناقشهما، وتقيم الحجـة عليهمـا، وقلت لهمـا: (لعمـري لقد أعددتما سلاحا وخيلا ورجالا!! لا تكونا ﴿ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًـا﴾ [النحـل:92]،ـ ألم أكن أخاكمـا في دينكمـا تحرّمان دمي وأحرّم دماءكما: فهل من حدث أحل دمي)

حينهـا قـال طلحـة: (الانتظـار على دم عثمـان)، فقلت لـه مستغربا: (يا طلحة! أهو أنت من يطلب دم عثمان؟! فلعن الله قتلة عثمان.. يا طلحة، أتيت بامرأة رسـول اللـه ﷺ تقاتـل بهـا، وخبّأت امرأتك في البيت!)

ثم قلت لهمـا: (إنكمـا ممن أرادني وبـايعني، فـإن كنتمـا بايعتماني طائعين فارجعا وتوبا إلى اللـه من قـريب، وإن كنتمـا بايعتماني كارهين، فقد جعلتمـا لي عليكمـا السـبيل، بإظهاركمـا الطاعــة، وإســراركما المعصــية.. ولعمــري مــا كنتمــا بــأحق المهاجرين بالتقية والكتمان، وإن دفعكما هذا الأمر من قبـل أن تدخلا فيه كان أوسع عليكما، من خروجكما منـه، بعـد إقراركمـا

1() غرر الحكم ودرر الكلم.

2() كشف الغمة للأربلي نقلا عن القطرة من بحار النبي والعترة للمستنبط 1/46.

به، وقد زعمتما أني قتلت عثمان، فبيني وبينكما من تخلّف عنّي وعنكما من أهل المدينة، ثم يلزم كل امـرىء بقـدر مـا احتمـل، فارجعا أيها الشيخان عن رأيكما فإن الآن أعظم العار، من قبـل أن يجتمع العار والنار)

وقلت لهما: (استحلفا عائشة بحق الله وبحق رسـوله على خصال أن تصدّق فيها: هل تعلم رجلا من قريش أولى مني باللّه ورسوله؟ وإسلامي قبل كافّة الناس أجمعين؟ وكفـايتي رسـول اللــه ﷺ كفـار العـرب بسـيفي ورمحي، وعلى بـراءتي من دم عثمـان، وعلى أني لم أسـتكره أحـدا على بيعـة، وعلى أنّي لم أكن أحسن قولا في عثمان منكما)[1]

وهكذا كنت ترسل بالحجة تلو الحجة لعدوك اللدود فرعون هذه الأمة عساه يتعظ، ويترك ما هـو فيـه من بغي وظلم.. لقـد كتبت تقول له: (أما بعد.. فإن الله سبحانه قـد جعـل الـدّنيا لمـا بعدها، وابتلى فيها أهلها، ليعلم أيّهم أحسـن عملا، ولسـنا للـدنيا خلقنا، ولا بالسعي فيها أمرنا، وإنّما وضعنا فيها لنبتلى بهـا. وقـد ابتلاني اللــه بــك، وابتلاك بي، فجعــل أحــدنا حجّـة على الآخــر، فعدوت على الدّنيا بتأويل القرآن، فطلبتني بما لم تجن يدي ولا لساني، وعصيته أنت وأهل الشـام بي، وألبّ عـالمكم جـاهلكم، وقائمكم قاعدكم. فاتّق الله في نفسك، ونازع الشيطان قيّادك، واصرف إلى الآخرة وجهـك، فهي طريقنـا وطريقـك. واحـذر أن يصيبك الله منه بعاجل قارعة تمسّ الأصل، وتقطع الدابر)[2]

وهكذا فعلت مـع الخـوارج.. فقـد كنت تقيم عليهم الحجج، وتذكرهم بالله، وكـان ممـا قلت لهم: (.. ألم تعلمـوا أني نهيتكم عن الحكومة (التحكيم)، وأخـبرتكم أن طلب القـوم إياهـا منكم دهن ومكيـدة لكم، ونبّـأتكم أن القـوم ليسـوا بأصـحاب دين ولا قرآن، وأني أعرف بهم منكم، عرفتهم أطفالا ورجالا، فهم أهــل المكـــر والغـــدر، وإنكم إن فـــارقتم رأيي جـــانبتم الحـــزم، فعصـيتموني، حـتى أقـررت بـأن حكّمت، فلمـا فعلت شـرطت

[1] () الإمامة والسياسة: ج 1، ص 70.

[2] () الطراز: ج 2، ص 393.

واستوثقت، فأخذت على محكمين أن يحييا ما أحيا القرآن، وأن يميتا ما أمات القرآن، فاختلفا وخالفا حكم الكتاب والسّنّة، فنبذنا أمرهما، ونحن على أمرنا الأوّل. فما الذي بكم، ومن أين أتيتم؟)([1])

وقلت لهم: (يا هؤلاء.. إن أنفسكم قد سوّلت لكم فراق هذه الحكومة التي أنتم ابتدأتموها، وسألتموها وأنا لها كاره، فأبيتم عليّ إباء المخالفين، وعدلتم عنّي عدول النكداء العاصين حتى صرفت رأيي إلى رأيكم.. فلم آت لا أبا لكم حراما، واللّه ما خبلتكم عن أموركم، ولا أخفيت شيئا من هذا الأمر عنكم.. فبيّنوا لنا بماذا تستحلّون قتالنا والخروج عن جماعتنا، أن تضعوا أسيافكم على عواتقكم، ثم تستعرضون الناس تضربون رقابهم، وتسفكون دماءهم إن هذا لهو الخسران المبين)([2])

وقلت لهم: (فإن أبيتم إلّا أن تزعموا أني أخطأت وضللت، فلم تضلّلون عامّة أمة محمد ﷺ بضلالي، وتأخذونهم بخطئي، وتكفّرونهم بذنوبي، سيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضع البرّ والسقم، وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب، وقد علمتم أن رسول الله ﷺ قتل القاتل وورّث ميراثه أهله. وقطع السارق وجلد الزاني، ثم قسّم عليهما من الفيء ونكحا المسلمات، فأخذهم رسول الله ﷺ بذنوبهم، وأقام حق الله فيهم، ولم يمنعهم سهمهم من الإسلام، ولم يخرج أسماءهم من بين أهله.. ثم أنتم شرار الناس، ومن رمى به الشيطان مراميه، وضرب به تيهه، وسيهلك فيّ صنفان: محبّ مفرط يذهب به الحب إلى غير الحق، ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق، وخير الناس فيّ حالا النّمط الأوسط فالزموه..)([3])

و هكذا كان دورك مع الجميع، لا تأخذ بالظنة، ولا تغدر حتى بمن غدر بك.. أذكر جيدا ذلك الرجل الذي جاءك، فقال:

---

[1] () تاريخ الطبري: ج 5، ص 85.

[2] () تاريخ الطبري: ج 5، ص 85.

[3] () معدن الجواهر: للكراجكي، ص 226.

(يا أمير المؤمنين: في أصحابك رجال قد خشيت أن يفارقوك فما ترى فيهم؟)، فقلت له: (إني لا آخذ على التهمة، ولا أعاقب على الظنّ، ولا أقاتل إلّا من قاتلني، وناصبني وأظهر لي العداوة، ولست مقاتله حتى أدعوه، وأعذر إليه، فإن تاب ورجع إلينا قبلنا منه، وهو أخونا، وإن أبى إلّا الاعتزام على حربنا استعنا عليه اللّه، وناجزناه)[1]

الحرية.. لا الإكراه:

وهكذا ـ سيدي ـ كنت أحرص الناس على حرية الناس.. فقد علمك القرآن الكريم، وعلمك رسول الله ﷺ أن الحرية قيمة إنسانية عليا، وأن أكبر الجرائم مصادرتها تحت أي اسم من الأسماء.

لقد كنت تقول مخاطبا رعيتك، والأجيال معها: (لا تكن عبد غيرك، وقد جعلك الله سبحانه حرا)[2]

وكنت تقول: (أيها الناس.. إنّ آدم لم يلد عبدا، ولا أمة، وأن الناس كلهم أحرار)[3]

وكنت تقول لهم ــ وأنت تدعوهم للقتال في صفين ــ: (سيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا في الأرض جبارين ملوكا، يتخذهم المؤمنون أربابا، ويتخذون عباد الله خولا)[4]

ولذلك كنت تنهاهم أن ينظروا إليك كما ينظرون إلى الجبابرة والطغاة، فيمتنعوا عن المطالبة بحقوقهم خوفا ورهبة.. لقد كنت تقول لهم كل حين: (فلا تكلّموني بما تكلّم به الجبابرة، ولا تتحفّظوا منّي بما يتحفّظ به عند أهل البادرة، ولا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنّوا بي استثقالا في حقّ قيل لي،

1() شرح نهج البلاغة ٣ : ١٤٨.

2() غرر الحكم ودرر الكلم.

3() نهج السعادة، ج 1، ص 198.

4() ابن قتيبة الدنيوري، الامام والسياسة، ج1، ص166.

ولا التماس إعظام لنفسي، فإنّه من استثقل الحقّ أن يقال لـه، أو العدل أن يعرض عليه، كان العمل بهما أثقل عليه، فلا تكفّـوا عن مقالة بحقّ، أو مشورة بعدل، فإنّي لست في نفسي بفـوق أن أخطئ، ولا آمن ذلك من فعلي، إلّا أن يكفي اللّه من نفسـي ما هو أملك به منّي، فإنّما أنا وأنتم عبيد مملوكـون لـربّ لا ربّ غيره، يملك منّا ما لا نملك من أنفسنا، وأخرجنا ممّا كنّا فيه إلى ما صلحنا عليه، فأبدلنا بعـد الضّـلالة بالهـدى، وأعطانـا البصـيرة بعد العمى) [1]

وكنت تصحح لهم تلك المفاهيم التي أشاعها بعض الـولاءة بينهم، فتقول: (إنّ من أسخف حالات الولاة عند صـالح النّـاس: أن يظنّ بهم حبّ الفخر، ويوضع أمرهم على الكبر، وقد كـرهت أن يكـون جـال في ظنّكم أنّي أحبّ الإطـراء، واسـتماع الثّنـاء، ولست- بحمد اللّه- كذلك، ولو كنت أحبّ أن يقال ذلـك، لتركتـه انحطاطا للّـه سبحانه عن تنـاول مـا هـو أحـقّ بـه من العظمـة والكبرياء.. وربّما استحلى النّاس الثّناء بعد البلاء، فلا تثنـوا عليّ بجميل ثناء، لإخراجي نفسي إلى اللّه سبحانه وإليكم، من التّقيّة في حقوق لم أفرغ من أدائها، وفرائض لا بدّ من إمضائها) [2]

ولم يكن ذلك مجرد مواعظ أو شعارات.. بل كانت حقيقـة تسير بها في رعيتك.. فقد كنت تدعوهم لذكر مـواقفهم وآرائهم في كل ما يرتبـط بشـؤون الدولـة.. لقـد كنت تقـول لهم: (فلا تكفّوا عن مقالة بحق، أو مشورة بعدل، فإنّي لست في نفسـي بفوق أن أخطىء، ولا آمن ذلك من فعلي، إلّا أن يكفي اللـه من نفسي ما هو أملك به منّي فإنما أنا وأنتم عبيد مملوكون لربّ لا ربّ غـيره، يملـك منّـا مـا لا، نملـك من أنفسـنا.. ولا تظنّـوا بي استثقالا في حقّ قيل لي، ولا التماس إعظام لنفسي، فإنــه من استثقل الحقّ أن يقال له، أو العدل أن يعرض عليه، كان العمل بهما أثقل عليه) [3]

---

[1] () نهج البلاغة: الخطبة رقم(216)

[2] () نهج البلاغة: الخطبة رقم(216)

[3] () نهج البلاغة: الخطب، ص 216.

وكنت تطالبهم بالمطالبة بحقـوقهم، وقـد روى المؤرخـون أنك خطبت في الناس قائلا: (أيها الناس، هـل فيكم أحـد يـدّعي قبلي جـورا في حكم، أو ظلمـا في نفس أو مـال، فليقم بـه أنصفه من ذلك؟)، فقام رجل من القوم فأثنى عليك ثناء حسنا، وأطراك، وذكـر مناقبـك، فقلت ردا عليـه: (أيهـا العبـد المتكلم، ليس هـذا حين إطـراء، ومـا أحب أن يحضـرني أحـد في هـذا المحضر بغير النصيحة، واللّه الشاهد على من رأى شيئا يكرهه، فلم يعلمنيه، فإني أحب أن أستعتب من نفسـي قبـل أن تفـوت نفسي)[1]

وكنت تقول لهم: (أيهـا النـاس، أنـا أحب أن أشـهد عليكم، أن لا يقـوم أحـد فيقـول: أردت أن أقـول فخفت، فقـد أعـذرت فيما بيني وبينكم، اللهم إلّا أن يكون أحد يريد ظلمي، والـدّعوى عليّ بما لم أجن، أما إني لم أستحلّ من أحد مالا، ولم أستحلّ من أحد دما بغير حلّه، وجاهـدت مـع رسـول اللّـه ﷺ بـأمر اللّـه وأمر رسـوله، فلمـا قبض اللّـه رسـوله ﷺ، جاهـدت من أمـرني بجهـاده من أهـل البغي، وسـمّاهم لي رجلا رجلا، وحضّـني على جهـادهم وقـال: (يـا علي، تقاتـل النـاكثين وسـمّاهم لي، والقاسطين وسمّاهم لي، والمـارقين)، فلا تكـثر منكم الأقـوال، فإن أصدق ما يكون المرء عند هذا الحال)[2]

لقد كانت الحرية التي تؤمن بها، والتي وهبتها لرعيتك، كما تعلمت ذلك من رسول الله ﷺ هي القيمة الـتي حـاول أعـداؤك استثمارها لضرب مشروع دولتك الإلهيـة، فقـد روى المؤرخـون أن الحجاج بن الضمّة دخل على معاوية في بداية تمرده عليـك، فقال له: (إني أخـبرك يـا أمـير المؤمـنين إنـك تقـوى على عليّ بدون ما يقوى به عليك، لأن معك قومـا لا يقولـون إذا قلت، ولا يسألون إذا أمرت. وإن مع عليّ قوما يقولون إذا قال، ويسألون إذا أمر، فقليل ممّن معك خير من كثير ممّن معه)[3]

---

[1] () مسند الإمام علي: 7/376.

[2] () نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة: 8/320.

[3] () الأخبار الطوال ص155.

ولم تكن تلك الحرية التي أعطيتها لرعيتك، وتعاملت بها معها على أساسها خاصة بالمسلمين، بل شملت غيرهم أيضا من أهل الأديان، فقد كنت تقول: (لو استقامت لي الإمرة، وثنيت لي الوسادة لحكمت لاهل التوراة بما انزل الله في التوراة... ولحكمت لاهل الانجيل بما انزل الله في الانجيل .. ولحكمت لاهل القرآن بما انزل الله في القرآن)(1)

وفي الوقت الذي كان يردد فيه بعضهم قوله: (إذا دق بالناقوس اشتد غضب الرحمن عز وجل، فتنزل الملائكة، فتأخذ بأقطار الأرض)(2)، كنت تقول خلاف ذلك، وكنت تستمع من صوت الناقوس خلاف ما يستمع.

فقد حدث بعض أصحابك قال: بينا أنا أسير مع أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب في الحيرة إذا نحن بديراني يضرب بالناقوس، قال: فقال علي بن أبي طالب: يا حارث أتدري ما يقول هذا الناقوس؟ قلت: الله ورسوله وابن عم رسوله أعلم. قال: إنه يضرب مثل الدنيا وخرابه ويقول: لاإله إلا الله حقا حقا، صدقا صدقا، إن الدنيا قد غرتنا وشغلتنا واستهوتنا واسستغوتنا، ياابن الدنيا مهلا مهلا، يا ابن الدنيا دقا دقا، يا ابن الدنيا جمعا جمعا، تفني الدنيا قرنا قرنا، ما من يوم يمضي عنا، إلا وهي أوهى منا ركنا، قد ضيعنا دارا تبقى، واستوطنا دارا تفنى، لسنا ندري ما فرطنا، فيها إلا لوقد متنا) (3)

وهكذا كنت تسمح لهم بكل ما يمارسونه من شعائرهم من غير أن تضيق عليهم، بل من غير أن تظهر لهم أي حرج أو عتاب أو توبيخ..

وقد روى المؤرخون أن محمد بن أبي بكر كتب إليك

1() تفسير العياشي، ص15.

2() أحكام أهل الذمة، 1/169. وقد ذكر ابن القيم أن عمر بن عبد العزيز كتب ألا يضرب بالناقوس خارجا من الكنيسة..

3() جواهر المطالب في مناقب الامام علي، 127..

يسألك عن رجل مسلم فجر بامرأة نصرانية، وعن قـوم زنادقـة فيهم من يعبـد الشـمس والقمـر، ومنهم من يعبـد غـير ذلـك.. فـرددت عليـه: (أن أقم الحـد فيهم على المسـلم الـذي فجـر بالنصـرانية، وادفـع النصـرانية إلى النصـارى يقضـون فيهـا مـا شاؤوا)، ثم أمرته في الزنادقة أن يتركوا يعملون ما شاءوا[1].

وهكـذا روي أنـك أتيت بهديـة النـيروز، فقلت: مـا هـذا؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، اليوم النيروز، فقلت مازحـا: (اصـنعوا لنا كل يوم نيروزا)[2]

وروي أنك مررت على بعض المجوس، فراحوا يستقبلونك بحفاوة، فسألتهم: (ما هذه الدواب التى معكم؟ وما أردتم بهـذا الذى صنعتم؟) فقالوا: (أما هذا الذى صنعنا فهو خلق منـا نعظم بـه الأمـراء. وأمـا هـذه الـبراذين فهديـة لـك. وقـد صـنعنا لـك وللمسلمين طعاما، وهيأنا لدوابكم علفا كثيرا)

حينها أجبتهم بقولك: (أما هذا الذى زعمتم أنـه منكم خلـق تعظمون به الأمراء فوالله ما ينفع هذا الأمـراء، وإنكم لتشـقون به على أنفسكم وأبدانكم، فلا تعودوا له. وأما دوابكم هذه، فإن أحببتم أن نأخـذها منكم فنحسـبها من خـراجكم أخـذناها منكم. وأما طعامكم الذى صنعتم لنا فإنـا نكـره أن نأكـل من أمـوالكم شيئا إلا بثمن)

فقالوا لـك متعجـبين: (يـا أمـير المؤمـنين، نحن نقومـه ثم نقبل ثمنه)، فقلت لهم: (إذا لا تقومونه قيمتـه، نحن نكتفي بمـا دونه)، فقالو لك: يا أمير المؤمـنين فـإن لنـا من العـرب مـوالى ومعارف، فتمنعنا أن نهـدى لهم وتمنعهم أن يقبلـوا منـا؟ فقلت لهم: (كل العرب لكم مـوال، وليس ينبغى لأحـد من المسـلمين أن يقبل هديتكم. وإن غصبكم أحد فأعلمونا)

لم يملكوا حينها إلا أن يقولوا: (يا أمير المؤمـنين، إنـا نحب أن تقبـل هـديتنا وكرامتنـا)، فقلت لهم: (ويحكم، نحن أغـنى

---

[1] الغارات 1: 230..

[2] من لا يحضره الفقيه، 3/300.

منكم)[1]

وكنت ـ لما وهبك الله من رحمة وعدالة ــ تغضب إذا ما رأيت أي نوع من أنواع الأذى يصب على هؤلاء المخالفين لدينك، والذين يعيشون تحت سلطتك، وقد روى المؤرخون أنك مررت بشيخ نصراني مكفوف يسأل الناس، فقلت: (ما هذا)، فقالوا: (يا أمير المؤمنين نصراني)، فقلت غاضبا: (استعملتموه حتى إذا كبر، وعجز منعتموه)، التفت إلى مسؤولي بيت المال، وقلت: (أنفقوا عليه من بيت المال)[2]

ليس ذلك فقط، وإنما كنت تتعامل معهم بكل ما تقتضيه العدالة والرحمة من قيم، وقد روى المؤرخون أنّك افتقدت درعك، ثم وجدتها عند نصراني، فلم تأخذها منه، ولم تعاقبه على جرمه، وإنما ذهبت به إلى القاضي، ثم جلست إلى جانب خصمك، وقلت: إنها درعي لم أبع ولم أهب.. فقال القاضي للنصراني: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟.. فقال النصراني: ما الدرع إلّا درعي، وما أمير المؤمنين بكاذب.. فالتفت القاضي إليك يسألك عن البينة، فضحكت، وقلت: ما لي بيّنة.. فلم يملك القاضي إلا أن يحكم للنصراني.

بعدها مشيت من غير أن تؤنب النصراني، أو تعاتب القاضي.. فإذا بالنصراني يخطو خطوات قليلة، ثم يعود قائلا: (أمير المؤمنين قدمني إلى قاضيه، وقاضيه يقضي عليه، أشهد أن هذا الدين على الحق، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله وأن الدرع درعك يا أمير المؤمنين، سقطت منك ليلاً) [3]

وقد روى لنا المؤرخون أنك قبل توليك أمر المسلمين

---

[1] وقعة صفين (ص: 144)

[2] الوسائل: ج 11، ص 49.

[3] أخبار القضاة 2/200ـ 2/201ـ 2/194. حياة الصحابة، محمد الكاندهلوي: ج1 ص235، نقلاً عن الحاكم في الكنى.

وقفت موقفا لا يقل عن هذا، فقد روى ابن عباس قال:استعدى رجل على علي بن أبي طالب إلى عمر بن الخطاب، وكان علي جالسا في مجلس عمـر بن الخطـاب، فـالتفت عمـر إلى علي، فقال:قم يا أبالحسن، فـاجلس مـع خصـمك.فقـام علي، فجلس مع خصمه فتنـاظر، وانصـرف الرجـل، ورجـع علي إلى مجلسـه فجلس فيـه، فتـبين عمـر التغـير في وجهـه، فقـال لـه: يـا أبـا الحسن، مالي أراك متغيرا، أكرهت ما كان؟ قال:نعم، قال:و لم ذاك؟ قال:لأنك كنيتـني بحضـرة خصـمي، فهلا قلت:قم يـا علي فاجلس مع خصمك؟ فأخذ عمر رأس علي، فقبل بين عينيه، ثم قال: (بأبي أنتم، بكم هدانا الله، وبكم أخرجنا من الظلمات إلى النور)[1]

هذه بعض مواقفك سيدي، وهي لا تسـتغرب منـك.. فـأنت قـد ربيت في حجـر النبـوة، وتـأدبت بـآداب القـرآن الكـريم.. وعرفت من قيم من الدين ما تخلف عنه غـيرك.. ولـذلك فـأنت مثالنا الأعلى، كما أنك حجتنا الأسمى..

العدل.. لا الجور:

أتـذكر جيـدا ــ سـيدي ــ في ذلـك العـالم الممتلئ بـالجور والظلم، كل تلك التعاليم الـتي كنت تبثهـا بين رعيتـك، والـتي لا نزال نحن إليها، وإلى ما امتلأت به من قيم العدالة والإنسانية..

لقد كنت تـردد عليهم ببيانـك وفعلـك مـا دعـا إليـه القـرآن الكريم من عدالة، فتقول لهم: (العدل أساس به قوام العالم).. وتقول لهم: (العدل ميزان الله الذي وضعه للخلق ونصبه لإقامة الحـقّ).. وتقـول لهم: (حسـبكم دلالـة على فضـيلة العـدل أن الجور الذي هو ضدّه لا يقوم إلّا به، وذلك أن اللّصوص إذا أخذوا الأمـوال واقتسـموها بينهم، احتـاجوا إلى اسـتعمال العـدل في اقتسامهم، وإلّا أضرّ ذلك بهم) [2]

وتقول لهم: (فاللّه عـزّ وجـلّ، جعـل العـدل قوامـا للأنـام،

[1] المناقب: ص 98، ح.99، شرح ابن أبي الحديد، ج 17، ص.65.

[2] ميزان الحكمة: ج 6، ص 78.

وتنزيها من المظالم والآثام، وتسنية للإسلام) .. وتقـول: (عـدل السلطان خير من خصب الزمـان)، وتقـول لهم: (الأرض لـتزين في أعين الناس إذا كان عليها إمام عادل، وتقبح إذا كـان عليهـا إمام جائر).. وتقول لهم: (عـدل سـاعة خـير من عبـادة سـبعين سنة، قيام ليلها وصيام نهارها، وجور ساعة في حكم، أشدّ عنــد الله من معاصي ستين سنة) (1)

وتقــول لهم: (يجب على الســلطان أن يلـتزم العــدل في ظاهر أفعاله لإقامة أمر سلطانه، وفي باطن ضميره لإقامة أمر دينه، فإذا فسـدت السياسـة ذهب السـلطان، ومـدار السياسـة كلهـا على العـدل والإنصـاف، فلا يقـوم سـلطان لأهـل الإيمـان والكفـر إلّا بهمـا، والإمـام العـادل كـالقلب بين الجـوارح تصـلح الجوارح بصلاحه، وتفسد بفساده)(2)

وعنـدما سـئلت: (أيّهمـا أفضـل: العـدل أو الجـود؟)، أجبت سائلك بقولك: (العدل يضـع الأمـور مواضـعها، والجـود يخرجهـا عن جهتها. والعدل سائس عام، والجود عـارض خـاص، فالعـدل أشرفهما)(3)

وفي أوّل خطبة ألقيتها بعـد مبايعـة النـاس لـك، قلت لهم: (أيها النـاس الـدنيا دار حـق وباطـل، ولكـلّ أهـل، ألا ولئن غلب الباطل فقديما كان وفعل، ولئن قل الحق فلربما ولعل، ولقلّمــا أدبر شيء وأقبل، ولئن ردّ عليكم أمركم إنكم لسعداء. إن اللــه عزّ وجلّ أدب هذه الأمة بالسيف والسوط فاستتروا في بيوتكم، وأصلحوا ذات بينكم، فإن التوبة من ورائكم، وما عليّ إلّا الجهد، ألا وإن الخطايا خيل شمس حمـل عليهـا أهلهـا وخلعت لجمهـا، فتقحمت بهم إلى النار. ألا وإن التقوى مطايا ذلـل حمـل عليهـا أهلهـا وأعطـوا أزمّتهـا، فـأوردتهم الجنّـة، وفتحـوا لهم أبوابـا، ووجـدوا ريحهـا وطيبهـا وقيـل لهم: ﴿ادْخُلُوهَـا بِسَـلاَمٍ آمِنِين﴾

1() ميزان الحكمة: ج 6، ص 78.

2() قاموس الحكم والأمثال: ص 433.

3() نهج البلاغة: الحكم، 437.

[الحجر:46].. اليمين والشمال مضلّة والطريق الوسطى هي الجادة عليها يأتي الكتاب وآثار النبوّة، إن على الإمام الاستقامة، وعلى الرعية التسليم. ليس أمري وأمركم واحدا، وإني أريدكم للّه وأنتم تريدونني لأنفسكم! وأيم الله لأنصحن للخصم، ولأنصفنّ للمظلوم.. ذمّتي بما أقول رهينة وأنا به زعيم، إن من صرّحت له العبر عمّا بين يديه من المثلّات، حجزته التقوى عن تقحّم الشبهات)[1]

ولم تكن تلك التعاليم مجرد كلمات، وإنما كانت أفعالا كلفتك عداوات كثيرة.. فالمستكبرون والانتهازيون الذين ملأوا جيوبهم من أموال المستضعفين وعرقهم لم يقبلوا منك ذلك.. فلذلك وقفت في خيارات صعبة بين إرضائهم أو إرضاء العدالة التي كلفك الله بها.

لكن تربية رسول الله ﷺ لك.. وقرآن ربك الذي كان هاديك في كل حركة تقوم بها، وضعاك على الصراط المستقيم، ولم تبال بكل تلك المعارضات التي عارضت ما اقتضته العدالة.

أذكر جيدا موقفك من أولئك الذين استغلوا ما فعله مروان أيام عثمان من إعطاء من لا يستحق من أموال المسلمين.. فلم ترض بذلك، وصحت بعد توليك أمر المسلمين من غير تردد، ولا مداراة، ولا مداهنة: (ألا وإن كل ما أقطعه عثمان من مال الله مردود إلى بيت مال المسلمين، فإن الحق قديم لا يبطله شيء، وو الله لو وجدته تفرّق في البلدان وتزوّج به النساء وملك به الإماء، لرددته! فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيق، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم)[2]

بل قد حدث ابن عباس عن أن موقفك هذا لم يكن وليدا للولاية التي وليتها، وإنما كان سابقا معك، وما كان لك أن

1() نهج البلاغة: خطبة 16، البيان والتبيين: ج 2، ص 65.

2() دعائم الإسلام: ج 1، ص 396.

تسكت عن منكر قدرت على تغييره أو لم تقدر..

لقد ذكر ذلك الموقف، فقال: (شهدت عتـاب عثمـان لعلي يوما فقال له في بعض ما قاله: (نشدتك باللّه يا أبا الحسن، أن تفتح للفرقة بابا)، فقال علي: (أمّا الفرقـة فمعـاذ اللـه أن أفتح لها بابا، وأسهّل إليه سبيلا، ولكنّي أنهاك عمّا ينهاك الله ورسوله عنــه، ألا تنهى ســفهاء بــني أميــة عن إعــراض المســلمين وأبشـارهم، وأمـوالهم.. واللّـه لـو ظلم عامـل من عمّالـك حيث تغرب الشمس لكان إثمه مشتركا بينه وبينك)، قال ابن عبــاس، فقال عثمان: (لك العتـبى، وافعـل واعـزل من عمّـالي كـل من تكرهه ويكرهه المسلمون)، ثم افترقا فصـدّه مـروان بن الحكم عن ذلك، وقال: يجترىء عليك الناس فلا تفعل ولا تعـزل أحـدا. ففعل عثمان ما أوصاه به مروان، لا ما أوصاه)[1]

وهكذا سرت بين الرعية تأخذ للمظلوم حقـه، وتعتـبر ذلـك مسؤوليتك، حتى لو انجر عن ذلك مـا انجـر من تعـاون الظلمـة والمفسدين عليك..

لقد كنت تردد كل حين بين رعيتك: (إنّ الله عزّ وجلّ أنزل كتابا هاديا يبيّن فيه الخير والشـر، فخـذوا بـالخير ودعـوا الشـر. الفرائض أدّوها إلى الله سبحانه يؤدّكم إلى الجنة. إن الله حــرّم حرما غـير مجهولـة، وفضـل حرمـة المسـلم على الحـرم كلهـا، وشدّ بالإخلاص والتوحيد المسلمين، والمسـلم من سـلم النـاس من لسـانه ويـده إلّا بـالحق، لا يحـلّ أذى المسـلم إلّا بمـا يجب. بـادروا أمـر العامـة.. اتّقـوا اللـه عبـادة في عبـاده وبلاده. إنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهـائم، أطيعـوا اللـه عـزّ وجـلّ ولا تعصـوه، وإذا رأيتم الخـير فخـذوا بـه، وإذا رأيتم الشـرّ فـدعوه، واذكروا إذ أنتم قليلون مستضعفون في الأرض..)[2]

وكنت تقول لهم، وكأنك تشجعهم على طلب الإنصـاف من ظـالميهم: (و أيم اللـه لأنصـفنّ المظلـوم من ظالمـه، ولآخـذنّ

1() شرح نهج البلاغة: ج 9، ص 15- 16، الإمامة والسياسة، ابن قتيبة 1 / 11.

2() الكامل في التاريخ: 3/193.

الظالم بخزامته حتى أورده منهل الحق وإن كان كارها)[1]

وكنت تقول لهم بكل قوة: (مـا ضـعفت ولا جبنت! فلأنقبنّ الباطل حتى يخرج الحق من خاصرته)، وتقـول: (ظلم الضـعيف أفحش الظلم)، وتقـول: (الظلم في الـدنيا بـوار، وفي الآخـرة دمـار)، وتقـول: (من ظلم عبـاد اللـه كـان اللـه خصـمه دون عباده)، وتقول: (أقدموا على اللـه مظلـومين، ولا تقـدموا عليـه ظالمين)[2]

وكنت تقــول لهم معــبرا عن نفســك، ومـــا تمتلئ بـــه مواجيدك: (و اللّه.. لأن أبيت على حسّـك السـعدان مسـهّدا، أو أجـرّ في الأغلال مصـفدا، أحبّ إليّ من أن ألقى اللـه ورسـوله يوم القيامة، ظالما لبعض العبـاد، وغاصـبا لشـيء من الحطـام، وكيف أظلم أحـدا لنفس إلى البلي قفولهـا، ويطـول في الـثرى حلولها.. واللّـه لـو أعطيت الأقـاليم السـبعة- بمـا تحت أفلاكهـا- على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته.. مـا لعليّ ولنعيم يفنى، ولذة لا تبقى.. نعوذ باللّه من سـبات العقـل، وقبّح الزلل وبه نستعين)[3]

وقـد سـألك بعضـهم: أي ذنب أعجـل عقوبـة؟ فقلت: (من ظلم من لا ناصر له، إلّا اللّه، وجاور النعمة بالتقصير، واسـتطال بالبغي على الفقير)[4]

وكنت تروي لهم: (أن الله تعـالى قـال: وعـزّتي وجلالي، لا يجوزني ظلم ظالم، ولو كفّ بكف، ولو مسحة بكف، ونطحة ما بين الشاة القرناء إلى الشاة الجمّاء فيقتصّ الله للعبـاد بعضـهم من بعض حـتى لا يبقى لأحـد عنـد أحـد مظلمـة ثم يبعثهم اللـه للحساب)

---

[1] () النهاية لابن الأثير، ج 3، ص 467.

[2] () ميزان الحكمة: ج 5، ص 595.

[3] () ربيع الأبرار: باب الخير والصلاح.

[4] () بحار الأنوار: ج 75، ص 320.

بـــل إنـــك كنت تعتـــبر (العامـــل بـــالظلم، والمعين عليـــه، والراضي به شركاء ثلاثة)[1]

وتعتبر (من أعان ظالما على ظلمه جاء يوم القيامـة وعلى جبهته مكتوب آيس من رحمـة اللّه)[2] و(من مشـى مـع ظـالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام)[3]

لقد شـهد لـك أعـداؤك بـذلك، وأنـه لن يظلم عنـدك حـتى ظالميـــك أنفســـهم كـــانوا مطمئـــنين إلى عـــدالتك.. لقـــد روى المؤرخون أنه في الوقت الذي كدت أن تنتصر فيه على عـدوك اللـــدود فرعـــون هـــذه الأمـــة.. في تلـــك الليلـــة قـــال معاويـــة لمستشاره عمرو بن العـاص: (يـا عمـرو، إنمـا هي الليلـة حـتى يغـدو علينـا بالفيصـل! فمـا تـرى)، فقـال عمـرو: (إن رجالـك لا يقومون لرجاله. ولست مثله! هو يقاتلك على أمـر وأنت تقاتلـه على غـيره. أنت تريـد البقـاء وهـو يريـد الفنـاء، وأهـل العـراق يخافونك إن ظفرت بهم، وأهل الشام لا يخـافون عليّـا إن ظفـر بهم)[4]

ومن تجليات عدلك ـ سيدي ـ قسمتك العادلة لمـال الأمـة، فلم تكن تعتبر المال مالك، تتحكم فيه كما تشـاء، تصـل بـه من تشاء، وتقطع من تشاء كما يفعل خصـومك، وإنمـا كنت تعتـبره مال الله، وأنك خليفة فيه، وأن من واجبـك إعطـاءه لمسـتحقيه من غير تفريق بينهم.

لقد سألك بعضهم أن تصله، فقلت له: (إنّ هذا المال ليس لي ولا لـك، وإنّمـا هـو فيء للمسـلمين وجلب أسـيافهم، فـإن شركتهم في حربهم كان لك مثـل حظّهم، وإلّا فجنـاة أيـديهم لا

---

[1] () ميزان الحكمة: ج 5، ص 612.

[2] () كنز العمال: خ 14950.

[3] () كنز العمال: خ 14955.

[4] () شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: 2/206.

تكون لغير أفواههم)[1]

وقد حفظ لنا التاريخ من كتبك ما أرسلته إلى بعض ولاتك تقول له فيه: (انظر إلى ما اجتمع عندك من مال اللّه، فاصرفه إلى من قبلك (عندك) من ذوي العيال والمجاعة، مصيبا به مواضع الفاقة والخلّات (الحاجات) وما فضل عن ذلك فاحمله إلينا لنقسمه فيمن قبلنا)[2]

وكتبت لآخر تقول: (بلغني عنك أمر، إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك، وعصيت إمامك: إنك تقسّم فيء المسلمين الذي حازته رماحهم وخيولهم، وأريقت عليه دماؤهم، فيمن اعتامك (اختارك) من أعراب قومك.. فو الذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، لئن كان ذلك حقّا لتجدنّ لك عليّ هوانا، ولتخفّن عندي ميزانا، فلا تستهن بحق ربّك، ولا تصلح دنياك بمحق دينك، فتكون من الأخسرين أعمالا.. ألا وإنّ حق من قبلك وقبلنا من المسلمين في قسمة هذا الفيء سواء يردّون عندي عليه، ويصدرون عنه)[3]

وكتبت إلى آخر تقول: (إني أقسم باللّه صادقا، لئن بلغني أنك خنت من فيء المسلمين شيئا صغيرا أو كبيرا لأشدنّ عليك شدّة تدعك قليل الوفر، ثقيل الظهر، ضئيل الأمر والسّلام)[4]

وقد كتبت إلى بعض عمالك تقول: (وإن عملك ليس لك بطعمة ولكنه في عنقك أمانة، وأنت مسترعى لمن فوقك. ليس لك أن تفتات في رعية، ولا تخاطر إلا بوثيقة، وفي يديك مال من مال الله عز وجل، وأنت من خزانه حتى تسلمه إلي، ولعلي ألا أكون شر ولاتك لك، والسلام)[5]

1() مناقب آل أبي طالب: ج 1، ص 312.

2() نهج البلاغة: الكتاب 62 ص 452.

3() نهج البلاغة: رسائل 43، زالتاريخ لابن واضح، ج 2، ص 190.

4() نهج البلاغة: رسائل 20.

5() نهج البلاغة: الكلام 224 ص 346.

بل إن الله تعلى ابتلاك في ذلك بأقرب الناس إليـك.. فقـد جاءك أخوك عقيل من المدينـة إلى الكوفـة، وقـال لـك: (تـأخّر العطـاء عنّـا، وغلاء السـعر ببلـدنا، وركبـني دين عظيم، فجئت لتصلني)، فقلت له: (و الله مـا لي ممـا تـرى شـيئا إلّا عطـائي، فإذا خرج فهو لك)، فقال: (أشخوصي من الحجاز إليك من أجل عطائك؟ وماذا يبلـغ مـني عطـاؤك؟! ومـا يـدفع من حـاجتي؟)، فقلت له: (هل تعلم لي مالا غيره؟ أم تريد أن يحرقني الله في نار جهنم في صلتك بأموال المسلمين؟ وما بقي من نفقتنـا في ينبع غير دراهم مضرورة. واللّه يا أخي إني لأستحي من الله أن يكون ذنب أعظم من عفوي أو جهل أعظم من حلمي، أو عورة لا يواريها ستري، أو خلّة لا يسدّها جودي)

فلما ألحّ عليك لم تملك إلا أن قلت لبعض من حضـر: (خـذ بيد أخي عقيل وانطلق به إلى حوانيت أهـل السـوق، فقـل لـه: دق هذه الأقفال. وخذ ما في هذه الحوانيت)

حينهـا قـال عقيـل: (أتـأمرني أن أكسـر صـناديق قـوم قـد توكّلــوا على اللــه وجعلــوا فيهــا أمــوالهم، أتريــد أن تتخــذني سارقا؟!)

فقلت له: (أتأمرني أن أفتح بيت مال المسـلمين فأعطيـك أمـوالهم، وقـد توكّلـوا على اللـه وأقفلـوا عليهـا، وأنت تريـد أن تتّخـذني سـارقا.. أن آخــذ من أمــوال المسـلمين، فأعطيكهـا دونهم)

ثم قلت لـه: (إن شـئت أخـذت سـيفي، وأخـذت سـيفك، وخرجنا جميعا إلى الحيرة فـإن بهـا تجّـارا مياسـير فـدخلنا على بعضهم فأخذنا ماله)، فقال عقيل: (أو سارقا جئت؟)، فقلت لـه: (تسرق من واحد خير لك من أن تسـرق من المسـلمين جميعا) (1)

حينها لم يملك عقيل إلا أن قال لـك: (و اللـه لأخـرجنّ إلى

---

1 () المناقب: ج2 ص108-109.

رجل هو أوصل لي منك.. لآتيّن معاوية)، فقلت له بكل هدوء وتؤدة: (أنت وذاك، راشدا مهديا)

وقد ذكر المؤرخون أنه لما قدم على معاوية، رحّب به وقال: (مرحبا وأهلا بك يا عقيل بن أبي طالب، ما أقدمك عليّ؟!)، فقال: (قدمت عليك لدين عظيم ركبني، فخرجت إلى أخي ليصلني فزعم أنه ليس له مما يلي إلّا عطاؤه، فلم يقع ذلك مني موقعا، ولم يسدّ مني مسدا، فأخبرته أني سأخرج إلى رجل هو أوصل منه لي، فجئتك)، فازداد معاوية فيه رغبة، وقال للناس: (يا أهل الشام هذا سيد قريش وابن سيّدها، عرف الذي فيه أخوه من الغواية والضلالة، فجاءني، ولكني أزعم أن جميع ما تحت يدي لي، فما أعطيت فقربة إلى اللّه، وما أمسكت فلا جناح لي عليه)، ثم قال لعقيل: (يا عقيل بن أبي طالب: هذه مائة ألف تقضي بها ديونك، ومائة ألف تصل بها رحمك، ومائة ألف توسّع بها على نفسك)

فوقف عقيل، فقال: (صدقت، لقد خرجت من عند أخي على هذا القول، وقد عرفت من في عسكره، لم أفقد والله رجلا من أهل بدر ولا المهاجرين والأنصار، ولا واللّه ما رأيت في معسكر معاوية رجلا من أصحاب النبي ﷺ.. أيها الناس، إني أردت أخي عليّا على دينه فاختار دينه، وإني أردت معاوية على دينه، فاختارني على دينه)[1]

وقد ذكرت ـ سيدي ـ بعض ما حصل بينك وبين أخيك عقيل في بعض خطبك، فقلت: (والله لقد رأيت عقيلا وقد أملق حتى استماحني من بركم صاعا، ورأيت صبيانه شعث الشعور، غبر الألوان من فقرهم، كأنما سودت وجوههم بالعظلم، وعاودني مؤكدا، وكرر علي القول مرددا، فأصغيت إليه سمعي، فظن أني أبيعه ديني، وأتبع قياده مفارقا طريقتي، فأحميت له حديدة، ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها، فضج ضجيج ذي دنف من ألمها، وكاد أن يحترق من ميسمها، فقلت له: ثكلتك الثواكل، يا عقيل أ تئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه، وتجرني

[1] () المرتضى: الأمالي ١/ ١٩٩، تاريخ مدينة دمشق ٤١/ ٢٢، شرح نهج البلاغة ٤/ ٩٢.

إلى نار سجرها جبارها لغضبه أتئن من الأذى ولا أئن من لظى وأعجب من ذلك طارق طرقنا بملفوفة في وعائها، ومعجونة شنئتها، كأنما عجنت بريق حية أو قيئها، فقلت: أصلة، أم زكاة، أم صدقة فذلك محرم علينا أهل البيت فقال، لا ذا ولا ذاك، ولكنها هدية. فقلت: هبلتك الهبول أعن دين الله أتيتني لتخدعني أمختبط أنت أم ذو جنة، أم تهجر والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها، على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته، وإن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها. ما لعلي ولنعيم يفنى، ولذة لا تبقى نعوذ بالله من سبات العقل، وقبح الزلل. وبه نستعين)([1])

الرحمة.. لا الشدة:

لم يكن كل ما سبق ــ سيدي ــ سوى نفحة من نفحات شخصك المليئ بالمكارم والمعاني السامية.. لكنها جميعا لا تساوي ما امتلأ به قلبك من رحمة.. فلذلك كان حكمك حكم رحمة، والرحمة فوق العدل.

لقد ورثت تلك الرحمة من رسول الله ﷺ الذي جعله الله رحمة للعالمين.. وعشت معه في صحبة المستضعفين تخدمهم، وتصبر على كل بلاء في صحبتهم، كما قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:28]

ولذلك كان أول أصحابك بعد رسول الله ﷺ هم أولئك المستضعفون.. وعندما توليت الحكم كنت معهم أيضا.. ووقفتم جميعا في وجه المستكبرين.

لقد كنت تعتبر العدل قاصرا إن لم يقف في وجه المظلومين والمتألمين والمستضعفين.. وكنت تقول: (أحسن العدل إعانة المظلوم)، وتقول: (إذا رأيت مظلوما فأعنه على الظالم)، وتقول: (ما من مؤمن يعين مؤمنا مظلوما، إلّا كان

([1]) نهج البلاغة: خطبة 216، ص 335.

أفضل من صيام شهر واعتكافه في المسجد الحرام، وما من مؤمن ينصر أخاه وهو يقدر على نصرته إلّا نصره الله في الدنيا والآخرة، وما من مؤمن يخذل أخاه وهو يقدر على نصرته إلّا خذله الله في الدنيا والآخرة)(1)

وقلت في وصيتك للحسن والحسين قبل استشهادك: (أوصيكما بتقوى اللّه، وأن لا تبغيا الدّنيا وإن بغتكما، ولا تأسفا على شيء منها زوي عنكما، وقولا بالحقّ، واعملا للأجر، وكونا للظّالم خصما، وللمظلوم عونا) (2)

وقلت لهم: (اللّه، اللّه في الأيتام! فلا تغبّوا أفواههم، ولا يضيعوا بحضرتكم.. واللّه، اللّه في جيرانكم! فإنّهم وصيّة نبيّكم، ما زال يوصي بهم حتّى ظننّا أنّه سيورّثهم.. واللّه، اللّه في القرآن! لا يسبقكم بالعمل به غيركم) (3)

وقد حذرتهم بشدة قبل استشهادك من أن يوقعوا العقوبة بمن لا يستحقها، فقلت: (يا بني عبد المطّلب، لا ألفينّكم تخوضون دماء المسلمين خوضا، تقولون: قتل أمير المؤمنين، ألا لا تقتلنّ بي إلّا قاتلي.. انظروا إذا أنا متّ من ضربته هذه، فاضربوه ضربة بضربة، ولا تمثّلوا بالرّجل؛ فإنّي سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: (إيّاكم والمثلة! ولو بالكلب العقور)

بل إنك تركت الأمر لأهلك، فإن شاءوا أن يعفوا عن القاتل فعلوا، وإن شاءوا القصاص فعلوا.. فقد قلت في وصيتك للحسنين: (إني مقبوض في ليلتي هذه ولا حق برسول اللّه ﷺ، فاسمعا قولي وعياه. أنت يا حسن، وصيّي والقائم بالأمر بعدي.. وأنت يا حسين، شريكه في الوصيّة، فأنصت ما نطق، وكن لأمره تابعا ما بقي، فإذا خرج من الدنيا فأنت الناطق بعده والقائم بالأمر.. وعليكما بتقوى اللّه، الذي لا ينجو إلّا من أطاعه، ولا يهلك إلّا من عصاه، واعتصما بحبله وهو الكتاب

1() ميزان الحكمة: ج 5، ص 615.

2() نهج البلاغة: الكتاب رقم(47)

3() نهج البلاغة: الكتاب رقم(47)

العزيز، الذي ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:42]) (1)

ثم قلت مخاطبا ابنك الحسن: (إنك وليّ الأمر بعدي، فإن عفوت عن قاتلي فذاك، وإن قتلت فضربة مكان ضربة، وإيّاك والمثلة! فإن رسول اللّه ﷺ نهى عنها ولو بكلب عقور.. واعلم أن الحسين وليّ الدم معك يجري فيه مجراك، وقد جعل اللّه تبارك وتعالى له على قاتلي سلطانا كما جعل لك، وإن ابن ملجم ضربني ضربة فلم تعمل فثنّاها فعملت؛ فإن عملت فيه ضربتك فذاك، وإلّا فمر أخاك الحسين وليضربه أخرى بحق ولايته، فإنها ستعمل فيه.. وإيّاك أن تقتل بي غير قاتلي؛ فإن اللّه عزّ وجل يقول: ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [الزمر:7])

وهكذا كان من وصاياك لبعض أصحابك قولك: (أنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك، ومن لك فيه هوى من رعيتك فإنك إن لم تفعل تظلم)(2)

ولهذا فقد كثرت وصاياك لولاتك وغيرهم برعاية المظلومين والمستضعفين، وقد كتبت في عهدك إلى مالك الأشتر: (ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان إمّا أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق. يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل، ويؤتي على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنك فوقهم ووليّ الأمر عليك فوقك، واللّه فوق من ولّاك)(3)

وقلت له: (إيّاك ومساماة الله في عظمته، والتشبّه به في جبروته، فإن الله يذلّ كل جبّار، ويهين كل مختال، وإيّاك والإعجاب بنفسك، والثقة بما يعجبك منها، وحبّ الإطراء، فإنّ ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه ليمحق ما يكون من

1() مستدرك نهج البلاغة للمحمودي: ج 2 ص 740- 743 الكتاب رقم(387) عن كتاب الدر النظيم: الورقة 127.

2() نهج البلاغة: الكتب، ص 53.

3() نهج البلاغة: الكتب، ص 53.

إحسان المحسنين)[1]

وقلت له فيه: (وليكن أبعد رعيتك منك، وأشنأهم عندك، أطلبهم لمعايب الناس فإن في الناس عيوبا، الوالي أحق من سترها، فلا تكشفن عما غاب عنك منها، فإنما عليك تطهير ما ظهر لك، والله يحكم على ما غاب عنك، فاستر العورة ما استطعت يستر الله منك ما تحب ستره من رعيتك. أطلق عن الناس عقدة كل حقد، واقطع عنك سبب كل وتر، وتغاب عن كل ما لا يضح لك، ولا تعجلن إلى تصديق ساع، فإن الساعي غاش، وإن تشبه بالناصحين) [2]

وقلت له فيه: (ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فإن في ذلك تزهيدا لأهل الإحسان في الإحسان، وتدريبا لأهل الإساءة على الإساءة وألزم كلا منهم ما ألزم نفسه. واعلم أنه ليس شيء بأدعى إلى حسن ظن راع برعيته من إحسانه إليهم، وتخفيفه المئونات عليهم، وترك استكراهه إياهم على ما ليس له قبلهم. فليكن منك في ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن برعيتك، فإن حسن الظن يقطع عنك نصبا طويلا. وإن أحق من حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك عنده، وإن أحق من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده) [3]

وقلت له فيه: (ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة، واجتمعت بها الألفة، وصلحت عليها الرعية. ولا تحدثن سنة تضر بشيء من ماضي تلك السنن، فيكون الأجر لمن سنها، والوزر عليك بما نقضت منها) [4]

إلى آخر كتابك له، والذي يمثل الفقه السياسي الإسلامي بأجمل صوره، وأرفع قيمه.

---

[1] () نهج البلاغة: الكتب، ص 53.

[2] () نهج البلاغة: الكتب، ص 53.

[3] () نهج البلاغة: الكتب، ص 53.

[4] () نهج البلاغة: الكتب، ص 53.

وهكذا كتبت لآخر تقـول: (إذا أحـدث لـك مـا أنت فيـه من سلطانك أبّهـة، أو مخيلـة، فـانظر إلى عظم ملـك اللـه فوقـك، وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك، فإنّ ذلـك يطـامن إليك من طماحك، ويكفّ عنك من غربك، ويفيء إليك بما غرب عنك من عقلك)[1]

وكتبت إلى آخر تقول: (أما بعـد، فـإن دهـاقين أهـل بلـدك شكوا منك غلظة وقسوة، واحتقارا وجفـوة، ونظـرت فلم أرهم أهلا لأن يدنوا لشركهم، ولا أن يقصوا ويجفـوا لعهـدهم، فـالبس لهم جلبابا من اللين تشوبه بطـرف من الشـدة، وداول لهم بين القسـوة والرأفـة، وامـزج لهم بين التقـريب والإدنـاء، والإبعـاد والإقصاء)[2]

وكتبت إلى آخر تقول: (فدع الإسراف مقتصدا، واذكــر في اليوم غدا، وأمسك من المال بقدر ضرورتك، وقدم الفضل ليوم حاجتك. أ ترجو أن يعطيك الله أجر المتواضعين وأنت عنـده من المتكـبرين وتطمـع- وأنت متمـرغ في النعيم، تمنعـه الضـعيف والأرملة- أن يوجب لك ثواب المتصـدقين وإنمـا المـرء مجـزي بما أسلف وقادم على ما قدم، والسلام)[3]

وكتبت إلى آخر تقول: (أمـا بعـد، فإنـك ممن أسـتظهر بـه على إقامة الدين، وأقمع بـه نخـوة الأثيم، وأسـد بـه لهـاة الثغـر المخوف. فاستعن بالله على ما أهمـك، واخلـط الشـدة بضـغث من اللين، وارفق ما كان الرفق أرفق، واعـتزم بالشـدة حين لا تغـني عنـك إلا الشـدة، واخفض للرعيـة جناحـك، وابسـط لهم وجهــك، وألن لهم جانبــك، وآس بينهم في اللحظــة والنظــرة، والإشارة والتحية، حتى لا يطمع العظمـاء في حيفـك، ولا ييـأس الضعفاء من عدلك، والسلام)[4]

1() نهج البلاغة: الكتب، ص 53.

2() نهج البلاغة: الكتاب5 ص 366.

3() نهج البلاغة: الكتاب20 ص 377.

4() نهج البلاغة: الكتاب21 ص 377.

ولهذا كنت تنهى عمالك أن يحتجبوا عن رعيتهم، أو يضـعوا العوائـق بينهم وبين الوصـول إليهم، وقـد كتبت في عهـدك إلى مالك الأشتر تقول: (أما بعد.. فلا تطـولن احتجابـك عن رعيتـك، فـإنّ احتجـاب الـولاة عن الرّعيـة شـعبة من الضّـيق وقلّـة علم بـالأمور، والاحتجـاب منهم يقطـع عنهم علم مـا احتجبـوا دونـه فيصغر عندهم الكبير، ويعظم الصغير، ويقبح الحسـن، ويحسـن القبيح، ويشاب الحق بالباطل، وإنمـا الـوالي بشـر لا يعـرف مـا تواري عنه النـاس بـه من الأمـور، وليسـت على الحـق سـمات تعرف بها ضروب الصدق من الكذب. وإنما أنت أحد رجلين: إمّا امرؤ سخت نفسك بالبذل في الحـق، ففيم احتجابـك من واجب حقّ تعطيه، أو فعل كريم تسـديه، أو مبتلى بـالمنع، فمـا أسـرع كـفّ النـاس عن مسـألتك إذا أيسـوا من بـذلك! مـع أن أكـثر حاجات الناس إليك مما لا مؤونة فيه عليك من شـكاة مظلمـة، أو طلب إنصاف في معاملة)[1]

وكتبت إلى آخر تقـول: (ولا يكن لـك إلى النـاس سـفير إلّا لسانك، ولا حاجب إلّا وجهك، ولا تحجبنّ ذا حاجة عن لقائك بها، فإنها إن زيدت عن أبوابـك في أول وردهـا، لم تحمـد فيمـا بعـد على قضائها)[2]

هذه بعض تجليات عـدلك، كمـا حفظتـه لنـا الـدواوين، وإلا فإنـه يسـتحيل على أي كـان أن يسـجل حقيقتـه، وكيـف يطيـق ذلك.. وأنت القرآن الناطق.. وأنت تربية رسول اللـه ﷺ.. وأنت الصراط المستقيم.

1() نهج البلاغة: الكتب، ص 53.

2() مستدرك الوسائل: ج 2، ص 144.

التقي الورع

سيدي أمير المؤمنين.. وحبيب الله ورسوله..

ألقابك كثيرة.. وأحبها إلى نفسي ذلك اللقب الذي عــرفت به.. والذي آثره الكاتب الكبـير عبـد الـرحمن الشـرقاوي.. حين سمى كتابه عنك [علي إمام المتقين].. فأنت ـ سيدي ــ حقيقـة لا زورا إمام المتقين ظاهرا باطنا..

لقد نلت هذه الخصلة العظيمـة من صـحبتك لرسـول اللـه ﷺ، وتلمـذتك الطويلـة على يديـه.. ومن البيئـة الطـاهرة الـتي ولدت فيها.. ومن الجبلة الطيبـة الـتي جبلت عليهـا.. ومن حبـك للقرآن الكـريم، وفنائـك في حقائقـه القدسـية.. ولـذلك صـرت معـبرا عن معانيـه.. بـل صـرت قرآنـا ناطقـا تنطـق حركاتـك وسكناتك بأخلاقه وآدابه وقيمه.

ولذلك كنت تـدعو كـل حين إلى التقـوى.. فلا تخلـو خطبـة من خطبـك من التعريـف بهـا، وبأهميتهـا، وكيفيـة التحقـق بهـا، وبمصير أهلها.. فلا تزال في أذني يتردد صدى قولـك: (أوصـيكم عباد اللّه بتقوى اللّه، فإنّها الزّمام والقـوام، فتمسّـكوا بوثائقهـا، واعتصموا بحقائقها، تؤل بكم إلى أكنان الدّعة، وأوطان السّعة، ومعاقل الحـرز، ومنـازل العـزّ، في يـوم تشـخص فيـه الأبصـار، وتظلم لــه الأقطــار، وتعطّــل فيــه صــروم العشــار، وينفخ في الصّــور، فــتزهق كــلّ مهجــة، وتبكم كــلّ لهجــة، وتــذلّ الشّــمّ الشّــوامخ، والصّــمّ الرّواســخ، فيصــير صــلدها ســرابا رقرقــا، ومعهــدها قاعــا ســملقا، فلا شــفيع يشــفع، ولا حميم ينفــع، ولا معذرة تدفع)[1]

ولا يزال يتردد في أذني صدى قولك: (إنّ تقوى اللّه مفتاح سداد، وذخيرة معاد، وعتق من كلّ ملكة، ونجاة من كـلّ هلكـة، بهـا ينجح الطّـالب، وينجـو الهـارب، وتنـال الرّغـائب، فـاعملوا والعمـل يرفـع، والتّوبـة تنفـع، والـدّعاء يسـمع، والحـال هادئـة،

[1] () نهج البلاغة: الخطبة رقم(195)

والأقلام جارية.. وبادروا بالأعمال عمرا ناكسا، أو مرضا حابسا، أو موتا خالسا، فإنّ الموت هادم لذّاتكم، ومكدّر شهواتكم، ومباعد طيّاتكم، زائر غير محبوب، وقرن غير مغلوب، وواتر غير مطلوب. قد أعلقتكم حبائله، وتكنّفتكم غوائله، وأقصدتكم معابله، وعظمت فيكم سطوته، وتتابعت عليكم عدوته، وقلّت عنكم نبوته، فيوشك أن تغشاكم دواجي ظلله، واحتدام علله، وحنادس غمراته، وغواشي سكراته، وأليم إرهاقه، ودجوّ أطباقه، وجشوبة مذاقه. فكأن قد أتاكم بغتة، فأسكت نجيّكم، وفرّق نديّكم، وعفّى آثاركم، وعطّل دياركم، وبعث ورّاثكم يقتسمون تراثكم، بين حميم خاصّ لم ينفع، وقريب محزون لم يمنع، وآخر شامت لم يجزع) [1]

ومع كل تلك الخطب الكثيرة الممتلئة بالمعاني، لا أزال أتذكر ما حييت ذلك اليوم الذي وقف فيه صاحبك المخلص الصادق همام بن عبادة[2]، وطلب منك أن تحدثه عن صفات المتقين بعد أن رآك تكثر الحديث عنهم.. وقال لك: (يا أمير المؤمنين، صف لي المتّقين حتّى كأنّي أنظر إليهم؟)[3]

لقد كان سؤالا مهما جدا في ذلك الواقع.. وفي كل الواقع.. ذلك أن المتقين هم الصفوة الخالصة التي أرادها الله من عباده.. وقد تعرضوا لتشويه كبير.. فالكل صار يدعيها لنفسه ولمذهبه وطائفته.. فلذلك احتاجت إلى تحديد دقيق ليتميز الصافي من المزيف، والحقيقي من الوهمي.

لقد كنت تعرف صاحبك هماما.. وتعرف مدى تقواه وصلاحه وصدقه.. وتعرف فوق ذلك كله همته العلية.. وتعرف فوق ذلك كله حساسيته الشديدة عند سماع المواعظ المؤثرة.. فاكتفيت بأن قلت له: (يا همّام، اتّق اللّه وأحسن فـ ﴿إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل:128])

[1] () نهج البلاغة: الخطبة رقم(230)

[2] () هو همام بن عبادة بن خيثم، وهو من الصادقين المشهورين بحبهم وموالتهم للإمام علي، وقد توفي في عهده بين عام 37 هجرية الى عام 40.

[3] () نهج البلاغة: الخطبة رقم(193)

لكن هماما لم تقنعه هذه الإجابة.. فراح يلح عليك أن تصفهم له وصفا دقيقا يحيط بهم من كل الجوانب، وينفي كل التحريفات والتلبيسات التي أصابت التقوى وأهلها.

حينها أخذت ـ بما آتاك الله من بلاغة وبيان ـ تريه مشاهد المتقين حية متحركة، ولم تكن تصف في الحقيقة إلا نفسك.. فلم تكن تلك المشاهد إلا تعبيرا حيا عنك، وعن شخصيتك الفذة، ونفسك الطاهرة، وروحك السامية.

عبودية المتقين:

لقد بدأت خطبتك سيدي بالحقائق العرفانية الممتلئة بالعبودية.. فأول صفة في المتقين هي عبوديتهم الخالصة لله، وافتقارهم التام إليه، ومعرفتهم بأن الله أغنى الأغنياء.. فلا تنفعه طاعة من أطاعه، ولا تضره معصية من عصاه..

لقد قلت له: (إنّ اللّه سبحانه وتعالى خلق الخلق- حين خلقهم- غنيّا عن طاعتهم، آمنا من معصيتهم، لأنّه لا تضرّه معصية من عصاه، ولا تنفعه طاعة من أطاعه، فقسم بينهم معايشهم، ووضعهم من الدّنيا مواضعهم) [1]

ثم رحت سيدي تحلل صفاتهم وشخصيتهم من خلال تربية رسول الله ﷺ لك، ومن خلال تدبرك للقرآن الكريم.. فقلت له ـ بعبارات جامعة ـ: (فالمتّقون فيها هم أهل الفضائل: منطقهم الصّواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيهم التّواضع، غضّوا أبصارهم عمّا حرّم اللّه عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النّافع لهم، نزّلت أنفسهم منهم في البلاء كالّتي نزّلت في الرّخاء، ولو لا الأجل الّذي كتب اللّه عليهم، لم تستقرّ أرواحهم في أجسادهم طرفة عين، شوقا إلى الثّواب، وخوفا من العقاب) [2]

هذه أول صفات المتقين.. وهي سعيهم وراء الفضائل.. ومسارعتهم لتحصيلها كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ

---

[1] () نهج البلاغة: الخطبة رقم(193)

[2] () نهج البلاغة: الخطبة رقم(193)

مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ [آل عمران:133]، ولذلك فإنهم يعمرون كل جارحة من جوارحهم بطاعة الله تعالى.. فكلامهم ذكر.. وصمتهم فكر.. ولباسهم لباس المقتصدين، لا المترفين.. ومشيهم مشي المتواضعين، لا المختالين.. وآذانهم لا تسمع غيبة ولا نميمة.. وإنما أوقفوها على طلب العالم النافع.. وهممهم تطير بهم إلى العالم الآخر.. لا رغبة لها في الدنيا، ولا تثاقل منها إليها.

ثم ذكرت المحرك لكل تلك الكمالات.. فقلت: (عظم الخالق في أنفسهم، فصغر ما دونه في أعينهم،، فهم والجنّة كمن قد رآها، فهم فيها منعّمون، وهم والنّار كمن قد رآها، فهم فيها معذّبون)[1]

هذه هي الدوافع الكبرى التي حركت فيهم كل تلك الكمالات.. وأولها تعظيم الله، والذي تنشأ عنه كل المعارف والمواجيد الإيمانية التي تجعل المتقي لا يرمي من كل عمل يعمله إلا الله، والتقرب إليه.. وهو لذلك يعيش في صحبته، مكتفيا به، راضيا عنه، مطمئنا إليه، متيقنا بما عنده.

لقد ذكرت سيدي هذا الدافع العظيم كثيرا، واعتبرته الأصل، بل اعتبرت صاحبه حرا من كل غرض، فذكرت عند تصنيفك لأنواع العباد: (أن قوماً عبدوا الله رغبةً، فتلك عبادة التجار، وأن قوماً عبدوا الله رهبة، فتلك عبادة العبيد، وأن قوماً عبدوا الله شكراً، فتلك عبادة الأحرار)[2]

وفي دعائك المشهور الذي لا يزال محبوك يرددونه كل حين قلت: (يا إلهي وربّي، وسيّدي ومولاي، لأيّ الأمور إليك أشكو، ولم منها أضجّ وأبكي؟ لأليم العذاب وشدّته، أم لطول البلاء ومدّته؟ فلئن صيّرتني للعقوبات مع أعدائك، وجمعت بيني وبين أهل بلائك، وفرّقت بيني وبين أحبّائك وأوليائك، فهبني يا إلهي وسيّدي، ومولاي وربّي، صبرت على عذابك، فكيف أصبر

1() نهج البلاغة: الخطبة رقم(193)

2() تذكرة الخواص لبسط ابن الجوزي ص144..

على فراقك؟ وهبني يا إلهي صبرت على حرّ نارك، فكيف أصبر عن النظـر إلى كرامتـك؟ أم كيـف أسـكن في النـار ورجـائي عفوك؟ فبعزتك يـا سـيدي ومـولاي أقسـم صـادقا، لئن تركتـني ناطقا، لأضجّنّ إليك بين أهلهـا ضـجيج الآملين، ولأصـرخنّ إليـك صراخ المستصرخين، ولأبكينّ إليك بكاء الفاقدين، ولأناديتّك أين كنت يـا وليّ المؤمـنين، يـا غايـة آمـال العـارفين، يـا غيـاث المستغيثين، يا حبيب قلوب الصادقين، ويا إله العالمين؟)(1)

ولكن ذلك لا يعني تجاهل المتقين لما رغبهم اللـه فيـه من الجنـة، ولا لمـا رهبهم منـه من النـار.. ولـذلك لا تـراهم يـأبهون للـدنيا، لأنهم يعيشـون الآخـرة، فهم كمن دخـل الجنـة ورأى نعيمها، فهم ساعون جهـدهم لتحصـيله.. وهم كمن دخـل النـار، ورأى عذابها، فهم يفرون منها بفرارهم من معاصي الله.

لقد كنت تردد ذلك مرارا، لتملأ القلوب وجلا وهيبـة ورغبـة ورهبة.. وتملأ الجوارح بعدها حركة وتأثرا وتفاعلا..

ومن كلماتك التي وصلتنا، والـتي لا نـزال نسـمعها ونتـأدب بآدابها، قولك: (أيّها النّاس، اتّقوا اللّه الّـذي إن قلتم سـمع، وإن أضمرتم علم، وبادروا الموت الّذي إن هـربتم منـه أدرككم، وإن أقمتم أخذكم، وإن نسيتموه ذكركم)(2)

ومنهـا قولـك في خطبتـك في أول خلافتـك: (الفـرائض، الفرائض! أدّوها إلى اللّه تؤدّكم إلى الجنّة، إنّ اللّه حـرّم حرامـا غير مجهول، وأحـلّ حلالا غـير مـدخول، وفضّـل حرمـة المسـلم على الحرم كلّها، وشدّ بالإخلاص والتّوحيد حقوق المسلمين في معاقـدها، فالمسـلم من سـلم المسـلمون من لسـانه ويـده إلّا بالحقّ، ولا يحلّ أذى المسـلم إلّا بمـا يجب.. بـادروا أمـر العامّـة وخاصّة أحدكم وهو الموت، فـإنّ النّـاس أمـامكم، وإنّ السّـاعة تحدوكم من خلفكم، تخفّفوا تلحقوا، فإنّما ينتظر بأوّلكم آخركم)(3)

1() وهو جزء من دعاء له معروف بدعاء (كميل)، انظر: مستدرك نهج البلاغة للمحمودي: ج 6 ص 148- 161 .

2() نهج البلاغة: الحكمة(203)

ومنها قولك في هذه الخطبة البليغة: (عباد اللّه، أوصيكم بتقوى اللّه، فإنّها حقّ اللّه عليكم، والموجبة على اللّه حقّكم، وأن تستعينوا عليها باللّه، وتستعينوا بها على اللّه، فإنّ التّقوى في اليوم الحرز والجنّة، وفي غد الطّريق إلى الجنّة، مسلكها واضح، وسالكها رابح، ومستودعها حافظ، لم تبرح عارضة نفسها على الأمم الماضين منكم، والغابرين لحاجتهم إليها غدا، إذا أعاد اللّه ما أبدى، وأخذ ما أعطى، وسأل عمّا أسدى، فما أقلّ من قبلها، وحملها حقّ حملها، أولئك الأقلّون عددا، وهم أهل صفة اللّه سبحانه، إذ يقول: {وقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ} [سبأ: 13]

فأهطعوا بأسماعكم إليها، وألظّوا بجدّكم عليها، واعتاضوها من كلّ سلف خلفا، ومن كلّ مخالف موافقا، أيقظوا بها نومكم، واقطعوا بها يومكم، وأشعروها قلوبكم، وارحضوا بها ذنوبكم، وداووا بها الأسقام، وبادروا بها الحمام، واعتبروا بمن أضاعها، ولا يعتبرنّ بكم من أطاعها..ألا فصونوها وتصوّنوا بها، وكونوا عن الدّنيا نزّاها، وإلى الآخرة ولّاها، ولا تضعوا من رفعته التّقوى، ولا ترفعوا من رفعته الدّنيا، ولا تشيموا بارقها، ولا تسمعوا ناطقها، ولا تجيبوا ناعقها، ولا تستضيؤوا بإشراقها، ولا تفتنوا بأعلاقها، فإنّ برقها خالب، ونطقها كاذب، وأموالها محروبة، وأعلاقها مسلوبة.. ألا وهي المتصدّية العنون، والجامحة الحرون، والمائنة الخؤون، والجحود الكنود، والعنود الصّدود، والحيود الميود، حالها انتقال، ووطأتها زلزال، وعزّها ذلّ، وجدّها هزل، وعلوها سفل)[1]

عبادة المتقين:

ثم ذكرت علامات هؤلاء المتقين، فقلت: (قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة، وحاجاتهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة، صبروا أيّاما قصيرة، أعقبتهم راحة طويلة،

3() نهج البلاغة: الخطبة رقم(167)

1() نهج البلاغة: الخطبة رقم(191).

تجـارة مربحـة يسّـرها لهم ربّهم، أرادتهم الـدّنيا فلم يريـدوها، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها)(1)

وهـذا وصـف طـبيعي لمن امتلأ قلبـه بتعظيم اللـه، وعظم شوقه للجنة، وما فيها من نعيم، وعظمت رهبتـه من النـار، ومـا فيها من العذاب والحجاب.. فلا يمكن لقلب وعى تلك الحقـائق، وعاشـها، وشـاهدها رأي العين، أن يسـتقر قلبـه أو يتثاقـل لأي متاع من متـاع الـدنيا.. بـل قلبـه دائمـا في حركـة وشـوق وألم وحزن، تتجاذبه جميعا لتملأه بالمكارم.

وبمــا أن الجســد تبـع للقلب.. فـإن جســد المتقين جســد نحيف.. لأنه لا يأكل من الدنيا إلا ما اضطر إليـه.. فحاجاتـه فيهـا خفيفة، ونفسه عفيفة..

لقد ذكرت ذلك عن نفسك ـ سيدي ـ عندما لاحظـوا عليـك ذلك الزهد الشديد في متاع الـدنيا، وأنت أمـير المؤمـنين، وبين يديك خزائن الأموال، فقلت لهم: (أأقنـع من نفسـي بـأن يقـال: هذا أمـير المؤمـنين، ولا أشـاركهم في مكـاره الـدّهر؟ أو أكـون أســوة لهم في جشــوبة العيش، فمــا خلقت ليشــغلني أكــل الطّيّبات، كالبهيمة المربوطة همّهـا علفهـا، أو المرسـلة شـغلها تقمّمها، تكترش من أعلافها وتلهو عمّا يراد بهـا، أو أتـرك سـدى أو أهمل عابثا، أو أجرّ حبل الضّلالة، أو أعتسف طريق المتاهة.. وكأنّي بقائلكم يقـول: إذا كـان هـذا قـوت ابن أبي طـالب، فقـد قعد به الضّعف عن قتال الأقـران، ومنازلـة الشّـجعان؟! ألا وإنّ الشّـجرة البرّيّـة أصـلب عـودا، والرّواتـع الخضـرة أرقّ جلـودا، والنّابتات العذية أقوى وقودا، وأبطأ خمودا!)(2)

ثم أخذت ـ سيدي ــ تصـف ليـل المتقين، وكيـف يعمرونـه بطاعة الله، فقلت: (أمّا اللّيل فصافّون أقـدامهم، تـالين لأجـزاء القرآن، يرتّلونها ترتيلا، يحزنون به أنفسهم، ويستثيرون بــه دواء دائهم، فإذا مرّوا بآية فيها تشـويق ركنـوا إليهـا طمعـا، وتطلّعت

1() نهج البلاغة: الخطبة رقم(193)

2() نهج البلاغة: الكتاب رقم(45)

نفوسهم إليها شوقا، وظنّوا أنّها نصب أعينهم، وإذا مرّوا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنّوا أنّ زفير جهنّم وشهيقها في أصول آذانهم، فهم حانون على أوساطهم، مفترشون لجباههم وأكفّهم، وركبهم وأطراف أقدامهم، يطلبون إلى اللّه تعالى في فكاك رقابهم)[1]

وهذا الوصف في الحقيقة لم يكن وصفا إلا لليك وليل الصادقين من أصحاب رسول الله الممتلئ بالعبادة.. والذين وصفتهم وصفا بليغا في خطبة من خطبك، فقلت: (لقد رأيت أصحاب محمّد ﷺ، فما أرى أحدا يشبههم منكم! لقد كانوا يصبحون شعثا غبرا، وقد باتوا سجّدا وقياما، يراوحون بين جباههم وخدودهم، ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم! كأنّ بين أعينهم ركب المعزى من طول سجودهم! إذا ذكر اللّه هملت أعينهم حتّى تبلّ جيوبهم، ومادوا كما يميد الشّجر يوم الرّيح العاصف، خوفا من العقاب، ورجاء للثّواب)[2]

وقد وصف أبو الدرداء بعض ما رأى من عبادتك، فقال: (شهدت علي بن أبي طالب بشويحطات النجار، وقد اعتزل عن مواليه، واختفى ممن يليه، واستتر بمغيلات النخل، فافتقدته، وبعد عن مكانه، فقلت الحق بمنزله فإذا أنا بصوت حزين ونغم شجي، وهو يقول: (إلهي كم من موبقة حملت عن مقابلتها بنقمتك، وكم من جريرة تكرمت عن كشفها بكرمك.. إلهي إن طال في عصيانك عمري، وعظم في الصحف ذنبي، فما أنا مؤمل غير غفرانك، ولا أنا براج غير رضوانك).. فشغلني الصوت، واقتفيت الأثر، فإذا هو علي بن أبي طالب بعينه، فاستترت له وأخملت الحركة، فركع ركعات في جوف الليل الغامر، ثم فرغ إلى الدعاء والبكاء، والبث والشكوى، فكان مما ناجى به الله تعالى أن قال: (إلهي أفكر في عفوك، فتهون علي خطيئتي، ثم أذكر العظيم من أخذك، فتعظم علي بليتي)، ثم قال (آه إن أنا قرأت في الصحف سيئة أنا ناسيها، وأنت

---

[1] () نهج البلاغة: الخطبة رقم(193)

[2] () نهج البلاغة: الخطبة رقم(97)

محصيها، فتقول: خذوه، فيا له من مأخوذ لاتنجيه عشيرته، ولا تنفعه قبيلته ولا يرحمه الملأ إذا أذن فيه بالنداء)، ثم قال (آه من نار تنضج الأكباد والكلى، آه من نار نزاعة للشوى، آه من لهبات لظى)، ثم أمعن في البكاء(1).

وحدث صاحبك نوف البكالى قال: (بت ليلة عند أمير المؤمنين، فكان يصلي الليل كله، ويخرج ساعة بعد ساعة، فينظر إلى السماء، ويتلو القرآن، فمر بي بعد هدوء من الليل فقال: يا نوف أراقد أنت أم رامق؟ قلت: بل رامق أرمقك ببصري يا أمير المؤمنين.. قال: يا نوف طوبى للزاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة، أولئك الذين اتخذوا الأرض بساطاً، وترابها فراشاً، وماءها طيباً، والقرآن دثاراً، والدعاء شعاراً، وقرضوا من الدنيا تقريضاً على منهاج عيسى بن مريم..)(2)

أما قيام الليل، فقد حدثت عن نفسك قلت: (ما تركت صلاة الليل منذ سمعت قول النبي ﷺ: (صلاة الليل نور)، فقال ابن الكواء: ولا ليلة الهرير!؟ فقلت: (ولا ليلة الهرير)(3)

ثم رحت ـ سيدي ـ تصف نهار المتقين، وهو نهار ممتلئ بالحياة والإيجابية والتأثير، فقلت: (وأمّا النّهار فحلماء علماء، أبرار أتقياء، قد براهم الخوف بري القداح، ينظر إليهم النّاظر فيحسبهم مرضى، وما بالقوم من مرض، ويقول: لقد خولطوا، ولقد خالطهم أمر عظيم. لا يرضون من أعمالهم القليل، ولا يستكثرون الكثير، فهم لأنفسهم متّهمون، ومن أعمالهم مشفقون، إذا زكّي أحد منهم، خاف ممّا يقال له، فيقول: أنا أعلم بنفسي من غيري، وربّي أعلم بي منّي بنفسي، اللّهمّ لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني أفضل ممّا يظنّون، واغفر لي ما لا يعلمون) (4)

1() مناقب آل أبي طالب ج1 ص389..

2() نهج البلاغة باب الحكم رقم 104.

3() البحار ج41 ص17.

4() نهج البلاغة: الخطبة رقم(193)

لا يمكنني ـ سيدي ـ أن أعبر عن مقاصد كل كلمة من هذه الكلمـات، فكـل كلمـة منهـا بحـر من بحـار العلم.. وفيض من فيوضات الحكمة.. بل هي ترجمـة لمـا ورد في القـرآن الكـريم من أوصـف عبـاد اللـه الممتلـئين بالتواضـع، كمـا قـال تعـالى: ﴿وَعِبَادُ الـرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُـونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًـا وَإِذَا خَـاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَـانَ غَرَامًا (65)﴾ [الفرقان:63-65]

قوة المتقين:

ثم رحت ـ سـيدي ــ تصـحح تلـك المفـاهيم الخاطئـة الـتي تصور المتقين بصورة الضعفاء الـذين لا أثـر لهم في الحيـاة ولا تأثير.. فقلت: (فمن علامة أحدهم: أنّـك تـرى لـه قـوّة في دين، وحزما في لين، وإيمانـا في يقين، وحرصـا في علم، وعلمـا في حلم، وقصدا في غـنى، وخشـوعا في عبـادة، وتجمّلا في فاقـة، وصبرا في شدّة، وطلبـا في حلال، ونشـاطا في هـدى، وتحرّجـا عن طمع) [1]

الله.. الله.. ما كل هذه الحكمة.. وهل يطيق أي لسـان أن يشرحها، ويعبر عن الحقائق العظيمة التي تختزنها؟

إنهـــا كتـــاب كامـــل في الســـلوك والتـــوازن والتربيـــة.. فالشخصية المسلمة تجمع القوة بجميع معانيهـا.. قـوة الـدين.. وقوة الإيمان.. وقوة العلم.. وقوة الأخلاق.. وقوة التأثير.

إن حــديثك هــذا هــو أحســن شــرح وبيــان لقولــه تعــالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْـتَطَعْتُم مِّن قُـوَّةٍ ﴾ [الأنفـال:60]، فـالقوة في الآية الكريمة لا تعني قوة الجسد فقط.. بل تعني قوة الروح والعقـل والنفس وكل الملكات التي وهبها الله الإنسان.

وحديثك هذا شرح وتفسير وتطبيق لقولـه ﷺ: (المـؤمن القـوي خير وأحب إلى اللـه من المـؤمن الضـعيف، وفي كـل خـير، احْـرِصْ على ما يَنْفَعُكَ واسْتَعِنْ بِالله ولا تَعْجِزْ، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو

[1] () نهج البلاغة: الخطبة رقم(193)

أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَّرَ الله وما شاء فَعَلَ، فـإنَّ لَـوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشيطان)(1)

وقد كنت ـ سيدي ـ رمزا ومثالا لهذه القوة العجيبة التي اجتمـع لها كل أنواع القوى.. فقد كنت عالمـا حكيمـا حليمـا زاهـدا.. صـاحب تؤدة وأناة.. وكنت في نفس الوقت شجاعا بطلا يهابك الفرسان، ولا يقدرون على مواجهتك..

ثم رحت سـيدي تفصـل نـواحي القـوة في الشخصـية المسلمة، فـذكرت أن صـاحبها (يعمـل الأعمـال الصّـالحة، وهـو على وجل، يمسـي وهمّـه الشّـكر، ويصـبح وهمّـه الـذّكر، يـبيت حذرا، ويصبح فرحا، حذرا لما حذّر من الغفلة، وفرحا بما أصـاب من الفضل والرّحمة، إن استصعبت عليه نفسه فيمـا تكـره، لم يعطها سؤلها فيما تحبّ، قرّة عينه فيما لا يزول، وزهادتـه فيمـا لا يبقى) (2)

وهذا نفسه وصف اللـه تعـالى للمتقين، فقـد قـال تعـالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَـةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُـون﴾ [المؤمنون:60]

وقد كان هذا هو قلبك ـ سيدي ـ فمع كل أعمالك الصالحة التي تنـوء بهـا الجبـال، كنت تـردد: (اللّهمّ إنّي أسـألك سـؤال خاضـع متذلّل خاشع، أن تسامحني وترحمني، وتجعلني بقسـمك راضـيا قانعا، وفي جميع الأحوال متواضـعا.. اللّهمّ وأسـألك سـؤال من اشتدّت فاقته، وأنزل بك عند الشدائد حاجته، وعظم فيما عندك رغبته.. اللّهمّ عظم سلطانك، وعلا مكانك، وخفي مكرك، وظهر أمـرك، وغلب قهـرك، وجـرت قـدرتك، ولا يمكن الفـرار من حكومتك.. اللّهمّ لا أجد لـذنوبي غـافرا، ولا لقبـائحي سـاترا، ولا لشيء من عملي القـبيح بالحسـن مبـدّلا غـيرك، لا إلـه إلّا أنت، سبحانك وبحمدك، ظلمت نفسي، وتجرّأت بجهلي، وسكنت إلى قديم ذكرك لي، ومنّك عليّ.. اللّهمّ مولاي، كم من قبيح سترته، وكم من فـادح من البلاء أقلتـه، وكم من عثـار وقيتـه، وكم من

1() رواه مسلم (2664).

2() نهج البلاغة: الخطبة رقم(193)

مكروه دفعته، وكم من ثناء جميل لست أهلا لـه نشـرته.. اللّهمّ عظم بلائي، وأفـرط بي سـوء حـالي، وقصـرت بي أعمـالي، وقعـدت بي أغلالي، وحبسـني عن نفعي بعـد آمـالي، وخـدعتني الدنيا بغرورها، ونفسـي بجنايتهـا، ومطـالي يـا سـيدي، فأسـألك بعزتك ألّا يحجب عنك دعائي سوء عملي وفعالي، ولا تفضـحني بخفيّ ما اطّلعت عليه من سرّي، ولا تعاجلني بالعقوبـة على مـا عملته في خلـواتي، من سـوء فعلي وإسـاءتي، ودوام تفـريطي وجهالتي، وكثرة شهواتي وغفلتي، وكن اللّهمّ بعزتك لي في كلّ الأحوال رءوفا، وعليّ في جميع الأمور عطوفا)(1)

سلوك المتقين:

ثم رحت ـ سيدي ـ تبين من علامات المتقين ذلك السـلوك الرفيع الذي يسلكونه مع نفوسـهم أو مـع النـاس.. وهـو سـلوك في قمـة قمم الأدب والروحانيـة والتسـامي.. فـالمتقي ــ كمـا تصوره ـ هو من (يمزج الحلم بالعلم، والقول بالعمل، تراه قريبا أمله، قليلا زلـلـه، خاشعا قلبه، قانعة نفسه، منزورا أكله، سـهلا أمره، حريـزا دينـه، ميّتـة شـهوته، مكظومـا غيظـه، الخـير منـه مـأمول، والشّـرّ منـه مـأمون، إن كـان في الغـافلين كتب في الذّاكرين، وإن كان في الذّاكرين لم يكتب من الغافلين) (2)

وهو في سلوكه الاجتماعي مع النـاس (يعفـو عمّن ظلمـه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه، بعيـدا فحشـه، ليّنـا قولـه، غائبـا منكـره، حاضـرا معروفـه، مقبلا خـيره، مـدبرا شـرّه، في الزّلازل وقور، وفي المكاره صبور، وفي الرّخاء شكور، لا يحيف على من يبغض، ولا يـأثم فيمن يحبّ، يعـترف بـالحقّ قبـل أن يشهد عليه) (3)

وهو بعيد عن كل تلك الرذائل التي يقع فيها غيره، فهـو (لا يضيع مـا اسـتحفظ، ولا ينسـى مـا ذكّـر، ولا ينـابز بالألقـاب، ولا

1() وهو جزء من دعاء له معروف بدعاء (كميل)، انظر: مستدرك نهج البلاغة للمحمودي: ج 6 ص 148- 161 .

2() نهج البلاغة: الخطبة رقم(193)

3() نهج البلاغة: الخطبة رقم(193)

يضارّ بالجار، ولا يشمت بالمصائب، ولا يدخل في الباطل، ولا يخرج من الحقّ، إن صمت لم يغمّه صمته، وإن ضحك لم يعل صوته، وإن بغي عليه صبر حتّى يكون اللّه هو الّذي ينتقم له) (1)

أما نفسه فهي (منه في عناء، والنّاس منه في راحة، أتعب نفسه لآخرته، وأراح النّاس من نفسه، بعده عمّن تباعد عنه زهد ونزاهة، ودنوّه ممّن دنا منه لين ورحمة، ليس تباعده بكبر وعظمة، ولا دنوّه بمكر وخديعة) (2)

وهكذا كان سلوكك سيدي.. فأنت لم تكن تصف سوى شخصيتك النبيلة الممتلئة بالمكارم.. لقد حدثنا المؤرخون أنك كنت بعد أن تصلي الفجر تظل تذكر الله إلى أن تطلع الشمس، فإذا طلعت اجتمع إليك الفقراء والمساكين وغيرهم من الناس، فتعلّمهم الفقه والقرآن..

وذات يوم مر على مجلسك رجل، فرماك بما تعود النواصب أن يرموك به من كلمات شديدة، هي بنات ضغائن قلوبهم.. لكنك سيدي.. وأنت أمير المؤمنين.. لم تتأثر، وإنما قمت، وقلت: (أيّها الناس إنّه ليس شيء أحبّ إلى الله ولا أعمّ نفعا من حلم إمام وفقهه، ولا شيء أبغض إلى الله ولا أعمّ ضررا من جهل إمام وخرقه، ألا وإنّه من لم يكن له من نفسه واعظ لم يكن له من الله حافظ. ألا وإنّه من أنصف من نفسه لم يزده الله إلّا عزّا. ألا وإنّ الذلّ في طاعة الله أقرب إلى الله من التعزّز في معصيته)(3)

وهكذا كان حلمك مع أعدائك الذين يحاربونك، وينازعونك الأمر، فقد ذكر المؤرخون أنه في معركة صفين غلب معاوية على ماء الفرات، ومنع جيشك من الماء، لكنك بعد أن ان انتصرت عليه، وصار الماء في يدك، وكان في إمكانك أن تمنعه

1() نهج البلاغة: الخطبة رقم(193)

2() نهج البلاغة: الخطبة رقم(193)

3() بحار الأنوار: ج41 ص132.

عنهم، لم تفعل، وإنما خاطبت جيشك قائلا: (خذوا من الماء حاجتكم وخلوا عنهم فإنَّ الله نصركم ببغيهم وظلمهم)[1]

وهكذا كان حلمك مع الجماعة التي دبرت لقتلك.. فأنت لم تحكم عليهم جميعا بالقتل، وإنما رحت، وأنت في غمرات الموت تحذر من أن يقتل بك غير قاتلك.. لقد قلت لهم: (يا بني عبد المطّلب، لا ألفينّكم تخوضون دماء المسلمين خوضا، تقولون: قتل أمير المؤمنين، ألا لا تقتلنّ بي إلّا قاتلي.. انظروا إذا أنا متّ من ضربته هذه، فاضربوه ضربة بضربة، ولا تمثّلوا بالرّجل؛ فإنّي سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: (إيّاكم والمثلة! ولو بالكلب العقور)[2]

وكما كنت حليما لا يضيق صدرك، فقد كنت كريما لا يضيق جيبك بأي سائل، ففي الوقت الذي اغتنى فيه الكثير، وصارت أموالهم لا تعد ولا تحصى، بل صار ذهبهم يقسم بالفؤوس كنت أنت لا تزال على حالك القديم الذي تركك عليه رسول الله ﷺ..

لأنك سيدي كنت لا تمسك شيئا من مال يأتيك.. وقد حدث سالم الجحدري قال: (شهدت عليّ بن أبي طالب أتي بمال عند المساء، فقال: اقتسموا هذا المال، فقالوا: قد أمسينا يا أمير المؤمنين فأخّره إلى غد. فقال لهم: تقبلون لي أن أعيش إلى غد؟ قالوا: ما ذا بأيدينا؟ فقال: لا تؤخّروه حتّى تقسّموه)[3]

بل إنك تجاوزت الكرم بمراحل عديدة.. فأنت صاحب الإيثار الذي يحرم نفسه ليطعم المحتاجين.. وقد نزل فيك وفي أهل بيتك [4] قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (8) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلاَ شُكُورًا﴾ [الإنسان:8-9]

1() تاريخ ابن الأثير: 3/167.

2() نهج البلاغة: الكتاب رقم(47)

3() بحار الأنوار: ج 40، ص 321.

4() أسد الغابة: 5/530..

سيدي ومولاي.. حبيب الله ورسوله..

من المعاني العظيمة التي أتـذكرها في هـذه الأيـام.. أيـام شـهادتك.. عفتـك وزهادتـك.. فقـد كـان من أكـبر ثمـار التربيـة النبوية والقرآنية لشخصك الكريم ذلك العفاف والزهد الـذي ملأ حياتك من صغرك الباكر إلى أن قبضك الله شهيدا..

وما كان لمثلك في تقواه وورعه وأخلاقه العاليـة ومعارفـة السامية ألا يكون زاهدا.. فالزهـد ثمـرة لمعرفـة حقيقـة الحيـاة الدنيا، وهوانها على الله.. وقـد كنت أدرى النـاس بـذلك، وأدرى الناس بما عند الله من الفضل العظيم.. ولـذلك كنت تسـتغرب ذلك التثاقل الذي يقـع فيـه محبـو الـدنيا، الـذين بـاعوا آخـرتهم بدنياهم، مع أنهم يقرؤون قوله تعالى: ﴿ قُـلْ مَتَـاعُ الـدُّنْيَا قَلِيـلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (77)﴾ (النساء)

ولذلك كنت تذكرهم بنفس ما كان يذكرهم به رسـول اللـه ﷺ حين يقول: (لو كانت الدنيا تعدل عند اللـه جنـاح بعوضـة مـا سقى كافراً منها شـربة مـاء)[1]، أو حين يقـول: (مـا الـدنيا في الآخـرة إلا كمـا يجعـل أحـدكم أصـبعه في اليم، فلينظـر بمـاذا ترجع)[2]، أو حين يقول: (ما لى وللدنيا وما للدنيا وما لى والذى نفسى بيده ما مثلى ومثل الدنيا إلا كراكب سار فى يوم صـائف فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ثم راح وتركها)[3]

والزهد هو التربة الطيبـة الـتي تنتج كـل الأخلاق الطـاهرة، فمـا يسـتطيع راغب في الـدنيا الحـريص على شـهواتها أن يملأ قلبه بأخلاق الطاهرين، وهو يلوث نفسه بشهوات الملطخين.

[1] رواه الترمذي وابن ماجة.

[2] رواه مسلم.

[3] رواه أحمـد وهنـاد والترمـذى – وقـال: حسـن صـحيح - وابن ماجـه وابن سـعد والطبرانى والحاكم والبيهقى فى شعب الإيمان.

ولهذا اعتبر القرآن الكريم التثاقل إلى الدنيا، والرغبة فيها والرغبة عن فضل الله سبب الانتكاسة الإنسانية، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِين (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون (176) سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُون﴾ [الأعراف:175-177]

وقد كنت ـ سيدي ـ ترى بعينيك كيف تشتري الفئة الباغية ذمم الناس بأموالها وبهرجها وزخارفها.. لذلك كنت تدعو إلى الزهد، وتربي أصحابك عليه، كما كان ﷺ يربيك عليه.

الزهد.. والترفع:

ولهذا كنت تردد بين أصحابك وأتباعك، كل الحكم والمواعظ الداعية للترفع عن الدنيا.. فلا يمكن أن تنبت شجرة المكارم في أرض غرس فيها حب الدنيا..

وقد حفظ لنا التاريخ من كلماتك البليغة في هذا قولك: (إليك عنّي يا دنيا، فحبلك على غاربك، قد انسللت من مخالبك، وأفلتّ من حبائلك، واجتنبت الذّهاب في مداحضك، أين القرون الّذين غررتهم بمداعبك؟ أين الأمم الّذين فتنتهم بزخارفك؟ فها هم رهائن القبور، ومضامين اللّحود! واللّه لو كنت شخصا مرئيّا، وقالبا حسّيّا، لأقمت عليك حدود اللّه في عباد غررتهم بالأمانيّ، وأمم ألقيتهم في المهاوي، وملوك أسلمتهم إلى التّلف، وأوردتهم موارد البلاء إذ لا ورد ولا صدر.. هيهات من وطئ دحضك زلق، ومن ركب لججك غرق، ومن ازورّ عن حبائلك وفّق، والسّالم منك لا يبالي إن ضاق به مناخه، والدّنيا عنده كيوم حان انسلاخه)[1]

وكنت تصيح فيها كل حين: (اعزبي عنّي، فو اللّه لا أذلّ لك فتستذلّيني، ولا أسلس لك فتقوديني، وايم اللّه- يمينا أستثني

---

[1] نهج البلاغة: الكتاب 45 ص 417.

فيهــا بمشــيئة اللّــه- لأروضــنّ نفســي رياضــة تهشّ معهــا إلى القرص، إذا قدرت عليه مطعوما، وتقنع بالملح مأدومــا، ولأدعنّ مقلــتي كعين مــاء نضــب معينهــا، مســتفرغة دموعهــا، أ تمتلئ السّائمة من رعيها فتبرك؟ وتشبع الرّبيضة من عشبها فــتربض؟ ويأكــل عليّ من زاده فيهجــع، قــرّت إذا عينــه إذا اقتــدى بعــد السّنين المتطاولة بالبهيمة الهاملة، والسّائمة المرعيّة!) [1]

وكنت تخطب فيهم، وتقول:(و أحذّركم الــدّنيا فإنّهــا مــنزل قلعة، وليست بدار نجعة، قــد تــزيّنت بغرورهــا، وغــرّت بزينتهــا. دارها هانت على ربّها، فخلط حلالهــا بحرامهــا، وخيرهــا بشــرّها، وحياتها بموتها، وحلوها بمرّها. لم يصفها اللّه تعالى لأوليائه، ولم يضنّ بها على أعدائه. خيرها زهيد، وشرّها عتيد، وجمعهــا ينفــد، وملكها يسلب، وعامرها يخرب. فما خير دار تنقض نقض البنــاء، وعمر يفنى فيها فناء الزّاد، ومدّة تنقطع انقطاع السّــير. اجعلــوا مــا افــترض اللّــه عليكم من طلبكم، واســألوه من أداء حقّــه مــا سألكم، وأسمعوا دعوة الموت آذانكم قبل أن يدعى بكم) [2]

وكنت تــبين لهم آثــار حب الــدنيا على قلــوبهم وعلاقــاتهم، وأنها هي السبب في كل ما حل بهم من انحرافات، فتقول: (قد غاب عن قلوبكم ذكر الآجال، وحضرتكم كواذب الآمال، فصارت الــدّنيا أملــك بكم من الآخــرة، والعاجلــة أذهب بكم من الآجلــة. وإنّمـــا أنتم إخـــوان على دين اللّـــه، مـــا فـــرّق بينكم إلّا خبث السّرائر، وسوء الضّمائر، فلا توازرون ولا تناصحون، ولا تباذلون ولا توادّون.. ما بالكم تفرحــون باليســير من الــدّنيا تدركونــه، ولا يحزنكم الكثير من الآخرة تحرمونه، ويقلقكم اليســير من الــدّنيا يفوتكم، حتّى يتبيّن ذلك في وجوهكم، وقلّــة صــبركم عمّــا زوي منها عنكم، كأنّها دار مقــامكم، وكــأنّ متاعهــا بــاق عليكم.. ومــا يمنع أحدكم أن يستقبل أخاه بما يخاف من عيبــه، إلّا مخافــة أن يستقبله بمثله، قــد تصــافيتم على رفض الآجــل، وحبّ العاجــل، وصــار دين أحــدكم لعقــة على لســانه، صــنيع من قــد فــرغ من

1() نهج البلاغة: الكتاب 45 ص 417.

2() نهج البلاغة: الخطبة رقم(113)

عمله، وأحرز رضا سيّده)[1]

ولكنك مع ذلك كله سيدي كنت تفرق بين دنيا الصالحين المترفعين، ودنيا العابثين المتثاقلين.. وقد روي أنك رأيت قوما يذمون الدنيا ذما مطلقا، فرحت تقول لهم: (ما بال أقوام يذمّون الدنيا وقد انتحلوا الزهد فيها؟!، الدنيا منزل صدق لمن صدّقها، ومسكن عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزوّد منها، مسجد أنبياء اللّه، ومهبط وحيه، ومصلّى ملائكته، ومسكن أحبّائه، ومتجر أوليائه، اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا منها الجنّة.فمن ذا يذم الدنيا- يا جابر- وقد آذنت ببينها؟! ونادت بانقطاعها، ونعت نفسها بالزوال، ومثّلت ببلائها البلاء، وشوّقت بسرورها إلى السرور، وراحت بفجيعة، وابتكرت بنعمة وعافية، ترهيبا وترغيبا، فذمّها قوم غداة الندامة، وحمدها آخرون، خدمتهم جميعا فصدقتهم، وذكّرتهم فاذّكّروا، ووعظتهم فاتّعظوا، وخوّفتهم فخافوا، وشوقتهم فاشتاقوا) [2]

وسمعت آخر يذم الدنيا ذما مطلقا، فرحت تصحح له، وتقول: (فأيّها الذامّ للدنيا المغترّ بغرورها! متى استذمّت إليك؟ بل متى غرّتك بنفسها؟ أ بمصارع آبائك من البلى؟! أم بمضاجع أمّهاتك من الثرى؟ كم مرّضت بيديك، وعلّلت بكفّيك؟ تستوصف لهم الدواء، وتطلب لهم الأطباء، لم تدرك فيه طلبتك، ولم تسعف فيه بحاجتك. بل مثّلت الدنيا به نفسك، وبحاله حالك، غداة لا ينفعك أحباؤك، ولا يغني عنك نداؤك، يشتد من الموت أعالين المرضى، وأليم لوعات المضض، حين لا ينفع الأليل، ولا يدفع العويل، حين يحفز بها الحيزوم، ويغصّ بها الحلقوم، حين لا يسمعه النداء، ولا يروعه الدعاء، فيا طول الحزن عند انقطاع الأجل. ثمّ يراح به على شرجع تقلّه أكفّ أربع، فيضجع في قبره في لبث، وضيق جدث، فذهبت الجدّة، وانقطعت المدة، ورفضته العطفة، وقطعته اللطفة، لا تقاربه الإخلاء، ولا تلمّ به الزوّار، ولا اتّسقت به الدار. انقطع دونه

[1] () الخطبة 111 ص 164.

[2] () مستدرك نهج البلاغة للمحمودي: ج 1 ص 352- 357 الخطبة رقم(117)

الأثر، واستعجم دونه الخبر، وبكّرت ورثته، فأقسمت تركته، ولحقه الحوب، وأحاطت به الذنوب، فإن يكن قدّم خيرا طاب مكسبه، وإن يكن قدّم شرّا تبّ منقلبه، وكيف ينفع نفسا قرارها، والموت قصارها، والقبر مزارها؟ فكفى بهذا واعظا كفى) [1]

الزهد.. والتخلق:

وقد كان حرصك سيدي على إحياء قيم الزهد والترفع عن الدنيا لما علمت من آثاره على السلوك والأخلاق، وعلى التوجه الصادق لله تعالى، والتسليم المطلق له.. فيستحيل على من انغمس في الدنيا، وركن إلى أهوائها أن تحن نفسه للملأ الأعلى، أو أن يتحقق بأخلاق الطاهرين.

ولذلك امتلأت كل خطبك وكتبك من بيان ثمار الزهد الطيبة اليانعة.. ومن ذلك قولك: (إنّ الزّاهدين في الدّنيا تبكي قلوبهم وإن ضحكوا، ويشتدّ حزنهم وإن فرحوا، ويكثر مقتهم أنفسهم وإن اغتبطوا بما رزقوا)[2]

وإن نسيت من كلماتك ما نسيت.. فلن أنسى رسالتك الرقيقة التي كتبتها إلى عاملك على البصرة عثمان بن حنيف الأنصاري، بعد أن بلغك أنه دعي إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها..

فقد كتبت له رسالة تبين فيها غرضا كريما من أغراض الزهد.. وهو العدالة.. فلا يمكن للحريص أن يعيش العدالة، ولا أن يفهمها، ولا أن يطبقها..

لقد كتبت تقول له: (أمّا بعد يا ابن حنيف، فقد بلغني أنّ رجلا من فتية أهل البصرة، دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها، تستطاب لك الألوان، وتنقل إليك الجفان، وما ظننت أنّك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفوّ، وغنيّهم مدعوّ، فانظر إلى ما

1() مستدرك نهج البلاغة للمحمودي: ج 1 ص 352- 357 الخطبة رقم(117)

2() نهج البلاغة: الخطبة 111 ص 164.

تقضمه من هذا المقضم، فما اشتبه عليك علمه فالفظه، وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه) (1)

ثم رحت تصف له حالك، ليأتم بك، ولتأتم بك الأجيال من بعده، فقلت: (ألا وإنّ لكلّ مأموم إماما يقتدي به، ويستضيء بنور علمه، ألا وإنّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه، ألا وإنّكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفّة وسداد.. فو اللّه ما كنزت من دنياكم تبرا، ولا ادّخرت من غنائمها وفرا، ولا أعددت لبالي ثوبي طمرا، ولا حزت من أرضها شبرا، ولا أخذت منه إلّا كقوت أتان دبرة، ولهي في عيني أوهى وأوهن من عفصة مقرة)

ثم ذكرت له أن زهدك في الدنيا ليس ناشئا من جهلك بها، وإنما ناشئ من زهدك فيها، ورغبتك فيما عند الله.. ولتستوي أنت وأبسط مستضعف من رعيتك.. فلا يمكن أن يدرك عوز المعوزين، ولا فقر الفقراء من أتخم نفسه، وأعطاها كل ما تشتهي.

لقد كتبت له تقول: (و لو شئت لاهتديت الطّريق إلى مصفّى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القزّ، ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخيّر الأطعمة، ولعلّ بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشّبع!! أو أبيت مبطانا وحولي بطون غرثى، وأكباد حرّى!! أو أكون كما قال القائل:

وحسبك داء أن ... وحولك أكباد تحنّ

وكتبت له تقول: (أأقنع من نفسي بأن يقال: هذا أمير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره الدّهر؟ أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش، فما خلقت ليشغلني أكل الطّيّبات، كالبهيمة المربوطة همّها علفها، أو المرسلة شغلها تقمّمها، تكترش من أعلافها وتلهو عمّا يراد بها، أو أترك سدى أو أهمل عابثا، أو أجرّ حبل الضّلالة، أو أعتسف طريق المتاهة)

1 () نهج البلاغة: الكتاب رقم(45)

ثم بينت له ـ سيدي ـ أن الزهد لا يعني العجز، ولا الضعف، فقلت: (و كـأنّي بقـائلكم يقـول: إذا كـان هـذا قـوت ابن أبي طـالب، فقـد قعـد بـه الضّـعف عن قتـال الأقـران، ومنازلـة الشّـجعان؟! ألا وإنّ الشّـجرة البرّيّـة أصـلب عـودا، والرّواتـع الخضـرة أرقّ جلـودا، والنّابتـات العذيـة أقـوى وقـودا، وأبطـأ خمودا!)

ثم ختمت رسالتك لـه بهـذا الشـعار الـذي لا نـزال نـردده: (فاتّق اللّـه يـا ابن حـنيف، ولتكفـف أقراصـك، ليكـون من النّـار خلاصك)

ومن خطبك في هذا، والتي تأسـر القلـوب ببلاغتهـا وبيانهـا وحقائقها قولك ـ وأنت تستعرض الأنبياء وزهـدهم في الـدنيا ـــ: (و لقد كان في رسول اللّه ﷺ كاف لك في الأسوة، ودليـل لـك على ذمّ الدّنيا وعيبها، وكثرة مخازيها ومساويها، إذ قبضـت عنـه أطرافها، ووطّئت لغيره أكنافها، وفطم عن رضـاعها، وزوي عن زخارفها.. وإن شئت ثنّيت بموسى كليم اللّه عليه السّـلام حيث يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصـص: 24]، واللّه ما سأله إلّا خبزا يأكله، لأنّه كان يأكـل بقلـة الأرض، ولقـد كـانت خضـرة البقـل تـرى من شـفيف صـفاق بطنـه، لهزالـه وتشـذّب لحمـه.. وإن شـئت ثلّثت بـداود عليـه السّلام صـاحب المزامير، وقارئ أهل الجنّة، فلقد كـان يعمـل سـفائف الخـوص بيده، ويقول لجلسائه: أيّكم يكفيني بيعها؟ ويأكل قرص الشّـعير من ثمنها.. وإن شئت قلت في عيسى ابن مـريم عليـه السّـلام فلقد كان يتوسّد الحجر، ويلبس الخشن، ويأكل الجشـب، وكـان إدامه الجوع، وسراجه باللّيل القمر، وظلاله في الشّتاء مشـارق الأرض ومغاربها، وفاكهته وريحانه مـا تنبت الأرض للبهـائم، ولم تكن له زوجـة تفتنـه، ولا ولـد يحزنـه، ولا مـال يلفتـه، ولا طمـع يذلّه، دابّته رجلاه، وخادمه يداه) [1]

ثم ختمت خطبتك بذكر حبيتك ﷺ، الـذي ربـاك على عينـه، فقلت: (فتـأسّ بنبيّـك الأطيب الأطهـر ﷺ فـإنّ فيـه أسـوة لمن

---

1 () نهج البلاغة: الخطبة رقم 160.

تأسّى، وعزاء لمن تعزّى، وأحبّ العباد إلى اللّه المتأسّي بنبيّه، والمقتصّ لأثره.. قضم الدّنيا قضما، ولم يعرها طرفا، أهضم أهل الدّنيا كشحا، وأخمصهم من الدّنيا بطنا، عرضت عليه الدّنيا فأبى أن يقبلها، وعلم أنّ اللّه سبحانه أبغض شيئا فأبغضه، وحقّر شيئا فحقّره، وصغّر شيئا فصغّره.. ولو لم يكن فينا إلّا حبّنا ما أبغض اللّه ورسوله، وتعظيمنا ما صغّر اللّه ورسوله، لكفى به شقاقا للّه، ومحادّة عن أمر الله)

ثم رحت تصف حاله ﷺ، وزهده في الدنيا، وتواضعه فيها، فقلت: (و لقد كان ﷺ يأكل على الأرض، ويجلس جلسة العبد، ويخصف بيده نعله، ويرقع بيده ثوبه، ويركب الحمار العاري، ويردف خلفه. ويكون السّتر على باب بيته، فتكون فيه التّصاوير فيقول: يا فلانة- لإحدى أزواجه- غيّبيه عنّي، فإنّي إذا نظرت إليه ذكرت الدّنيا وزخارفها. فأعرض عن الدّنيا بقلبه، وأمات ذكرها من نفسه، وأحبّ أن تغيب زينتها عن عينه، لكيلا يتّخذ منها رياشا، ولا يعتقدها قرارا، ولا يرجو فيها مقاما، فأخرجها من النّفس، وأشخصها عن القلب، وغيّبها عن البصر، وكذلك من أبغض شيئا أبغض أن ينظر إليه، وأن يذكر عنده)

ثم رحت تخاطب عقولهم، وتقول: (لقد كان في رسول اللّه ﷺ ما يدلّك على مساوئ الدّنيا وعيوبها، إذ جاع فيها مع خاصّته، وزويت عنه زخارفها مع عظيم زلفته، فلينظر ناظر بعقله، أكرم اللّه محمّدا بذلك أم أهانه؟.. فإن قال: أهانه فقد كذب واللّه العظيم بالإفك العظيم.. وإن قال: أكرمه، فليعلم أنّ اللّه قد أهان غيره حيث بسط الدّنيا له، وزواها عن أقرب النّاس منه.. فتأسّى متأسّ بنبيّه، واقتصّ أثره، وولج مولجه، وإلّا فلا يأمن الهلكة، فإنّ اللّه جعل محمّدا ﷺ علما للسّاعة، ومبشّرا بالجنّة، ومنذرا بالعقوبة، خرج من الدّنيا خميصا، وورد الآخرة سليما، لم يضع حجرا على حجر حتّى مضى لسبيله، وأجاب داعي ربّه.. فما أعظم منّة اللّه عندنا حين أنعم علينا به، سلفا نتّبعه، وقائدا نطأ عقبه)

وقد كان سلوكك سيدي في حياتك جميعا مطابقا لقولك..

وقد روي في الروايات الكثيرة من أحبابك وأعدائك ما يثبت ذلك..

فقد ذكرك الأرقم، فقال: (رأيت علي بن أبي طالب يعرض سيفا له في رحبة الكوفة ويقول: (من يشتري مني سيفي هذا والله لقد جلوت به غير مرة عن وجه رسول الله ﷺ ولو كان عندي أربعة دراهم ثمن إزار لم أبعه)[1]

وذكرك سفيان، فقال: (إن عليا لم يبن آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة وان كان ليؤتى بحبوبه من المدينة في جراب.. وكان يختم على الجراب الذي يأكل منه ويقول: لا احب أن يدخل بطني إلا ما اعلم) [2]

وذكرك عمر بن قيس، فقال: (رئي على علي إزار مرقوع فقيل له فقال: (يقتدى به المؤمن ويخشع به القلب)[3]

وذكرك ابنك الحسن، فقال: (في صبيحة الليلة التي قتل فيها أمير المؤمنين والله ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا ثلاثمائه درهم فضلت من عطائه)[4]

1() الكامل لابن الأثير ج3 ص201.

2() الكامل لابن الأثير ج3 ص201.

3() منتخب الكنز ج3 ص57.

4() الإمامة والسياسة ج1 ص170.

سيدي ومولاي.. حبيب الله ورسوله..

من المعاني العظيمة التي أتـذكرها في هـذه الأيـام.. أيـام شـهادتك.. تلـك المظـاهر الكثـيرة الـتي تجلت فيهـا عبوديتـك لربك.. والتي شملت جميـع نـواحي الحيـاة.. فقـد كـانت حياتـك كلهـا للـه.. مخبتـا ومتبتلا وخاشـعا وخاضـعا في كـل لحظـة من لحظات حياتك الممتلئة بالقداسة والطهر.

ولذلك لا يمكن لأحد أن يتحـدث عنـك، كـأواب عابـد إلا إذا استعرض كل لحظة من لحظات حياتك سـواء مـع رسـول اللـه ﷺ، وأنت تؤدي دور المريد الصـادق.. أو بعـده، وأنت تـؤدي دور الإمـام الناصـح، والـولي المرشـد، والمجاهـد البطـل، السـاعي لحفـظ الـدين من التأويـل والتحريـف والـدجل إلى أن ختمت حياتك بالشهادة.

لكـني مـع ذلـك، سـأرطب لسـاني، بـذكر بعض تجليـات عبوديتك لله.. وذلك في تينك العبـادتين اللـتين أعطيت الأسـوة بهما، ومثلتهما أحسن تمثيل، لتكون فيهما أسوة لغيرك، يقتدون بك، ويهتدون بهديك.

أما أولاهما، فتلك الصلاة الخاشعة التي رباك عليها رسـول الله ﷺ، ودربك عليها، فقضيت حياتك كلها تعلم الغافلين مناسك الخشوع والإخبات والحضور الدائم مع الله.

وأما الثانية، فتلك الدعوات الرقيقة الـتي كنت ترددهـا في كل محل.. فحفظتها لنا الدواوين لترددها الأجيال بعـدك.. فتنـال منهـا معرفـة باللـه وقربـا منـه وخضـوعا لـه، وتنـال فـوق ذلـك حاجاتها من خيرات الدنيا والآخرة.

صلاة الخاشعين:

أما الصلاة.. فقد كنت تـدعو إليهـا بلسـانك وحالـك وفعلـك كل حين..

أما دعوتك إليها بلسانه، فقد كنت تذكرها في خطبك، وتسجلها في رسائلك، وتوصي بها أصحابك وأهلك.. وتعلمهم كيف يقومون بحقوقها، وكيف يؤدوها كما طلب منهم أن يؤدوها..

ومن وصاياك في ذلك لأصحابك وأحبابك على مدار التاريخ قولك: (تعاهدوا أمر الصّلاة، وحافظوا عليها، واستكثروا منها، وتقرّبوا بها، فإنّها ﴿كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً﴾.. ألا تسمعون إلى جواب أهل النّار حين سئلوا: ﴿ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (42) قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾.. وإنّها لتحتّ الذّنوب حتّ الورق، وتطلقها إطلاق الرّبق، وشبّهها رسول اللّه ﷺ بالحمّة تكون على باب الرّجل، فهو يغتسل منها في اليوم واللّيلة خمس مرّات، فما عسى أن يبقى عليه من الدّرن.. وقد عرف حقّها رجال من المؤمنين، الّذين لا تشغلهم عنها زينة متاع، ولا قرّة عين من ولد ولا مال، يقول اللّه سبحانه: ﴿رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ ولا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وإِقامِ الصَّلاةِ وإِيتاءِ الزَّكاةِ﴾ [طه: 132].. وكان رسول اللّه ﷺ نصبا بالصّلاة بعد التّبشير له بالجنّة، لقول اللّه سبحانه: ﴿وأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ واصْطَبِرْ عَلَيْها﴾، فكان يأمر بها أهله ويصبر عليها نفسه) [1]

ومن وصيتك لأبنائك وأنت تحتضر قولك: (اللّه، اللّه في القرآن! لا يسبقكم بالعمل به غيركم.. واللّه، اللّه في الصّلاة! فإنّها عمود دينكم.. واللّه، اللّه في بيت ربّكم! لا تخلّوه ما بقيتم؛ فإنّه إن ترك لم تناظروا) [2]

ومن وصية لك أخرى قلت فيها: (وليكن في خاصة ما تخلص به لله دينك: إقامة فرائضه التي هي له خاصة، فأعط الله من بدنك في ليلك ونهارك، ووف ما تقربت به إلى الله من ذلك كاملا غير مثلوم ولا منقوص، بالغا من بدنك ما بلغ. وإذا قمت في صلاتك للناس، فلا تكونن منفرا ولا مضيعا، فإن في الناس من به العلة وله الحاجة. وقد سألت رسول الله ﷺ حين

---

[1] () نهج البلاغة: الخطبة رقم(199)

[2] () نهج البلاغة: الكتاب رقم(47)

وجهني إلى اليمن كيف أصلي بهم فقال: (صل بهم كصلاة أضعفهم، وكن بالمؤمنين رحيما)(1)

وكنت ـ سيدي ـ لا تكتفي بالدعوة للفرائض، بل كنت تدعو بلسانك وحالك إلى الفرائض والنوافل، وخاصة قيام الليل، والتهجد فيه لله عز وجل، وكلماتك في هذا كثيرة جدا، ومنها قولك ـ وأنت تدعوهم إلى التأسي بالسابقين الصادقين ـ: (أين القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبلوه، وقرؤوا القرآن فأحكموه، وهيجوا إلى الجهاد فولهوا وله اللقاح إلى أولادها، وسلبوا السيوف أغمادها، وأخذوا بأطراف الأرض زحفا زحفا، وصفا صفا. بعض هلك، وبعض نجا. لا يبشرون بالأحياء، ولا يعزون عن الموتى. مره العيون من البكاء، خمص البطون من الصيام، ذبل الشفاه من الدعاء صفر الألوان من السهر. على وجوههم غبرة الخاشعين. أولئك إخواني الذاهبون. فحق لنا أن نظمأ إليهم، ونعض الأيدي على فراقهم) (2)

وقلت في خطبة أخرى، تتحدث عن أولياء الله وأصفيائه: (عباد الله، إن تقوى الله حمت أولياء الله محارمه، وألزمت قلوبهم مخافته، حتى أسهرت لياليهم، وأظمأت هواجرهم فأخذوا الراحة بالنصب، والري بالظمإ، واستقربوا الأجل، فبادروا العمل، وكذبوا الأمل فلاحظوا الأجل) (3)

وفي خطبة أخرى، قلت: (فاتقوا الله عباد الله تقية ذي لب شغل التفكر قلبه، وأنصب الخوف بدنه، وأسهر التهجد غرار نومه، وأظمأ الرجاء هواجر يومه، وظلف الزهد شهواته، وأوجف الذكر بلسانه، وقدم الخوف لأمانه) (4)

وفي خطبة أخرى، وصفت فيها أهل الجنة وأعمالهم، رحت

---

(1) نهج البلاغة، رسائل: 53.

(2) نهج البلاغة، خطب 121.

(3) نهج البلاغة، خطب 114.

(4) نهج البلاغة، خطب 83.

تقـول: (و سـيق الـذين اتقـوا ربهم إلى الجنـة زمـرا.. قـد أمن العـذاب، وانقطـع العتـاب وزحزحـوا عن النـار، واطمـأنت بهم الدار، ورضوا المثوى والقرار. الـذين كـانت أعمـالهم في الـدنيا زاكيــة، وأعينهم باكيــة، وكــان ليلهم في دنيــاهم نهــارا، تخشــعا واستغفارا وكان نهارهم ليلا، توحشا وانقطاعا. فجعـل اللـه لهم الجنة مآبـا، والجـزاء ثوابـا، (و كـانوا أحـق بهـا وأهلها) في ملـك دائم، ونعيم قائم) (1)

وفي خطبــة أخــرى من خطبــك الــتي تصــف فيهــا الأوليــاء والمقربين، قلت: (وإني لمن قوم لا تأخذهم في الله لومة لائم، سـيماهم سـيما الصـديقين، وكلامهم كلام الأبـرار، عمـار الليـل ومنار النهار. متمسكون بحبل القرآن يحيـون سـنن اللـه وسـنن رسوله لا يستكبرون ولا يعلون، ولا يغلون ولا يفسدون. قلــوبهم في الجنان، وأجسادهم في العمل) (2)

وفي خطبتك الـتي وصـفت فيهـا أصـحاب رسـول اللـه ﷺ السابقين الصادقين، قلت: (لقـد رأيت أصـحاب محمـد ﷺ، فمـا أرى أحدا يشبههم منكم لقد كانوا يصبحون شعثا غبرا، وقد باتوا سجدا، وقيامـا يراوحـون بين جبـاههم وخـدودهم، ويقفـون على مثل الجمر من ذكر معادهم كـأن بين أعينهم ركب المعـزى من طول سـجودهم إذا ذكـر اللـه هملت أعينهم حـتى تبـل جيـوبهم ومادوا كما يميد الشجر يوم الريح العاصف، خوفـا من العقـاب، ورجاء للثواب أما الليل فصافون أقدامهم، تالين لأجـزاء القـرآن يرتلونها ترتيلا. يحزنون بـه أنفسـهم ويسـتثيرون بـه دواء دائهم. فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعا، وتطلعت نفوسـهم إليها شوقا، وظنوا أنها نصب أعينهم. وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أن زفـير جهنم وشـهيقها في أصول آذانهم، فهم حانون على أوساطهم، مفترشـون لجبـاههم وأكفهم وركبهم، وأطراف أقدامهم، يطلبون إلى الله تعـالى في

1() نهج البلاغة، خطب192.

2() نهج البلاغة، خطب 192.

فكاك رقابهم. وأما النهار فحلماء علماء، أبرار أتقياء)(1)

وفي خطبة أخرى، قلت: (طوبى لنفس أدت إلى ربها فرضها، وعركت بجنبها بؤسها، وهجرت في الليل غمضها، حتى إذا غلب الكرى عليها افترشت أرضها، وتوسدت كفها، في معشر أسهر عيونهم خوف معادهم، وتجافت عن مضاجعهم جنوبهم، وهمهمت بذكر ربهم شفاههم، وتقشعت بطول استغفارهم ذنوبهم، (أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون)(2)

وفي خطبة أخرى قلت: (فاسعوا في فكاك رقابكم من قبل أن تغلق رهائنها. أسهروا عيونكم، وأضمروا بطونكم واستعملوا أقدامكم)(3)

وفي حديث نقله لنا نوف البكالي عنك، قال: رأيت أمير المؤمنين ذات ليلة، وقد خرج من فراشه، فنظر في النجوم فقال لي: يا نوف، أراقد أنت أم رامق؟ فقلت: بل رامق قال يا نوف، طوبى للزاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة، أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطا، وترابها فراشا، وماءها طيبا، والقرآن شعارا، والدعاء دثارا، ثم قرضوا الدنيا قرضا على منهاج المسيح.. يا نوف، إن داود عليه السلام: قام في مثل هذه الساعة من الليل فقال: إنها لساعة لا يدعو فيها عبد إلا استجيب له، إلا أن يكون عشارا أو عريفا أو شرطيا، أو صاحب عرطبة (و هي الطنبور) أو صاحب كوبة (و هي الطبل. وقد قيل أيضا: إن العرطبة الطبل والكوبة الطنبور)(4)

هذه دعواتك للصلاة، وتعظيمك لها بلسان مقالك، أما دعواتك لها بلسان حالك.. فهي من أعجب العجب.. وقد رويت

(1) نهج البلاغة، العهد 27 ص 383.

(2) نهج البلاغة: خطب 217.

(3) نهج البلاغة: خطبه 182 ص 262.

(4) نهج البلاغة: حكم 104.

لنا في الأخبار عنك من ذلك الكثير.

واسمح لي ـ سيدي ـ أن أذكر لك ما وصلنا من كيفية استعدادك للصلاة، واهتمامك بشأنها، وتعظيمك لشعائرها.

ونبدأ ذلك بالوضوء الذي كنت تملؤه بذكر الله.. فلا تتوضأ وضوء الغافلين، وإنما تتوضأ وضوء المخبتين الخاشعين..

وقد روى لنا الرواة أنك كنت تقول عند المضمضة: (اللهمّ لقّني حجّتك يوم ألقاك، وأطلق لساني بذكرك)[1]

وكنت تقول عند الاستنشاق: (اللهمّ لا تحرّم عليّ ريح الجنّة، واجعلني ممّن يشمّ ريحها وروحها وطيبها)

وكنت تقول عند غسل الوجه: (اللهمّ بيّض وجهي يوم تسودّ فيه الوجوه، ولا تسوّد وجهي يوم تبيضّ فيه الوجوه)

وكنت تقول عند غسل اليد اليمنى: (اللهمّ أعطني كتابي بيميني، والخلد في الجنان بيساري، وحاسبني حسابا يسيرا)

وكنت تقول عند غسل اليد اليسرى: (اللهمّ لا تعطني كتابي بشمالي ولا من وراء ظهري، ولا تجعلها مغلولة إلى عنقي، وأعوذ بك من مقطّعات النّيران)

وكنت تقول عند مسح الرأس: (اللهمّ غشّني برحمتك وبركاتك وعفوك)

وكنت تقول عند مسح الرجلين: ((اللهمّ ثبّتني على الصّراط يوم تزلّ فيه الأقدام، واجعل سعيي فيما يرضيك عنّي يا ذا الجلال والإكرام)

وهكذا كنت في وضوئك ـ سيدي ـ ممتلئا عبودية وإخباتا

---

[1] () وسائل الشيعة 1: 292.

وخشوعا.

وهكذا حالـك إذا ذهبت إلى الصـلاة، وقـد وصـفها صـاحبك الصادق عديّ بن حاتم الطائي، فقال: دخلت على عليّ فوجدتـه قائما يصلّي متغيّرا لونه، فلم أر مصلّيا بعد رسول اللـه ﷺ أكـثر ركوعا ولا سجودا منه، فسعيت نحوه، فلمّا سـمع بحسّـي أشـار إليّ بيـده، فـوقفت حـتى صـلّى ركعـتين أوجزهما، وأكملهما، ثمّ سلّم وسجد سـجدة أطالهـا فقلت في نفسي: نـام والله، فرفـع رأسه، ثمّ قـال: (لا إلـه إلاّ اللـه حقّـا حقّا، لا إلـه إلاّ اللـه إيمانـا وتصديقا، لا إله إلاّ الله تعبّدا ورقّا. يا معزّ المؤمنين بسلطانه، يـا مذلّ الجبّـارين بعظمته، أنت كهفي حين تعييـني المـذاهب عنـد حلـول النّـوائب، فتضـيق عليّ الأرض برحبها، أنت خلقتـني يـا سيّدي رحمة منك لي، ولو لا رحمتـك لكنت من الهـالكين، وأنت مؤيّدي بالنّصر على أعدائي، ولو لا نصرك لكنت من المغلـوبين. يا منشئ البركات من مواضـعها، ومرسـل الرّحمـة من معادنها، ويا من خصّ نفسه بـالعزّ والرّفعة، فأوليـاؤه بعـزّه يعـتزّون، ويـا من وضع له الملوك نير المذلّة على أعناقهم، فهم من سـطواته خائفون، أسألك بكبريائك الّتي شـققتها من عظمتك، وبعظمتـك الّتي استويت بهـا على عرشك، وعلـوت بهـا في خلقك، فكلّهم خاضـع ذليـل لعزّتك، صـلّ على محمّـد وآله، وافعـل بي أولى الأمرين بك تباركت يا أرحم الرّاحمين)[1]

وقد روى لنا الرواة الكثير من الأدعية والابتهالات الخاضعة التي كنت تعمر بها صلاتك الخاشعة، منها قولك قبـل أن تشـرع بتكبـيرة الإحـرام: (يـا محسـن قـد أتـاك المسـيء، وقـد أمـرت المحسن أن يتجاوز عن المسيء، وأنت المحسن وأنا المسـيء،

1() الصحيفة العلوية الثانية: 170.

فبحقّ محمّد وآل محمّد صلّ على محمّد وآل محمّد، وتجاوز عن قبيح ما تعلم منّي)(1)

ومنها قولك في سجودك: (أناجيك يا سيّدي كما يناجي العبد الذّليل مولاه، وأطلب إليك طلب من يعلم أنّك تعطي، ولا ينقص ممّا عندك شيء، وأستغفرك استغفار من يعلم أنّه لا يغفر الذّنوب إلاّ أنت، وأتوكّل عليك توكّل من يعلم أنّك على كلّ شيء قدير)(2)

وكنت تقول فيه: (اللهمّ إنّي أعوذ بك أن تبتليني ببليّة تدعوني ضرورتها على أن أتلوّث بشيء من معاصيك.. اللهمّ ولا تجعل لي حاجة إلى أحد من شرار خلقك ولئامهم، فإن جعلت لي حاجة إلى أحد من خلقك فاجعلها إلى أحسنهم وجها، وخلقا، وخلقا، وأسخاهم بها نفسا، وأطلقهم بها لسانا، وأسمحهم بها كفّا، وأقلّهم بها عليّ امتنانا)

وكنت تقول فيه: (اللهمّ ارحم ذلّي بين يديك، وتضرّعي إليك، ووحشتي من النّاس، وانسي بك يا كريم، فإنّي عبدك أتقلّب في قبضتك، يا ذا المنّ والفضل والجود والغناء والكرم، ارحم ضعفي وشيبتي من النّار يا كريم)(3)

وكنت تقول في قنوت صلاة الفجر: (اللهمّ إنّا نستعينك، ونستغفرك، ونستهديك، ونؤمن بك، ونتوكّل عليك، ونثني عليك بالخير كلّه، ونخلع ونترك من ينكرك. اللهمّ إيّاك نعبد، ولك نصلّي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، ونرجو رحمتك، ونخشى

1() الصحيفة العلوية الثانية: 143.

2() أمالي الصدوق: 255.

3() فقه الرضا: 141.

عــذابك، إنّ عــذابك كــان بالكــافرين محيطــا. اللهمّ اهــدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولّنا فيمن تولّيت، وبارك لنا فيمــا أعطيت، وقنا شرّ ما قضيت، إنّك تقضي ولا يقضى عليك، إنّــه لا يــذلّ من واليت، ولا يعــزّ من عــاديت، تبــاركت ربّنــا وتعــاليت، أستغفرك وأتوب إليك. ربّنا لا تؤاخــذنا إن نســينا أو أخطأنا، ربّنــا ولا تحمل علينا إصرا كمــا حملتــه على الّــذين من قبلنا، ربّنــا ولا تحمّلنا مــا لا طاقــة لنــا به، وأعــف عنّا، واغفــر لنا، وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين)[1]

وكنت تقول عقب صلاة الفجر: (اللهمّ إنّي أسألك يا مدرك الهاربين، ويا ملجأ الخــائفين، ويــا غيــاث المســتغيثين. اللهمّ إنّي أســألك بمعاقــد العــزّ من عرشك، ومنتهى الرّحمــة من كتابك، وباســـمك العظيم الأعظم، الكبـــير الأكـــبر، الطّـــاهر المطهّر، القدّوس المبارك، ولو أنّ ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمــات اللــه إنّ اللــه عزيــز حكيم، يا الله، يا ربّاه يا مولاه، يا غاية رغبتــاه، يــا هو، يــا من هو، يــا من لا يعلم مــا هــو إلاّ هو، ولا كيــف هــو إلاّ هو، يــا ذا الجلال والإكرام والإفضال والإنعام، يا ذا الملــك والملكــوت، يــا ذا العــزّ والكبرياء، والعظمة والجبروت، يا حيّ لا يموت، يا من علا فقهر، يا من ملك فقدر، يا من عبد فشكر، يا من عصي فســتر، يــا من لا يحيط بــه الفكر، يــا رازق البشر، يــا مقــدّر القــدر، يــا محصــي قطر المطر، يا دائم الثّبات، يا مخرج النّبات، يا قاضي الحاجات، يا منجح الطّلبات، يا جاعل البركات، يا محيي الأمــوات، يــا رافــع الــدّرجات، يــا راحم العــبرات، يــا مقيــل العــثرات، يــا كاشــف الكربات، يا نور الأرض والسّــماوات، يــا صــاحب كــلّ غــريب، يــا

1() الصحيفة العلوية الثانية: 74.

شاهدا لا يغيب، يا مؤنس كلّ وحيد، يا ملجأ كـلّ طريد، يـا راحم الشّيخ الكبير، يـا عصـمة الخـائف المتسـجير، يـا مغـني البـائس الفقير، يا فاكّ العاني الأسـير، يـا من لا يحتـاج إلى التّفسـير، يـا من هو بكلّ شيء خبير، يا من هو على كلّ شيء قدير، يا عالي المكـان، يـا شـديد الأركـان، يـا من ليس لـه ترجمـان، يـا نعم المستعان، يا قديم الإحسان، يا من هو كلّ يوم في شأن، يا من لا يخلو منه مكان، يا أجود الأجودين، يا أكرم الأكرمين، يا أسـمع السّـامعين، يـا أبصـر النّـاظرين، يـا أسـرع الحاسـبين، يـا وليّ المؤمنين، يا يد الواثقين، يا ظهر اللاّجئين، يا غياث المسـتغيثين، وجار المستجيرين، يا ربّ الأرباب، يا مسبّب الأسـباب، يـا مفتّح الأبواب، يا معتق الرّقاب، يا منشئ السّحاب، يا وهّاب، يا تـوّاب، يا من حيث ما دعي أجاب، يا فالق الإصباح، يا باعث الأرواح، يـا من بيده كلّ مفتاح، يا سابغ النّعم، يا دافع النّقم، يا بارئ النّسم، يا جامع الأمم، يا ذا الجود والكـرم، يـا عمـاد من لا عمـاد له، يـا سند من لا سند له، يا عزّ من لا عزّ له، يا حرز من لا حرز له، يا غياث من لا غياث له، يا جزيل العطاء، يا جميل الثّناء، يـا حليمـا لا يعجل، يا عليما لا يجهل، يا جوادا لا يبخل، يا قريبـا لا يغفل، يـا صاحبي في وحدتي، يا عدّتي في شـدّتي، يـا كهفي حين تعيينـي المذاهب، وتخذلني الأقارب، ويسـلمني كـلّ صـاحب، يـا رجـائي في المضيق، يا ركني الشّديد، يـا إلهي بـالتّحقيق، يـا ربّ الـبيت العتيق، يا شفيق يا رفيق، اكفني ما اطيق وما لا اطيق، وفكّـني من حلق الضّيق إلى فرجك القريب، واكفـني مـا أهمّـني ومـا لا يهمّني من أمر دنياي وآخرتي برحمتك يا أرحم الرّاحمين)[1]

إلى آخر الأدعية الكثيرة الـتي كنت تعمـر بهـا صـلاتك ومـا

1() البلد الأمين: 494 و495.

بعدها.

دعاء المخبتين:

تلك هي حالك ـ سيدي ـ في الصلاة.. أما حالك في الدعاء والمناجاة والتضرع إلى الله، فهي من أعجب الأحوال.. ولا زلنا إلى اليوم ننهل من بركات أدعيتك، ونمتلئ شوقا لتلك الروح التي كانت ترددها..

فقد كنت ـ سيدي ــ مثلما كنت تدعو إلى الصلاة بلسان حالك ومقالك.. كنت تدعو أيضا إلى الدعاء بلسان حالك ومقالك.

أما لسان مقالك.. فقد كنت ترغب في الدعاء في كل محل، وتقول: (جعل الله في يديك مفاتيح خزائنه بما أذن لك فيه من مسألته، فمتى شئت استفتحت بالدّعاء أبواب نعمته، واستمطرت شآبيب رحمته، لا يقنّطنّك إبطاء إجابته، فإنّ العطيّة على قدر النّيّة، وربّما أخّرت عنك الإجابة ليكون ذلك أعظم لأجر السّائل، وأجزل لعطاء الآمل، وربّما سألت الشّيء فلا تؤتاه، وأوتيت خيرا منه عاجلا أو آجلا، أو صرف عنك لما هو خير لك، فلربّ أمر قد طلبته فيه هلاك دينك لو أوتيته. رحب واديك، وعزّ ناديك، ولا ألمّ بك ألم، ولا طاف بك عدم)[1]

وكنت تقول مخاطبا أصحابك ومن بعدهم من مواليك وأحبابك عبر التاريخ: (لا تعجزوا عن الدّعاء، فإنّه لا يهلك مع الدّعاء أحد)[2]

وكنت تقول: (الدّعاء سلاح المؤمن، وعماد الدّين، ونور السّماوات والأرض)[3]

وكنت تقول: (الدّعاء ترس المؤمن، ومتى تكثر قرع الباب

1() ربيع الأبرار 2: 218 ـ 219.

2() ربيع الأبرار 2: 208.

3() أصول الكافي 2: 468.

يفتح لك)(1)

وكنت تقول: (الدّعاء مفاتيح النّجاح، ومقاليد الفلاح، وخير الدّعاء ما صدر عن صدر نقيّ، وقلب تقيّ، وفي المناجاة سبب النّجاة، وبالإخلاص يكون الخلاص، فإذا اشتدّ الفزع فإلى الله المفزع)(2)

وكنت تقول: (ما كان الله ليفتح باب الدّعاء ويغلق عليه باب الإجابة)(3) (من اعطي الدّعاء لم يحرم الإجابة)

وكنت تذكر لهم من وصايا رسول الله ﷺ لك قوله: (يا عليّ! أوصيك بالدّعاء ؛ فإنّ معه الإجابة، وبالشّكر ؛ فإنّ معه المزيد، وأنهاك عن أن تخفر عهدا وتعين عليه، وأنهاك عن المكر ؛ فإنّه لا يحيق المكر السّيّئ إلاّ بأهله، وأنهاك عن البغي، فإنّه من بغي عليه لينصرنّه الله)(4)

وكنت تعلمهم بالأوقات التي يستجاب فيها الدعاء، ليحرصوا عليها، وتقول: (اغتنموا الدّعاء عند أربع: عند قراءة القرآن، وعند الأذان، وعند نزول الغيث، وعند التقاء الصّفّين للشّهادة)(5)

وكنت تعلمهم آداب الدعاء، وتدربهم عليها.. ومن ذلك تعليمهم وتعليمنا معهم الثناء على الله قبل الدعاء، فقد روي عنك أنك كنت تقول: (إنّ المدحة قبل المسألة، فإذا دعوت الله عزّ وجلّ فمجّده)، فقيل لك: كيف يمجّد؟ فقلت: (تقول: يا من هو أقرب إليّ من حبل الوريد! يا فعّالا لما يريد! يا من يحول بين المرء وقلبه! يا من هو بالمنظر الأعلى! يا من هو ليس

---

(1) أصول الكافي 2: 468.

(2) وسائل الشيعة 7: 64.

(3) وسائل الشيعة 7: 27..

(4) وسائل الشيعة 7: 27..

(5) وسائل الشيعة 7: 64.

كمثله شيء)(1)

وكنت تقول: (السّؤال بعد المدح، فامدحوا اللـه عـزّ وجـلّ ثمّ اسألوا الحوائج، اثنوا على الله عزّ وجلّ وامدحوه قبـل طلب الحوائج)(2)

وكنت تعلمهم وتعلمنـا معهم أهميـة الصـلاة على النـبيّ ﷺ قبل الدعاء، فتقول: (إذا كانت لك إلى الله حاجة فابـدأ بمسـألة الصّلاة على النبيّ ﷺ، ثمّ سل حاجتـك، فـإنّ اللـه أكـرم من أن يسأل حاجتين فيقضي إحداهما ويمنع الاخرى)(3)

وكنت تقول: (كلّ دعاء محجـوب عن السّـماء حتّى يصـلّى على محمّد وآله)(4)

هذه دعواتـك سـيدي للحـرص على الـدعاء وآدابـه بلسـان مقالك.. أما دعواتك له بلسان حالك.. فهي كثيرة جدا.. بـل هي مدرسة من المدارس.. فأدعيتك ومناجياتك وتضرعاتك إلى الله تمثل تراثا عرفانيا وإيمانيا كبيرا لكل من يريد أن يسلك سبيلك، ويستن بسنتك، التي هي سنة حبيبك ﷺ.

ومن تلك الأدعية قولك: (إلهي! درسـت الآمـال، وتغيّـرت الأحوال، وكذبت الألسن، واخلفت العدة إلاّ عدتك، فإنّك وعـدت مغفرة وفضلا.. اللهمّ صلّ على محمّد وآله وأعطني من فضلك، وأعذني من الشّيطان الرّجيم. سـبحانك وبحمـدك مـا أعظمـك! وأحلمـك! وأكرمـك! وسـع بفضـل حلمـك تمـرّد المسـتكبرين، واستغرقت نعمتك شـكر الشّـاكرين، وعظم حلمـك عن إحصـاء المحصـين، وجـلّ طولـك عن وصـف الواصـفين، كيـف ــ لـو لا فضـلك ــ حلمت عمّن خلقتـه من نطفـة ولم يـك شـيئا، فربّيتـه بطيّب رزقـك، وأنشـأته في تـواتر نعمـك، ومكّنت لـه في مهـاد

1() وسائل الشيعة 7: 80..

2() وسائل الشيعة 7: 83. الخصال 2: 169.

3() وسائل الشيعة 7: 97.

4() ثواب الأعمال: 85.

أرضك، ودعوته إلى طاعتك، فاستنجد على عصـيانك بإحسـانك، وجحـدك وعبـد غـيرك في سـلطانك؟... كيـف ــ لـو لا حلمـك ـ أمهلتني، وقد شـملتني بسـترك، وأكرمتـني بمعرفتـك، وأطلقت لســاني بشــكرك، وهــديتني السّــبيل إلى طاعتــك، وســهّلتني المسلك إلى كرامتك، وأحضرتني سبيل قربتـك، فكـان جـزاؤك منّي أن كافأتــك عن الإحســان بالإســاءة، حريصــا على مــا أسخطك، متنقّلا فيما أستحقّ به المزيد من نقمتك، ســريعا إلى ما هو أبعد عن رضاك، مغتبطا بغرّة الأمل، معرضـا عن زواجـر الأجل، لم ينفعني حلمك عنّي، وقـد أتـاني توعّـدك بأخـذ القـوّة منّي، حتّى دعوتـك على عظيم الخطيئـة، أسـتزيدك في نعمـك غير متأهّب لما قد أشرفت عليه من نقمتك، مستبطئا لمزيـدك، ومتسـخّطا لميسـور رزقـك، مقتضـيا جـوائزك بعمـل الفجّـار، كالمراصد رحمتك بعمل الأبـرار، مجتهـدا أتمنّى عليـك العظـائم كالمدلّ الآمن من قصاص الجرائم، فإنّا لله وإنّـا إليـه راجعـون) (1)

وفيه قلت متضرعا: (مصيبة عظم رزؤها، وجلّ عقابها، بـل كيف ـ لو لا أملي، ووعدك الصّفح عن زللي ـ أرجو إقالتك، وقـد جاهرتك بالكبائر، مسـتخفيا عن أصـاغر خلقـك؟ فلا أنـا راقبتـك وأنت معي، ولا راعيت حرمـة سـترك عليّ. بـأيّ وجـه ألقـاك؟ وبأيّ لسان اناجيك؟ وقد نقضت العهود والأيمـان بعـد توكيـدها، وجعلتك عليّ كفيلا، ثمّ دعوتـك مقتحمـا في الخطيئـة فـأجبتني، ودعوتني وإليك فقري؟ فوا سوأتاه وقبح صنيعاه! سـبحانك أيّـة جرأة تجرّأت، وأيّ تغرير غرّرت نفسي؟ سبحانك! فبـك أتقـرّب إليــك، وبحقّــك أقســم عليــك، ومنــك أهــرب إليــك، بنفســي استخففت عند معصيتي لا بنفسك، وبجهلي اغتررت لا بحلمــك، وحقّي أضـعت لا عظيم حقّـك، ونفسـي ظلمت، ولرحمتـك الآن رجـوت، وبـك آمنت، وعليـك تـوكّلت، وإليـك أنبت وتضـرّعت، فارحم إليـك فقـري وفـاقتي، وكبـوتي لحـرّ وجهي وحـيرتي في سوأة ذنوبي، إنّك أرحم الرّاحمين)

ثم رحت تقـول: (يـا أسـمع مـدعوّ! وخـير مرجـوّ! وأحلم

---

(1) انظر الدعاء بطوله في: مهج الدعوات: 111 ـ 114.

مغض! وأقرب مستغاث! أدعوك مستغيثا بك، استغاثة المتحيّر المستيئس من إغاثة خلقك، فعد بلطفك على ضعفي، واغفر لي بسعة رحمتك كبائر ذنوبي، وهب لي عاجل صنعك، إنّك أوسع الواهبين، لا إله إلاّ أنت، سبحانك إنّي كنت من الظّالمين، يا الله يا أحد، يا الله يا صمد، يا من لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد. اللهمّ! أعيتني المطالب، وضاقت عليّ المذاهب، وأقصاني الأباعد، وملّني الأقارب، وأنت الرّجاء إذا انقطع الرّجاء، والمستعان إذا عظم البلاء، واللّجاء في الشّدّة والرّخاء، فنفّس كربة نفس إذا ذكّرها القنوط مساوئها أيست من رحمتك، ولا تؤيسني من رحمتك يا أرحم الرّاحمين)

ومن أدعيتك ـ سيدي ـ التي لا تزال تردد قولك: (اللهمّ إنّي أسألك سؤال وجل من عقابك، حذر من نقمتك، فزع إليك منك، لم يجد لفاقته مجيرا غيرك، ولا لخوفه أمنا غير فنائك وتطوّلك.. سيّدي ومولاي! على طول معصيتي لك أقصدني إليك، وإن كانت سبقتني الذّنوب، وحالت بيني وبينك ؛ لأنّك عماد المعتمد، ورصد المرتصد، لا تنقصك المواهب، ولا تغيظك المطالب، فلك المنن العظام، والنّعم الجسام.. يا من لا تنقص خزائنه، ولا يبيد ملكه، ولا تراه العيون، ولا تعزب منه حركة ولا سكون، لم تزل سيّدي ولا تزال، لا يتوارى عنك متوار في كنين أرض ولا سماء ولا تخوم، تكفّلت بالأرزاق يا رزّاق، وتقدّست عن أن تتناولك الصّفات، وتعزّزت عن أن تحيط بك تصاريف اللّغات، ولم تكن مستحدثا فتوجد متنقّلا عن حالة إلى حالة، بل أنت الفرد الأوّل والآخر، وذو العزّ القاهر، جزيل العطاء، سابغ النّعماء، أحقّ من تجاوز وعفا عمّن ظلم وأساء بكلّ لسان.. إلهي إليك أتهجّد، وفي الشّدائد عليك يعتمد، فلك الحمد والمجد لأنّك المالك الأبد، والرّبّ السّرمد، أتقنت إنشاء البرايا فأحكمتها بلطف التّدبير والتّقدير، وتعاليت في ارتفاع شأنك عن أن ينفذ فيك حكم التّغيير، أو يحتال منك بحال يصفك به الملحد إلى تبديل، أو يوجد في الزّيادة والنّقصان مساغ في اختلاف التّحويل، أو تلتثق سحائب الإحاطة بك في بحور همم الأحلام، أو تمتثل لك منها جبلّة تضلّ فيها رويّات الأوهام، فلك الحمد مولاي! انقاد الخلق مستخذئين بإقرار الرّبوبيّة، ومعترفين خاضعين لك

بالعبوديّة)[1]

إلى آخر الدعاء الممتلئ بتعظيم الله والعبودية لـه، والـذي ختمته بقولك: (اللهمّ اجعل خـير أيّـامي يـوم ألقـاك، واغفـر لي خطاياي فقد أوحشتني، وتجاوز عن ذنوبي فقـد أوبقتـني، فإنّـك مجيب منيب رقيب قريب قادر غـافر قـاهر رحيم كـريم قيّـوم، وذلك عليك يسير، وأنت أحسن الخـالقين. اللهمّ افترضـت عليّ للآبـاء والأمّهـات حقوقـا فعظّمتهنّ، وأنت أولى من حـطّ الأوزار وخفّفها، وأدّى الحقوق عن عبيده، فاحتملهنّ عنّي إليهما، واغفر لهما كما رجاك كلّ موحّـد مـع المؤمـنين والمؤمنـات والإخـوان والأخـوات، وألحقنـا وإيّـاهم بـالأبرار، وأبح لنـا ولهم جنّاتـك مـع النّجباء الأخيار، إنّك سميع الدّعاء، وصلّى الله على النّبيّ محمّـد وعترته الطّيّبين، وسلّم تسليما)

ومن أدعيتـك الـتي لا تـزال تـردد قولـك بعـد حمـد اللـه وتعظيمه: (أنت يا ربّ موضع كـلّ شـكوى، وشـاهد كـلّ نجـوى، وحاضر كلّ ملإ، ومنتهى كلّ حاجة، وفرج كلّ حزين، وغـنى كـلّ فقـير مسـكين، وحصـن كـلّ هـارب، وأمـان كـلّ خـائف. حـرز الضّعفاء، كنز الفقراء، مفرّج الغمّاء، معين الصّالحين، ذلك اللـه ربّنا لا إله إلاّ هو، تكفي من عبادك من توكّـل عليـك، وأنت جـار من لاذ بـك وتضـرّع إليـك. عصـمة من اعتصـم بـك من عبـادك، ناصـر من انتصـر بـك. تغفـر الـذّنوب لمن اسـتغفرك، جبّـار الجبابرة، عظيم العظماء، كبير الكـبراء، سـيّد السّـادات، مـولى الموالي، صـريخ المستصـرخين، منفّس عن المكـروبين، مجيب دعـوة المضـطرّين، أسـمع السّـامعين، أبصـر النّـاظرين، أحكم الحاكمين، أسـرع الحاسـبين، أرحم الـرّاحمين، خـير الغـافرين، قاضي حوائج المؤمنين، مغيث الصّالحين)[2]

وقد ختمته بقولك: (أنت اللـه لا إلـه إلاّ أنت ربّ العـالمين، أنت الخالق وأنـا المخلـوق، وأنت المالـك وأنـا المملـوك، وأنت الرّبّ وأنا العبد، وأنت الرّازق وأنا المرزوق، وأنت المعطي وأنـا

---

[1]() البلد الأمين: 92 ـ 94.

[2]() البلد الأمين: 380 ـ 381.

السّائل، وأنت الجواد وأنـا البخيـل، وأنت القـويّ وأنـا الضّـعيف، وأنت العزيز وأنا الذّليل، وأنت الغـنيّ وأنـا الفقـير، وأنت السـيّد وأنا العبد، وأنت الغافر وأنا المسيء، وأنت العالم وأنـا الجاهـل، وأنت الحليم وأنـا العجـول، وأنت الـرّاحم وأنـا المرحـوم، وأنت المعافي وأنا المبتلى، وأنت المجيب وأنـا المضـطرّ، وأنـا أشـهد بأنّك أنت الله لا إله إلاّ أنت الواحد الفرد وإليك المصير، وصـلّى الله على محمّد وأهل بيته الطّيّبين الطّاهرين)

ومن أدعيتك التي لا تزال تردد قولك: (اللهمّ أنت ربّي وأنـا عبدك، آمنت بك مخلصا لك على عهدك ووعـدك مـا اسـتطعت، وأتوب إليك من سوء عملي، وأستغفرك للذّنوب الّتي لا يغفرهـا غـيرك، أصـبح ذلّي مسـتجيرا بعزّتـك، وأصـبح فقـري مسـتجيرا بغناك، وأصـبح جهلي مسـتجيرا بحلمـك، وأصـبحت قلّـة حيلـتي مستجيرة بقدرتك، وأصبح خوفي مستجيرا بأمانك، وأصـبح دائي مسـتجيرا بـدوائك، وأصـبح سـقمي مسـتجيرا بشـفائك، وأصـبح حيني مستجيرا بقضائك، وأصبح ضعفي مستجيرا بقوّتك، وأصبح ذنبي مستجيرا بمغفرتك، وأصبح وجهي الفاني البـالي مسـتجيرا بوجهك الباقي الدّائم الّذي لا يبلى ولا يفنى)[1]

ومن أدعيتك التي لا تزال تردد قولك: (اللهمّ يا من برحمته يستغيث المذنبون، ويا من إلى إحسانه يفـزع المضـطرّون، ويـا من لخيفته ينتحب الخاطئون، يا انس كلّ مستوحش غـريب، يـا فرج كلّ مكروب حريب، يا عون كلّ مخذول فريد، يا عاضد كلّ محتاج طريد، أنت الّذي وسعت كلّ شـيء رحمـة وعلمـا، وأنت الّذي جعلت لكل مخلوق في نعمتـك سـهما، وأنت الـّذي عفـوه أعلى من عقابـه، وأنت الـّذي رحمتـه أمـام غضـبه، وأنت الـّذي إعطاؤه أكبر من منعه، وأنت الّذي وسـع الخلائـق كلّهم بعفـوه، وأنت الّذي لا يرغب في غنى من أعطـاه، وأنت الـّذي لا يفـرّط في عقاب من عصاه)[2]

وبعد أن ذكرت سـيدك ومـولاك وربـك، ومجدتـه وعظمتـه

1() البلد الأمين: 378 ـ 380..

2() شرح نهج البلاغة ـ ابن أبي الحديد 6: 180 ـ 182.

وحمدته رحت تذكر نفسك، فتقول: (وأنا يا سيّدي عبدك الّذي أمرته بالدّعاء فقال: لبّيك وسعديك، وأنا يا سيّدي عبدك الّذي أوقرت الخطايا ظهره، وأنا الّذي أفنت الذّنوب عمره، وأنا الّذي بجهله عصاك ولم يكن أهلا منه لذلك، فهل أنت يا مولاي راحم من دعاك فأجتهد في الدّعاء، أم أنت غافر لمن بكى لك فأسرع في البكاء، أم أنت متجاوز عمّن عفّر لك وجهه متذلّلا، أم أنت مغن من شكا إليك فقره متوكّلا. اللهمّ فلا تخيّب من لا يجد معطيا غيرك، ولا تخذل من لا يستغني عنك بأحد دونك. اللهمّ لا تعرض عنّي وقد أقبلت عليك، ولا تحرمني وقد رغبت إليك، ولا تجبهني بالرّدّ وقد انتصبت بين يديك، أنت الّذي وصفت نفسك بالرّحمة، وأنت الّذي سمّيت نفسك بالعفوّ فارحمني واعف عنّي، فقد ترى يا سيّدي فيض دموعي من خيفتك، ووجيب قلبي من خشيتك، وانتفاض جوارحي من هيبتك ؛ كلّ ذلك حياء منك بسوء عملي، وخجلا منك لكثرة ذنوبي، قد كلّ لساني عن مناجاتك، وخمد صوتي عن الدّعاء إليك)

وفيه تقول بمنتهى التضرع والخضوع: (سبحانك فما أعجب ما أشهد به على نفسي، وأعدّده من مكنون أمري، وأعجب من ذلك أناتك عنّي، وإبطاؤك عن معاجلتي، وليس ذلك من كرمي عليك، بل تأنّيا منك بي، وتفضّلا منك عليّ لأن أرتدع عن خطيئتي، ولأنّ عفوك أحبّ إليك من عقوبتي، بل أنا يا إلهي أكثر ذنوبا، وأقبح آثارا، وأشنع أفعالا، وأشدّ في الباطل تهوّرا، وأضعف عند طاعتك تيقّظا، وأغفل لوعيدك انتباها من أن احصي لك عيوبي، وأقدر على تعديد ذنوبي، وإنّما أوبّخ بهذا نفسي طمعا في رأفتك الّتي بها إصلاح أمر المذنبين، ورجاء لعصمتك الّتي بها فكاك رقاب الخاطئين. اللهمّ وهذه رقبتي قد أرّقتها الذّنوب فأعتقها بعفوك، وقد أثقلتها الخطايا فخفّف عنها بمنّك. اللهمّ إنّي لو بكيت حتّى تسقط أشفار عينيّ، وانتحبت حتّى ينقطع صوتي، وقمت لك حتّى تنتشر قدماي، وركعت لك حتّى ينجذع صلبي، وسجدت لك حتّى تتفقّأ حدقتاي، وأكلت التّراب طول عمري، وشربت ماء الرّماد آخر دهري، وذكرتك في خلال ذلك حتّى يكلّ لساني، ثمّ لم أرفع طرفي إلى آفاق السّماء استحياء منك، لما استوجبت بذلك محو سيّئة واحدة من

سيّئاتي، فإن كنت تغفر لي حين أستوجب مغفرتك، وتعفو عنّي حين أستحقّ عفوك، فإنّ ذلك غير واجب لي بالاستحقاق، ولا أنا أهل له على الاستيجاب ؛ إذ كان جزائي منك من أوّل ما عصيتك النّار، فإن تعذّبني فإنّك غير ظالم)

وقد ختمت هذا الدعاء الشريف بقولك: (إلهي فإن تغمّدتني بسترك فلم تفضحني، وأمهلتني بكرمك فلم تعاجلني، وحلمت عنّي بتفضّلك فلم تغيّر نعمك عليّ، ولم تكدّر معروفك عندي، فارحم طول تضرّعي وشدّة مسكنتي وسوء موقفي. اللهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد، وأنقذني من المعاصي، واستعملني بالطّاعة، وارزقني حسن الإنابة، وطهّرني بالتّوبة، وأيّدني بالعصمة، واستصلحني بالعافية، وارزقني حلاوة المغفرة، واجعلني طليق عفوك، واكتب لي أمانا من سخطك، وبشّرني بذلك في العاجل دون الآجل، بشرى أعرفها، وعرّفني له علامة أتبيّنها إنّ ذلك لا يضيق عليك في وجدك، ولا يتكاءدك في قدرتك، وأنت على كلّ شيء قدير)

ومن أدعيتك التي لا تزال تردد قولك: (إلهي إن حمدتك فبمواهبك، وإن مجّدتك فبمرادك، وإن سألتك فبقوّتك، وإن هلّلتك فبقدرتك، وإن نظرت فإلى رحمتك، وإن عضضت فعلى نعمتك. إلهي إنّه من لم يشغله الولوع بذكرك، ولم يزوه السّفه بقربك، كانت حياته عليه ميتة، وميتته عليه حسرة. إلهي تناهت أبصار النّاظرين إليك بسرائر القلوب، وطالت أسماع السّامعين لك بخفيّات الصّدور، فلم يلق أبصارهم ردّ ما يريدون، وهتكت بينك وبينهم حجب الغفلة فسكنوا في نورك، وتنفّسوا بروحك، فصارت قلوبهم مغارس لمحبّتك، وأبصارهم معاكف لقدرتك، وقرّبت أرواحهم من قدسك، فجالسوا اسمك بوقار المجالسة، وخضوع المخاطبة، فأقبلت إليهم إقبال الشّفيق، وأنصتّ إليهم إنصات الرّفيق، وأجبت لهم إجابات الأحبّاء، وناجيتهم مناجاة الأخلاّء. فابلغ بي المحلّ الّذي إليه وصلوا ولا تترك بيني وبين ملكوت عزّك بابا إلاّ فتحته، ولا حجابا من حجب الغفلة إلاّ هتكته، حتّى تقيم روحي بين ضياء عرشك، وتجعل لها مقاما نصب نورك، إنّك على كلّ شيء قدير)

وفيه تقول: (إلهي ما أوحش طريقا لا يكون رفيقي فيه أملي فيك، وأبعد سفرا لا يكون رجائي منه دليلي منك، خاب من اعتصم بحبل غيرك، وضعف ركن من استند إلى غير ركنك، فيما معلّم مؤمّليه الأمل فيذهب عنهم كآبة الوجل، لا تحرمني صالح العمل، واكلأني كلاءة من فارقته الحيل، فكيف يلحق مؤمّليك ذلّ الفقر وأنت الغنيّ عن مضارّ المذنبين؟ إلهي وإنّ كلّ حلاوة منقطعة، وحلاوة الإيمان تزداد حلاوتها اتّصالا بك. إلهي وإنّ قلبي قد بسط أمله فيك فأذقه من حلاوة بسطك إيّاه البلوغ لما أمّل، إنّك على كلّ شيء قدير. إلهي أسألك مسألة من يعرفك كنه معرفتك من كلّ خير ينبغي للمؤمن أن يسلكه، وأعوذ بك من كلّ شرّ وفتنة أعذت منها أحبّاءك من خلقك، إنّك على كلّ شيء قدير)[1] إلى آخر الدعاء الممتلئ بالعبودية.

هذا قليل من كثير من الأدعية التي حكاها لنا الرواة عنك، والتي تدل على نفسك الطاهرة، وروحك السامية الممتلئة بالعبودية لله.

1() ربيع الأبرار 2: 253..

سيدي ومولاي.. حبيب الله ورسوله..

من المعاني العظيمة التي أتـذكرها في هـذه الأيـام.. أيـام شـهادتك.. ولايتـك ومعرفتـك.. فـأنت ولي اللـه والعـارف بـه والهـادي إليـه.. وأنت الصـراط المسـتقيم.. وأنت المثـال النموذجي للشخصية المسلمة في أوج كمالها.. وكيـف لا تكـون كذلك أنت تربية رسول الله ﷺ الخالصة.. فقد ربـاك على عينـه مذ كنت صـبيا صـغيرا.. ثم ربـاك القـرآن الكـريم الـذي عشـت حياتـك كلهـا تـدافع عن تنزيلـه وتأويلـه إلى أن استشـهدت في سبيله.

وخير من عبر عن ولايتك سيدي هي كلماتك الشريفة التي تصف بها عبـاد اللـه المقـربين، ولم تكن تصـف في الحقيقـة إلا نفسـك، فـأنت نمـوذجهم الأعلى، ومثلهم الأسـمى، وقـدوتهم الحسنة.

ومن تلك الكلمـات قولـك ــ في وصـف أوليـاء اللـه ـ: (إنّ أولياء اللّه هم الّذين نظروا إلى باطن الدّنيا إذا نظر النّـاس إلى ظاهرها، واشتغلوا بآجلها إذا اشتغل النّاس بعاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم، وتركوا منها ما علموا أنّـه سـيتركهم، ورأوا استكثار غيرهم منها استقلالا، ودركهم لها فوتا، أعداء مـا سـالم النّاس، وسـلم مـا عـادى النّـاس، بهم علم الكتـاب وبـه علمـوا، وبهم قام الكتاب وبه قاموا، لا يرون مرجوّا فوق ما يرجـون، ولا مخوفا فوق ما يخافون) [1]

ومنها قولك في وصف المؤمن: (المؤمن بشره في وجهه، وحزنه في قلبه، أوسع شـيء صـدرا، وأذلّ شـيء نفسـا، يكـره الرّفعة، ويشنأ السّـمعة، طويـل غمّـه، بعيـد همّـه، كثـير صـمته، مشغول وقته، شكور صبور، مغمور بفكرته، ضنين بخلّته، سـهل الخليقة، ليّن العريكـة، نفسـه أصـلب من الصّـلد، وهـو أذلّ من

1 () نهج البلاغة: الحكمة(432)

العبد) [1]

ومنها قولك، وأنت تصف أخا لك في الله لم تسـمه: (كـان لي فيما مضى أخ في اللّه، وكان يعظمه في عيني: صغر الـدّنيا في عينه، وكان خارجا من سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجـد، ولا يكثر إذا وجد، وكان أكثر دهره صامتا، فإن قال بـذّ القـائلين، ونقع غليل السّائلين، وكان ضعيفا مستضعفا، فإن جاء الجدّ فهو ليث غاب، وصلّ واد، لا يدلي بحجّـة حتّى يـأتي قاضـيا، وكـان لا يلوم أحـدا على مـا يجـد العـذر في مثلـه حتّى يسـمع اعتـذاره، وكان لا يشكو وجعا إلّا عند برئه، وكان يقول ما يفعل، ولا يقول ما لا يفعل، وكان إذا غلب على الكلام لم يغلب على السّـكوت، وكان على ما يسمع أحرص منه على أن يتكلّم، وكـان إذا بدهـه أمران ينظر أيّهما أقرب إلى الهوى فيخالفه([2]

ثم قلت لأصحابك واعظا: (فعليكم بهذه الخلائق فالزموها، وتنافسوا فيها، فإن لم تستطيعوها فاعلموا أنّ أخذ القليـل خـير من ترك الكثير)

وهكذا عرفت الولاية من خلال وصفك لأصحاب رسول الله ﷺ النجباء الـذين أحسـنوا الصـحبة، وأعطوهـا حقهـا، وحـافظوا على عهـودهم لرسـول اللـه ﷺ، ولم يبيعوهـا بمتـاع من الـدنيا قليل، فقد قلت في وصفهم: (لقد رأيت أصحاب محمّد ﷺ، فمـا أرى أحدا يشبههم منكم! لقـد كـانوا يصـبحون شـعثا غـبرا، وقـد باتوا سجّدا وقيامـا، يراوحـون بين جبـاههم وخـدودهم، ويقفـون على مثــل الجمــر من ذكــر معــادهم! كــأنّ بين أعينهم ركب المعزى من طـول سـجودهم! إذا ذكـر اللّـه هملت أعينهم حتّى تبلّ جيوبهم، ومادوا كما يميد الشّجر يوم الرّيح العاصـف، خوفـا من العقاب، ورجاء للثّواب)[3]

وكنت تضرب لهم الأمثلة على هؤلاء الأوليـاء الأصـفياء من

1() نهج البلاغة: الحكمة(333)

2() نهج البلاغة: الحكمة(289)

3() نهج البلاغة: خطبه 70 ص 99.

أصحاب رسول الله ﷺ.. ومن ذلك قولك عند استشهاد عمار بن ياسر: (إن امرأ من المسلمين لم يعظم عليه قتل عمار، ولم يدخل عليه بقتله مصيبة موجوعة، لغير رشيد. رحم اللّه عمارا يوم أسلم، ورحم اللّه عمارا يوم قتل، ورحم اللّه عمارا يوم يبعث حيا. لقد رأيت عمارا ما يذكر من أصحاب رسول اللّه ﷺ أربعة إلا كان الرابع، ولا خمسة إلّا كان الخامس. وما كان أحد من أصحاب محمد ﷺ يشكّ في أن عمارا قد وجبت له الجنة في غير موطن ولا اثنين، فهنيئا لعمار الجنة، عمار مع الحق أين ما دار، وقاتل عمار في النار) [1]

أما معارفك سيدي، والمرتبطة بولايتك.. والتي هي هبة من الله لقلبك الطاهر الذي لم يزغ، ولم تنحرف به السبل عن منهاج رسول الله ﷺ.. فهي كثيرة جدا.. وهي كفيلة بأن تقضي على كل ذلك الدجل الذي حرفت به العقائد، فارتبطت بالخرافة والأسطورة، بقدر ابتعادك عنك، وبقدر ارتباطها بالدجالين والمحرفين الذين كلفت بحربهم ومواجهتهم.

لكني سأقتصر هنا على أربعة أنواع من المعارف الكبرى.. لو أن الأمة اعتصمت فيها بكلامك، لما وقع بينها الضلال في العقائد، ولما دخل التجسيم والخرافة والأسطورة لهذه الأمة، كما دخل على الأمم قبلها.

المعرفة بالله:

أما معرفتك ـ سيدي ـ بالله، وتعريفك به.. فهو في منتهى الجمال والقوة والعقلانية.. وهو يتوافق تماما مع كل المعارف القرآنية، بل لا يصطدم بأي حرف منها، وهل يمكن أن يتعارض القرآن الصامت مع القرآن الناطق.

ولا يمكنني هنا أن أسرد عليك ما وصلنا من أقوالك في المعارف الإلهية، ولكني سأشرف لساني بذكر بعضها..

فمن ذلك قولك في تلك الخطبة التي وضعت فيها الأسس الكبرى للمعرفة الإلهية، لتحميها من التجسيم والخرافة

1 () مستدرك نهج البلاغة للمحمودي: ج 2 ص 238- 239، عن أنساب الأشراف: ج 1 ص 174 ح 419، والطبقات الكبرى: ج 3 ص 262.

والشرك والاتحاد والحلول، فقلت: (أوّل الدّين معرفتـه، وكمـال معرفته التّصديق به، وكمال التّصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصّفات عنه، لشـهادة كـلّ صفة أنّها غير الموصوف، وشهادة كلّ موصوف أنّه غير الصّـفة. فمن وصف اللّه سبحانه فقد قرنـه، ومن قرنـه فقـد ثنّـاه، ومن ثنّاه فقد جزّأه، ومن جزّأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشـار إليـه فقـد حـدّه، ومن حـدّه فقـد عـدّه، ومن قـال: (فيم؟) فقد ضمّنه، ومن قال: (على م؟) فقـد أخلى منـه. كـائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كلّ شيء لا بمقارنة، وغـير كلّ شيء لا بمزايلة، فاعل لا بمعنى الحركات والآلة، بصير إذ لا منظـور إليـه من خلقـه، متوحّـد إذ لا سـكن يسـتأنس بـه، ولا يستوحش لفقده) [1]

ثم رحت تصف فيها كيفية خلق العالم، لتنفي كل الضلالات المرتبطة بذلك، فقلت: (أنشأ الخلق إنشـاء، وابتـدأه ابتـداء، بلا رويّة أجالها، ولا تجربة اسـتفادها، ولا حركـة أحـدثها، ولا همامـة نفس اضطرب فيها، أحال الأشياء لأوقاتها، ولأم بين مختلفاتهـا، وغرّز غرائزها، وألزمها أشباحها، عالما بها قبل ابتـدائها، محيطـا بحدودها وانتهائها، عارفا بقرائنها وأحنائها)

ومن كلامك في المعرفة الإلهية، والذي لا نزال نردده تلـك الخطبة العظيمة الـتي رواهـا لنـا تلميـذ النجيب نـوف البكـاليّ، وقال ـ واصفا الحال التي كنت عليها حين ألقيتها ـ: خطبنا بهـذه الخطبة أمـير المؤمـنين عليّ بالكوفـة وهـو قـائم على حجـارة، نصبها له جعدة بن هبيرة المخزوميّ، وعليه مدرعة من صـوف، وحمائل سـيفه ليـف، وفي رجليـه نعلان من ليـف، وكـأنّ جبينـه ثفنة من أثر السجود) [2]

ثم راح يسرد الخطبة بطولهـا، وممـا ورد فيهـا ممـا يتعلـق بالمعـارف الإلهيـة قولـك: (لم يولـد سـبحانه فيكـون في العـزّ مشـاركا، ولم يلـد فيكـون موروثـا هالكـا، ولم يتقدّمـه وقت ولا

1() نهج البلاغة: الخطبة رقم 1.

2() نهج البلاغة: الخطبة رقم 182.

زمان، ولم يتعاوره زيادة ولا نقصان، بل ظهر للعقول بما أرانا من علامات التّدبير المتقن، والقضاء المبرم)

ثم رحت ـ سيدي ـ تسرد شواهد العظمة من خلال دعوتك للنظر في الكون.. فالكون هو دليل المكون، فقلت: (فمن شواهد خلقه خلق السّماوات موطّدات بلا عمد، قائمات بلا سند، دعاهنّ فأجبن طائعات مذعنات، غير متلكّئات ولا مبطئات، ولو لا إقرارهنّ له بالرّبوبيّة، وإذعانهنّ بالطّواعية، لما جعلهنّ موضعا لعرشه، ولا مسكنا لملائكته، ولا مصعدا للكلم الطّيّب، والعمل الصّالح من خلقه.. فسبحان من لا يخفى عليه سواد غسق داج، ولا ليل ساج، في بقاع الأرضين المتطأطئات، ولا في يفاع السّفع المتجاورات، وما يتجلجل به الرّعد في أفق السّماء، وما تلاشت عنه بروق الغمام، وما تسقط من ورقة، تزيلها عن مسقطها عواصف الأنواء، وانهطال السّماء، ويعلم مسقط القطرة ومقرّها، ومسحب الذّرّة ومجرّها، وما يكفي البعوضة من قوتها، وما تحمل الأنثى في بطنها)

ثم رحت تنزه الله عن المحل والمكان والزمان والآلة، وكل ما هو من شيم النقصان، فقلت: (الحمد للّه الكائن قبل أن يكون كرسيّ أو عرش، أو سماء أو أرض، أو جانّ أو إنس، لا يدرك بوهم، ولا يقدّر بفهم، ولا يشغله سائل، ولا ينقصه نائل، ولا ينظر بعين، ولا يحدّ بأين، ولا يوصف بالأزواج، ولا يخلق بعلاج ولا يدرك بالحواسّ، ولا يقاس بالنّاس، الّذي كلّم موسى تكليما، وأراه من آياته عظيما، بلا جوارح ولا أدوات، ولا نطق ولا لهوات)

ثم رحت لأولئك الذين جسموا الله وقيدوه وحدوه، وما أكثرهم في عصرك.. وما أكثرهم في العصور التي تلتك، تتحداهم، وتقول: (بل إن كنت صادقا أيّها المتكلّف لوصف ربّك، فصف جبريل وميكائيل، وجنود الملائكة المقرّبين، في حجرات القدس مرجحنّين، متولّهة عقولهم، أن يحدّوا أحسن الخالقين. فإنّما يدرك بالصّفات، ذوو الهيئات والأدوات، ومن ينقضي إذا بلغ أمد حدّه بالفناء، فلا إله إلّا هو، أضاء بنوره كلّ ظلام، وأظلم

بظلمته كلّ نور)

ومن كلماتـك النـيرة في المعرفـة الإلهيـة، مـا ذكرتـه في خطبتك المعروفة بالوسيلة، والتي قلت فيها: (الحمد للـه الـذي أعـدم الأوهـام أن تنـال إلى وجـوده، وحجب العقـول أن تختـال ذاته، لامتناعهـا من الشّـبه والتشـاكل، بـل هـو الـذي لا تتفـاوت ذاتــه، ولا تتبعّض بتجزئــة العــدد في كمالــه. فــارق الأشــياء لا باختلاف الأماكن، ويكون فيها لا على الممازجة، وعلمها لا بـأداة لا يكون العلم إلّا بها، وليس بينـه وبين معلومـه علم غـيره كـان عالما لعلومـه. إن قيـل: كـان، فعلى تأويـل أزليّـة الوجـود. وإن قيـل: لم يـزل، فعلى تأويـل نفي العـدم، فسـبحانه وتعـالى عن قول من عبد سواه فاتّخذ إلها غيره علوّا كبيرا) (1)

ومن كلماتك النيرة في المعرفة الإلهية، قولك في القــرب الإلهي ومعناه: (الحمد للّه الّذي بطن خفيّات الأمور، ودلّت عليه أعلام الظّهـور، وامتنـع على عين البصـير، فلا عين من لم يـره تنكره، ولا قلب من أثبته يبصره. سبق في العلوّ فلا شيء أعلى منه، وقرب في الدّنوّ فلا شيء أقرب منه، فلا اسـتعلاؤه باعـده عن شيء من خلقه، ولا قربه ساواهم في المكان بـه. لم يطلـع العقول على تحديد صفته، ولم يحجبها عن واجب معرفتـه، فهـو الّـذي تشـهد لـه أعلام الوجـود، على إقـرار قلب ذي الجحـود، تعالى اللّه عمّا يقوله المشبّهون به، والجاحدون له علـوّا كبـيرا) (2)

ومن خطبك في المعرفة الإلهية هذه الخطبـة الـتي نـزهت اللــه فيهــا وقدســته عمــا لا يليــق بجلالــه، فقلت: (الحمــد للّــه المعروف من غير رؤية، والخالق من غـير رويّـة، الّـذي لم يـزل قائما دائما، إذ لا سماء ذات أبراج، ولا حجب ذات إرتاج، ولا ليل داج، ولا بحـر سـاج، ولا جبـل ذو فجـاج، ولا فجّ ذو اعوجـاج، ولا أرض ذات مهاد، ولا خلق ذو اعتماد، ذلك مبتدع الخلـق ووارثـه، وإلــه الخلــق ورازقــه، والشّــمس والقمــر دائبــان في مرضــاته،

1 () مستدرك نهج البلاغة للمحمودي: ج 1 ص 48- 63 الخطبة رقم(13)

2 () نهج البلاغة: الخطبة رقم 49.

يبليان كلّ جديد، ويقرّبان كلّ بعيد. قسم أرزاقهم، وأحصى آثارهم وأعمالهم، وعدد أنفاسهم، وخائنة أعينهم، وما تخفي صدورهم من الضّمير، ومستقرّهم ومستودعهم من الأرحام والظّهور، إلى أن تتناهى بهم الغايات. هو الّذي اشتدّت نقمته على أعدائه في سعة رحمته، واتّسعت رحمته لأوليائه في شدّة نقمته، قاهر من عازّه، ومدمّر من شاقّه، ومذلّ من ناواه، وغالب من عاداه، من توكّل عليه كفاه، ومن سأله أعطاه، ومن أقرضه قضاه، ومن شكره جزاه) (1)

ومن كلماتك في المعرفة الإلهية هذه الخطبة التي بينت فيها عظمة الله التي لا تحد ولا تقدر، فقلت: (الحمد للّه الّذي لم تسبق له حال حالا، فيكون أوّلا قبل أن يكون آخرا، ويكون ظاهرا قبل أن يكون باطنا. كلّ مسمّى بالوحدة غيره قليل، وكلّ عزيز غيره ذليل، وكلّ قويّ غيره ضعيف، وكلّ مالك غيره مملوك، وكلّ عالم غيره متعلّم، وكلّ قادر غيره يقدر ويعجز، وكلّ سميع غيره يصمّ عن لطيف الأصوات، ويصمّه كبيرها، ويذهب عنه ما بعد منها، وكلّ بصير غيره يعمى عن خفيّ الألوان، ولطيف الأجسام، وكلّ ظاهر غيره باطن، وكلّ باطن غيره غير ظاهر. لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان، ولا تخوّف من عواقب زمان، ولا استعانة على ندّ مثاور، ولا شريك مكاثر، ولا ضدّ منافر، ولكن خلائق مربوبون، وعباد داخرون. لم يحلل في الأشياء فيقال: هو فيها كائن. ولم ينأ عنها فيقال: هو منها بائن. لم يؤده خلق ما ابتدأ، ولا تدبير ما ذرأ، ولا وقف به عجز عمّا خلق، ولا ولجت عليه شبهة فيما قضى وقدّر، بل قضاء متقن، وعلم محكم، وأمر مبرم، المأمول مع النّقم، المرهوب مع النّعم) (2)

ومنها خطبتك العظيمة المعروفة بـ (خطبة الأشباح) (3)، والتي أجبت فيها عمن طلب منك أن تصف الله تعالى حتى

---

(1) نهج البلاغة: الخطبة رقم 90.

(2) نهج البلاغة: الخطبة رقم .65.

(3) نهج البلاغة: الخطبة رقم 91.

كأنه يراه عيانا، فقلت له: (الحمد للّه الّذي لا يفره المنع والجمود، ولا يكديه الإعطاء والجود، إذ كلّ معط منتقص سواه، وكلّ مانع مذموم ما خلاه، وهو المنّان بفوائد النّعم، وعوائد المزيد والقسم، عياله الخلائق، ضمن أرزاقهم، وقدّر أقواتهم، ونهج سبيل الرّاغبين إليه، والطّالبين ما لديه، وليس بما سئل بأجود منه بما لم يسأل. الأوّل الّذي لم يكن له قبل فيكون شيء قبله، والآخر الّذي ليس له بعد فيكون شيء بعده، والرّادع أناسيّ الأبصار عن أن تناله أو تدركه، ما اختلف عليه دهر فيختلف منه الحال، ولا كان في مكان فيجوز عليه الانتقال. ولو وهب ما تنفّست عنه معادن الجبال، وضحكت عنه أصداف البحار، من فلزّ اللّجين والعقيان، ونثارة الدّرّ وحصيد المرجان، ما أثّر ذلك في جوده، ولا أنفد سعة ما عنده، ولكان عنده من ذخائر الأنعام ما لا تنفده مطالب الأنام، لأنّه الجواد الّذي لا يغيضه سؤال السّائلين، ولا يبخله إلحاح الملحّين)

ثم رحت تحذره والأمة من بعده عن الرغبة عن المعارف القرآنية إلى المعارف البشرية الشيطانية التي تشوه الله في الوقت الذي تدعي تنزيهه وتعظيمه، فقلت له: (فانظر أيّها السّائل، فما دلّك القرآن عليه من صفته فائتمّ به، واستضئ بنور هدايته، وما كلّفك الشّيطان علمه، ممّا ليس في الكتاب عليك فرضه، ولا في سنّة النّبيّ ﷺ وأئمّة الهدى عليهم السّلام أثره، فكل علمه إلى اللّه سبحانه، فإنّ ذلك منتهى حقّ اللّه عليك)

ثم رحت تبين له صفة المعرفة الإلهية عند الراسخين في العلم، فقلت: (و اعلم أنّ الرّاسخين في العلم، هم الّذين أغناهم عن اقتحام السّدد المضروبة دون الغيوب، الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فمدح اللّه تعالى اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علما، وسمّى تركهم التّعمّق فيما لم يكلّفهم البحث عن كنهه رسوخا. فاقتصر على ذلك، ولا تقدّر عظمة اللّه سبحانه على قدر عقلك، فتكون من الهالكين)

ولو أن الأمة سيدي أخذت منك هـذه النصـيحة الغاليـة لمـا دب الخلاف بينهـا، ولمـا قـام للخرافـة والشـرك فيهـا سـوق.. ولكنها أعرضت عنها، وراحت إلى تراث الأمم الأخرى تنهل منه، بعد أن أعرضت عن سفينة نجاتها، وحبل الله الممدود إليها.

ثم رحت ـ سـيدي ـ تـبين اسـتحالة معرفـة اللـه من خلال الوهم أو الفكر أو أي سبيل.. فقلت: (هو القادر الّذي إذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع قدرته، وحاول الفكر المـبرّأ من خطـرات الوساوس أن يقـع عليـه في عميقـات غيـوب ملكوتـه، وتـولّهت القلوب إليه لتجري في كيفيّة صفاته، وغمضت مـداخل العقـول في حيث لا تبلغه الصّفات لتناول علم ذاته، ردعهـا وهي تجـوب مهاوي سدف الغيوب، متخلّصة إليه سبحانه، فرجعت إذ جبهت، معترفة بأنّه لا ينال بجور الاعتساف كنه معرفته، ولا تخطر ببال أولي الرّويّات خاطرة من تقدير جلال عزّته)

ثم رحت تـرد على المجسـمة الـذي كـانت الفئـة الباغيـة تقربهم وتصلهم لينشروا سمومهم في الأمة، ويحرفوا عقائـدها، فقلت: (كذب العادلون بك إذ شبّهوك بأصنامهم، ونحلـوك حليـة المخلوقين بأوهامهم، وجزّؤوك تجزئة المجسّـمات بخـواطرهم، وقدّروك على الخلقة المختلفة القوى بقـرائح عقـولهم، وأشـهد أنّ من ساواك بشـيء من خلقـك فقـد عـدل بـك، والعـادل بـك كافر بما تنزّلت به محكمـات آياتـك، ونطقت عنـه شـواهد حجج بيّناتك، وإنّك أنت اللّـه الّـذي لم تتنـاه في العقـول، فتكـون في مهبّ فكرهـا مكيّفـا، ولا في رويّـات خواطرهـا فتكـون محـدودا مصرّفا)

ثم رحت سيدي تسـرد من نـواحي القـدرة الإلهيـة مـا يملأ القلوب مهابة وتعظيما، فقلت: (قـدّر مـا خلـق فـأحكم تقـديره، ودبّره فألطف تدبيره، ووجّهه لوجهتـه فلم يتعـدّ حـدود منزلتـه، ولم يقصــر دون الانتهــاء إلى غايتــه، ولم يستصــعب إذ أمــر بالمضيّ على إرادته، فكيف وإنّما صدرت الأمـور عن مشـيئته؟. المنشئ أصناف الأشياء بلا رويّة فكر آل إليها، ولا قريحة غريزة أضمر عليها، ولا تجربـة أفادهـا من حـوادث الـدّهور، ولا شـريك

أعانـه على ابتـداع عجـائب الأمـور، فتمّ خلقـه بـأمره، وأذعن لطاعته، وأجاب إلى دعوته، لم يعـترض دونـه ريث المبطئ، ولا أنـاة المتلكّئ، فأقـام من الأشـياء أودهـا، ونهج حـدودها، ولاءم بقدرته بين متضـادّها، ووصـل أسـباب قرائنهـا، وفرّقهـا أجناسـا مختلفات في الحدود والأقدار، والغرائـز والهيئـات، بـدايا خلائـق أحكم صنعها، وفطرها على ما أراد وابتدعها)

ومن كلماتك ـ سيدي ـ في المعرفة الإلهيـة هـذه الكلمـات التي تبين فيها علاقة الكائنـات بباريهـا، وعلاقتـه بهـا، فقـد قلت فيها: (كلّ شيء خاشع له، وكلّ شيء قائم به، غـنى كـلّ فقـير، وعزّ كلّ ذليل، وقوّة كلّ ضعيف، ومفزع كـلّ ملهـوف، من تكلّم سمع نطقه، ومن سـكت علم سـرّه، ومن عـاش فعليـه رزقـه، ومن مات فإليه منقلبه. لم ترك العيـون فتخـبر عنـك، بـل كنت قبـل الواصـفين من خلقـك. لم تخلـق الخلـق لوحشـة، ولا اسـتعملتهم لمنفعـة، ولا يسـبقك من طلبت، ولا يفلتـك من أخذت، ولا ينقص سلطانك من عصـاك، ولا يزيـد في ملكـك من أطاعك، ولا يردّ أمرك من سخط قضاءك، ولا يستغني عنـك من تولّى عن أمرك. كلّ سرّ عندك علانية، وكلّ غيب عندك شهادة، أنت الأبـد فلا أمـد لـك، وأنت المنتهى فلا محيص عنـك، وأنت الموعد فلا منجى منك إلّا إليـك، بيـدك ناصـية كـلّ دابّـة، وإليـك مصير كلّ نسمة) [1]

ومنها قولك في وصيتك لابنـك الحسـن في دلائـل التوحيد، والتي تقول فيها له: (واعلم يا بـنيّ، أنّـه لـو كـان لربّـك شـريك لأتتـك رسـله، ولـرأيت آثـار ملكـه وسـلطانه، ولعـرفت أفعالـه وصفاته، ولكنّه إله واحد كما وصف نفسـه، لا يضـادّه في ملكـه أحد، ولا يزول أبدا ولم يـزل، أوّل قبـل الأشـياء بلا أوّليّـة، وآخـر بعد الأشياء بلا نهاية، عظم عن أن تثبت ربوبيّته بإحاطـة قلب أو بصر) [2]

ومنها قولك في خطبة أخرى تنزه الله فيهـا عن ادعـاءات

---

1 () نهج البلاغة: الخطبة رقم 109.

2 () نهج البلاغة: الكتاب رقم(31)

المجسمة والحشوية وتبرهن على ذلـك بأصـناف الأدلـة الـتي لا تجد العقول السليمة إلا أن تستسلم لها: (الحمد للّه الدّالّ على وجوده بخلقه، وبمحدث خلقه على أزليّتـه، وباشـتباههم على أن لا شبه لـه، لا تسـتلمه المشـاعر، ولا تحجبـه السّـواتر، لافـتراق الصّانع والمصنوع، والحادّ والمحدود، والرّبّ والمربوب. الأحد بلا تأويل عدد، والخالق لا بمعنى حركة ونصـب، والسّـميع لا بـأداة، والبصير لا بتفريق آلة، والشّاهد لا بمماسّـة، والبـائن لا بـتراخي مسافة، والظّاهر لا برؤية، والباطن لا بلطافة. بـان من الأشـياء بالقهر لهـا، والقـدرة عليهـا، وبـانت الأشـياء منـه بالخضـوع لـه، والرّجوع إليه. من وصفه فقد حـدّه، ومن حـدّه فقـد عـدّه، ومن عدّه فقد أبطـل أزلـه، ومن قـال: كيـف؟ فقـد استوصـفه، ومن قـال: أين؟ فقـد حيّـزه. عـالم إذ لا معلـوم، وربّ إذ لا مربـوب، وقادر إذ لا مقدور) [1]

ومن ذلـك كلماتـك سـيدي الـتي كنت تـرد بهـا على نفـاة القدر.. ومنهـا هـذه المحاججـة الـتي نقلت لنـا عنـك، فقـد ذكـر المحــدثون أن ســائلا ســألك عن القــدر[2]، فقــال: يــا أمــير المؤمنين، أخـبرني عن القـدر؟ فأجبتـه: بحـر عميـق فلا تلجـه.. فعـاد فسـأل، فأجبتـه: سـرّ اللّـه عـزّ وجـلّ قـد خفي عليـك فلا تفشه.. فعـاد فسـأل، فأجبتـه: أيّهـا السـائل، إنّ اللّـه عـزّ وجـل خلقك لما شاء أو لما شـئت؟ فقـال: بـل لمـا شـاء.. فقلت لـه: فيستعملك لما شاء أو لما شئت؟.. قـال: بـل لمـا شـاء.. فقلت له: أيّها السائل، أ لست تسأل ربّك العافية؟.. قال: بلى.. فقلت له: فمن أيّ شيء تسـأله العافيـة، من البلاء الـذي ابتلاك بـه أو البلاء الذي ابتلى به غيرك؟.. قال: بل من البلاء الذي ابتلاني بـه هو.. فقلت له: أيّها السائل، ألست تقول: لا حول ولا قــوّة إلّا... بمن؟.. قـال: إلّا باللـه العلي العظيم.. فقلت لـه: أيّهـا السـائل، أتعلم مـا تفسـيرها؟.. قـال: علّمـني ممـا علّمـك اللّـه يـا أمـير المؤمنين؟.. فقلت له: فإنّ تفسيره أن العبد لا يقدر على طاعة اللّه، ولا تكون له قوّة في معصـية في الأمـرين جميعـا إلّا باللـه

---

1 () نهج البلاغة: الخطبة رقم 152.

2 () دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم، للقاضي القضاعي، ص 107- 109.

جلّ وعزّ.

ثم رحت تضع له الاحتمالات في ذلك، وقلت: (أيّها السائل، ألك مع اللّه جلّ وعزّ مشيئة، أو فوق اللّه مشـيئة، أو دون ذلـك مشيئة؟ فإن زعمت أن لك دون اللّـه مشـيئته فقـد اكتفيت بهـا عن مشـيئة اللّـه، وإن زعمت أنّ لـك فـوق اللّـه مشـيئة فقـد زعمت أنّ قوّتك ومشيئتك غالبتان على قوّة اللّه ومشـيئته، وإن زعمت أنّ لك مع اللّه عزّ وجل مشـيئة فقـد زعمت أنّ لـك مـع اللّه شركا في مشيئته)

ثم قلت له: أيّها السائل، إنّ اللّه عـزّ وجـل يصـح ويـداوي، منه الدّاء ومنه الدواء، أعقلت؟.. فقال: نعم.

وغيرهـا من كلماتـك ــ سـيدي ــ الـتي حفظت بهـا حمى التوحيــد من أن يصــيبه دنس التشــبيه والتجســيم والشــرك والحلول والاتحاد.. كما أصاب غيرنـا من الأمم، بـل كمـا أصـاب من غفلوا عن هديك وهـدي قـرآنهم ونـبيهم وراحـو إلى المنـابع المدنسة يأخذون عنها.

المعرفة بملائكة الله:

تلك قطرة من بحر معارفك بالله.. أما المعارف المرتبطـة بعالم الملائكة.. فقد بثثت لنا منهـا الكثـير.. ولـو أننـا تـدبرنا مـا ذكرت، وأعملناه، كما أوصانا بـذلك رسـول اللـه ﷺ، لمـا دخلت تلك التشويهات والتدنيسات لهذه العوالم المقدسة.

ومن ذلك وصفك للملائكة عليهم السلام، وتنزيهك لهم عن تلـك الأوصـاف الـتي كـانت تنتشـر في المجتمـع حينهـا، والـتي سربتها إلى الإسلام خرافات الأمم السابقة.

فقد قلت ـ سيدي ـ في خطبة من خطبك تصــفهم: (.. من ملائكة أسكنتهم سماواتك، ورفعتهم عن أرضك، هم أعلم خلقك بـك، وأخـوفهم لـك، وأقـربهم منـك. لم يسـكنوا الأصـلاب، ولم يضمّنوا الأرحام، ولم يخلقوا من مــاء مهين، ولم يتشـعّبهم ريب المنون. وإنّهم على مكانهم منك، ومـنزلتهم عنـدك، واسـتجماع

أهوائهم فيك، وكثرة طاعتهم لـك، وقلّـة غفلتهم عن أمـرك، لـو عاينوا كنه ما خفي عليهم منك، لحقّـروا أعمـالهم، ولـزروا على أنفسهم، ولعرفـوا أنّهم لم يعبـدوك حـقّ عبادتـك، ولم يطيعـوك حقّ طاعتك) (1)

وقلت في خطبـــة أخـــرى: (ثمّ خلـــق ســـبحانه لإســـكان سماواته، وعمارة الصّـفيح الأعلى من ملكوتـه، خلقـا بـديعا من ملائكته، وملأ بهم فروج فجاجها، وحشا بهم فتوق أجوائهـا، وبين فجوات تلك الفروج زجل المسبّحين منهم في حظـائر القـدس، وسترات الحجب، وسرادقات المجد، ووراء ذلـك الـرّجيج الّـذي تسـتكّ منـه الأسـماع، سـبحات نـور تـردع الأبصـار عن بلوغهـا، فتقـف خاسـئة على حـدودها. وأنشـأهم على صـور مختلفـات، وأقدار متفاوتات، أُولِي أَجْنِحَةٍ تسبّح جلال عزّته، لا ينتحلـون مـا ظهر في الخلق من صنعه، ولا يدّعون أنّهم يخلقـون شـيئا معـه ممّا انفرد به، ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُون (26) لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُون﴾ [الأنبياء:26-27].. جعلهم اللّه فيما هنالـك أهـل الأمانة على وحيه، وحمّلهم إلى المرسـلين ودائـع أمـره ونهيـه، وعصمهم من ريب الشّبهات، فما منهم زائغ عن سبيل مرضاته، وأمدّهم بفوائد المعونة، وأشعر قلوبهم تواضع إخبـات السّـكينة، وفتح لهم أبوابا ذللا إلى تماجيده، ونصب لهم منارا واضحة على أعلام توحيـده. لم تثقلهم مؤصـرات الآثـام، ولم تـرتحلهم عقب اللّيالي والأيّام، ولم ترم الشّكوك بنوازعها عزيمـة إيمـانهم، ولم تعترك الظّنون على معاقد يقينهم، ولا قدحت قادحة الإحن فيما بينهم، ولا سلبتهم الحـيرة مـا لاق من معرفتـه بضـمائرهم، ومـا سكن من عظمته وهيبة جلالتـه في أثنـاء صـدورهم، ولم تطمـع فيهم الوساوس فتقترع برينها على فكرهم) (2)

المعرفة برسل الله:

أمـا مـا وصـلنا من معارفـك حـول الأنبيـاء عليهم الصـلاة والسلام، فهي في منتهى السمو والرفعـة.. وهي تـرد على كـل

1() نهج البلاغة: الخطبة رقم 109.

2() نهج البلاغة: الخطبة رقم 91.

أولئك الجحافل الذين حاولوا أن يشوهوا النبوة ويدنسوها..

ومن كلماتك التي لا نزال نرددها قولك: (واصطفى سبحانه من ولده أنبياء، أخذ على الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرّسالة أمانتهم، لمّا بدّل أكثر خلقه عهد اللّه إليهم، فجهلوا حقّه، واتّخذوا الأنداد معه، واجتالتهم الشّياطين عن معرفته، واقتطعتهم عن عبادته. فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكّروهم منسيّ نعمته، ويحتجّوا عليهم بالتّبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول، ويروهم آيات المقدرة، من سقف فوقهم مرفوع، ومهاد تحتهم موضوع، ومعايش تحييهم، وآجال تفنيهم، وأوصاب تهرمهم، وأحداث تتابع عليهم. ولم يخل اللّه سبحانه خلقه من نبيّ مرسل، أو كتاب منزل، أو حجّة لازمة، أو محجّة قائمة، رسل لا تقصّر بهم قلّة عددهم، ولا كثرة المكذّبين لهم، من سابق سمّي له من بعده، أو غابر عرّفه من قبله، على ذلك نسلت القرون، ومضت الدّهور، وسلفت الآباء، وخلفت الأبناء) [1]

وفي خطبة أخرى قلت تذكرهم: (فلمّا مهد أرضه، وأنفذ أمره، اختار آدم عليه السّلام خيرة من خلقه، وجعله أوّل جبلّته، وأسكنه جنّته، وأرغد فيها أكله، وأو عز إليه فيما نهاه عنه، وأعلمه أنّ في الإقدام عليه التّعرّض لمعصيته، والمخاطرة بمنزلته. فأقدم على ما نهاه عنه، موافاة لسابق علمه، فأهبطه بعد التّوبة، ليعمر أرضه بنسله، وليقيم الحجّة به على عباده. ولم يخلهم بعد أن قبضه، ممّا يؤكّد عليهم حجّة ربوبيّته، ويصل بينهم وبين معرفته، بل تعاهدهم بالحجج على ألسن الخيرة من أنبيائه، ومتحمّلي ودائع رسالاته، قرنا فقرنا، حتّى تمّت بنبيّنا محمّد ﷺ حجّته، وبلغ المقطع عذره ونذره) [2]

وهكذا كنت تستشهد بهم، وبهديهم كل حين.. ومن ذلك قولك في هذه الخطبة التي ذكرت فيها زهد الأنبياء عليهم السلام، فقلت عن موسى الكليم عليه السّلام: (و إن شئت

[1] () نهج البلاغة: ضمن الخطبة رقم 1.

[2] () نهج البلاغة: ضمن الخطبة رقم 91.

ثنّيت بموسى كليم اللّه عليه السّلام حيث يقول: رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ، واللّه ما سأله إلّا خبزا يأكله، لأنّه كان يأكل بقلة الأرض، ولقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه، لهزاله وتشذّب لحمه)

وقلت عن داود عليه السلام: (و إن شئت ثلّثت بداود عليه السّلام صاحب المزامير، وقارئ أهل الجنّة، فلقد كان يعمل سفائف الخوص بيده، ويقول لجلسائه: أيّكم يكفيني بيعها؟ ويأكل قرص الشّعير من ثمنها)

وقلت عن عيسى المسيح عليه السّلام: (و إن شئت قلت في عيسى ابن مريم عليه السّلام فلقد كان يتوسّد الحجر، ويلبس الخشن، ويأكل الجشب، وكان إدامه الجوع، وسراجه باللّيل القمر، وظلاله في الشّتاء مشارق الأرض ومغاربها، وفاكهته وريحانه ما تنبت الأرض للبهائم، ولم تكن له زوجة تفتنه، ولا ولد يحزنه، ولا مال يلفته، ولا طمع يذلّه، دابّته رجلاه، وخادمه يداه)

وهكذا كنت تثني عليهم، وتبين فضلهم وخلالهم وسموهم، وترد عند ذلك كله على أولئك الذين تركوا القرآن وتركوا نبيهم ﷺ ووليه الناصح، وذهبوا إلى اليهود وتلاميذ اليهود يأخذون عنهم عقائدهم ودينهم ومواقفهم.

أما أحاديثك ـ سيدي ـ عن حبيبك وخليلك رسول الله ﷺ فلا تعد ولا تحصى.. فأنت تذكره كل حين، وفي كل كلمة، وفي كل خطبة..

بل إنك كنت تقول لمن امتلأوا عجبا منك ومما آتاك الله من فضله: (ويلك، إنما أنا عبد من عبيد محمد ﷺ)(1)

ومن كلماتك التي حفظتها لنا الدواوين قولك ــ وأنت تلي غسله ﷺ وتجهيزه ـ: (بأبي أنت وأمّي يا رسول اللّه، لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك، من النّبوّة والإنباء، وأخبار السّماء، خصّصت حتّى صرت مسلّيا عمّن سواك، وعمّمت حتّى

(1) الكافي: 1 / 89.

صار النّاس فيك سواء. ولو لا أنّك أمرت بالصّبر، ونهيت عن الجزع، لأنفدنا عليك ماء الشّؤون، ولكان الدّاء مماطلا، والكمد محالفا، وقلّا لك، ولكنّه ما لا يملك ردّه، ولا يستطاع دفعه. بأبي أنت وأمّي، اذكرنا عند ربّك، واجعلنا من بالك) (1)

ومن كلماتك فيه وأنت تصفه، وتدعو إلى التأسي به، والاستنان بسنته: (فتأسّ بنبيّك الأطيب الأطهر ﷺ فإنّ فيه أسوة لمن تأسّى، وعزاء لمن تعزّى، وأحبّ العباد إلى اللّه المتأسّي بنبيّه، والمقتصّ لأثره. قضم الدّنيا قضما، ولم يعرها طرفا، أهضم أهل الدّنيا كشحا، وأخمصهم من الدّنيا بطنا، عرضت عليه الدّنيا فأبى أن يقبلها، وعلم أنّ اللّه سبحانه أبغض شيئا فأبغضه، وحقّر شيئا فحقّره، وصغّر شيئا فصغّره. ولو لم يكن فينا إلّا حبّنا ما أبغض اللّه ورسوله، وتعظيمنا ما صغّر اللّه ورسوله، لكفى به شقاقا للّه، ومحادّة عن أمر اللّه) (2)

وقلت تصفه: (لقد كان ﷺ يأكل على الأرض، ويجلس جلسة العبد، ويخصف بيده نعله، ويرقع بيده ثوبه، ويركب الحمار العاري، ويردف خلفه. ويكون السّتر على باب بيته، فتكون فيه التّصاوير فيقول: يا فلانة- لإحدى أزواجه- غيّبيه عنّي، فإنّي إذا نظرت إليه ذكرت الدّنيا وزخارفها. فأعرض عن الدّنيا بقلبه، وأمات ذكرها من نفسه، وأحبّ أن تغيب زينتها عن عينه، لكيلا يتّخذ منها رياشا، ولا يعتقدها قرارا، ولا يرجو فيها مقاما، فأخرجها من النّفس، وأشخصها عن القلب، وغيّبها عن البصر، وكذلك من أبغض شيئا أبغض أن ينظر إليه، وأن يذكر عنده. ولقد كان في رسول اللّه ﷺ ما يدلّك على مساوئ الدّنيا وعيوبها، إذ جاع فيها مع خاصّته، وزويت عنه زخارفها مع عظيم زلفته. فلينظر ناظر بعقله، أكرم اللّه محمّدا بذلك أم أهانه؟ فإن قال: أهانه فقد كذب واللّه العظيم بالإفك العظيم. وإن قال: أكرمه، فليعلم أنّ اللّه قد أهان غيره حيث بسط الدّنيا له، وزواها عن أقرب النّاس منه. فتأسّى متأسّ بنبيّه، واقتصّ أثره،

---

1 () نهج البلاغة: الخطبة رقم(235)

2 () نهج البلاغة: الخطبة رقم(160)

وولج مولجه، وإلّا فلا يـأمن الهلكـة، فـإنّ اللّـه جعـل محمّـدا ﷺ علما للسّاعة، ومبشّرا بالجنّة، ومنذرا بالعقوبة، خـرج من الـدّنيا خميصـا، وورد الآخـرة سـليما، لم يضـع حجـرا على حجـر حتّى مضى لسبيله، وأجاب داعي ربّه. فما أعظم منّة اللّه عندنا حين أنعم علينا به، سلفا نتّبعه، وقائدا نطأ عقبه) (1)

وقلت في خطبة أخرى تـذكر فضـله: (و أشـهد أنّ محمـدا عبـده ورسـوله المقـرّ في خـير مسـتقرّ، المتناسـخ من أكـارم الأصلاب، ومطهرات الأرحام، المخرج من أكرم المعادن محتـدا، وأفضل المنابت منبتا، من أمنع ذروة وأعزّ أرومة، من الشـجرة التي صاغ اللّه منها أنبياءه، وانتخب منها أمنـاءه، الطيّبـة العـود، المعتدلة العمـود، الباسـقة الفـروع، الناضـرة الغصـون، اليانعـة الثّمار، الكريمـة الحشـاء. في كـرم غرسـت، وفي حـرم أنبتت، وفيه تشعّبت وأثمرت، وعزّت وامتنعت، فسـمت بـه وشـمخت، حتى أكرمه اللّه عزّ وجلّ بالروح الأمين، والنور المبين، والكتاب المسـتبين، فسـخّر لـه الـبراق، وصـافحته الملائكـة، وأرعب بـه الأبـاليس، وهـدم بـه الأصـنام، والآلهـة المعبـودة دونـه. سـنّته الرشد، وسيرته العدل، وحكمه الحقّ، صدع بما أمره ربّـه، وبلّـغ ما حمله، حتّى أفصح بالتوحيـد دعوتـه، وأظهـر في الخلـق أن لا إلـه إلّا اللّـه وحـده لا شـريك لـه، حتّى خلصـت لـه الوحدانيّـة، وصفت له الربوبيّة، وأظهر اللّه بالتوحيد حجّته، وأعلى بالإسـلام درجته، واختار اللّه عزّ وجلّ لنبيّه مـا عنـده من الـرّوح والدرجـة والوسيلة، صلّى اللّه عليه عدد ما صلّى على أنبيائه المرسـلين، وآله الطاهرين) (2)

وقلت في كلمة أخرى تذكر فضله ومكانته عند الله: (اللّهم فمن جهل فضل محمّد ﷺ فإنّي مقرّ بأنّك ما سطحت أرضا، ولا بـرأت خلقـا، حتّى أحكمت خلقـه وأتقنتـه، من نـور سـبقت بـه السّـلالة، وأنشـأت آدم لـه جرمـا، فأودعتـه منـه قـرارا مكينـا، ومستودعا مأمونا، وأعذتـه من الشـيطان، وحجبتـه عن الزيـادة

1() نهج البلاغة: الخطبة رقم(160)

2() مستدرك نهج البلاغة للمحمودي: ج 2 ص 5- 14.

والنقصان، وجعلت له الشرف الذي به تسامى عبادك، فأيّ بشر كان مثل آدم- فيما سقت الأخبار وعرفتنا كتبك- في عطاياك؟ أسجدت له ملائكتك، وعرّفته ما حجبت عنهم من علمك، إذ تناهت به قدرتك، وتمّت فيه مشيّتك)(1)

وبعد أن ذكرت أصوله من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قلت: (فسبحانك لا إله إلّا أنت، أيّ صلب أسكنته فيه لم ترفع ذكره؟ وأيّ نبيّ بشّر به فلم تتقدّم في الأسماء اسمه؟ وأيّ ساحة من الأرض سلكت به لم يظهر بها قدسه؟ حتّى الكعبة التي جعلت منها مخرجه، غرست أساسها بياقوتة من جنّات عدن، وأمرت الملكين المطهّرين: جبرئيل وميكائيل، فتوسطا بها أرضك، وسمّيتها بيتك، واتخذتها معبدا لنبيّك، وحرمت وحشها وشجرها، وقدّست حجرها ومدرها!، وجعلتها مسلكا لوحيك، ومنسكا لخلقك، ومأمن المأكولات، وحجابا للآكلات العاديات، تحرّم على أنفسها إذعار من أجرت) (2)

وقلت في خطبة أخرى تذكر بقيام رسول الله ﷺ بكل ما كلف به من وظائف: (فتوفّى اللّه محمّدا ﷺ سعيدا شهيدا، هاديا مهديّا، قائما بما استكفاه، حافظا لما استرعاه، تمّم به الدين، وأوضح به اليقين، وأقرّت العقول بدلالته، وأبان به حجج أنبيائه، فاندمغ الباطل زاهقا، ووضح العدل ناطقا، وعطّل مظانّ الشيطان، وأوضح الحقّ والبرهان. اللّهمّ فاجعل فواضل صلواتك، ونوامي بركاتك، ورأفتك ورحمتك، على محمّد نبيّ الرحمة، وعلى أهل بيته الطاهرين) (3)

و من كلام لك في وصفه ﷺ: (.. كان حبيبي محمد ﷺ أرجع [أرحم] الناس بالناس، كان لليتيم كالأب الرحيم، وللأرملة كالزوج الكريم.. وكان محمد ﷺ أشجع الناس قلبا، وأبذلهم كفا، وأصبحهم وجها، وأطيبهم ريحا، وأكرمهم حسبا، لم يكن مثله ولا

1() مستدرك نهج البلاغة للمحمودي: ج 3 ص 63- 81 الخطبة رقم(17)

2() مستدرك نهج البلاغة للمحمودي: ج 3 ص 63- 81 الخطبة رقم(17)

3() إثبات الوصية: 130.

مثل أهل بيته في الأولين والآخرين.. كان لباسه العباء، وطعامه خبز الشعير، ووسادته الأدم محشوّة بليف النخل، وسريره أمّ غيلان مرملا بالشريط.. يا أهل الكتاب كان حبيبي محمد ﷺ يعقل البعير، ويعلف الناضح، ويحلب الشاة، ويرقع الثوب، ويخصف النعل)[1]

و من كلام آخر لك في وصف خلق رسول اللّه ﷺ وسيرته[2]، وأنت تخاطب ابن الحسين، وتصف له جده ﷺ: (كان دخول رسول اللّه ﷺ لنفسه مأذونا له في ذلك، فإذا آوى إلى منزله جزّء دخوله ثلاثة أجزاء: جزء اللّه، وجزء لأهله، وجزء لنفسه، ثم جزّء جزأه بينه وبين الناس، فيردّ ذلك بالخاصة على العامة، ولا يدّخر عنهم منه شيئا)

ثم رحت تفصل له كيف كان ﷺ يتعامل مع الناس، فقلت: (و كان من سيرته ﷺ في جزء الأمة: إيثار أهل الفضل بإذنه، وقسمه على قدر فضلهم في الدين، فمنهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج، فيتشاغل بهم ويشغلهم في ما أصلحهم وأصلح الأمّة، من مسألته عنهم، وإخبارهم بالذي ينبغي لهم، ويقول: ليبلّغ الشاهد منكم الغائب، ويقول: أبلغوني حاجة من لا يقدر على إبلاغ حاجته، فإنه من أبلغ سلطانا حاجة من لا يقدر على إبلاغها، ثبّت اللّه قدميه يوم القيامة. ولا يذكر عنده إلا ذلك، ولا يقبل من أحد غيره. يدخلون روّادا- ولا يفترقون إلا عن ذواق- ويخرجون أدلّة فقهاء)

وعندما سألك ابنك الحسين عن مخرجه ﷺ وكيف كان يصنع فيه، أجبته بقولك: (كان رسول اللّه ﷺ يخزن لسانه إلا مما يعنيه، ويؤلّفهم ولا يفرّقهم، وكان يكرم كريم كل قوم ويولّيه عليهم. وكان يحذّر الناس، ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد بشره ولا خلقه، ويتفقد أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس، ويحسّن الحسن ويقوّيه، ويقبّح القبيح ويهوّنه. معتدل الأمر غير مختلف. لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا.

---

[1] () مستدرك نهج البلاغة للمحمودي: ج 1 ص 74- 79 الخطبة رقم(17)، عن كتاب تاريخ ابن عساكر، ورواه أيضا في الرياض النضرة: ص 227.

[2] () مستدرك نهج البلاغة للمحمودي: ج 1 ص 97 الخطبة رقم(20) ورواه أنساب الأشراف: ج 1 ص 386، ودلائل النبوة: ص 554.

وكان لكل حال عنده عتاد. وكان لا يقصر عن الحق ولا يجوزه. وكان الذين يلونه من الناس خيارهم. وكان أفضلهم عنده أعمّهم نصيحة للمسلمين، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة لهم)

وقلت له حينما سألك عن مجلسه ﷺ: (كان رسول اللّه ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر اللّه جل اسمه، ولا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك، ويعطي كل جلسائه نصيبه منه، حتى لا يحسب من جالسه أن أحدا أكرم عليه منه. من جالسه أو قاومه في حاجة صابره، حتى يكون هو المنصرف عنه. من سأله حاجة لم يرجع إلا بها، أو بميسور من القول. قد وسع الناس منه خلقه وصار لهم أبا، وصاروا عنده في الحق سواء. مجلسه مجلس حلم وحياء، وصدق وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، ولا يوهن فيه الحرم، ولا تنثى فلتاته، ترى جلساءه متعادلين، متواصلين فيه بالتقوى، متواضعين، يوقرون فيه الكبير، ويرحمون فيه الصغير، ويؤثرون ذا الحاجة، ويحفظون الغريب)

وقلت له حينما سألك عن سيرته في جلسائه ﷺ: (كان دائم البشر، سهل الخلق، ليّن الجانب، ليس بفظّ ولا غليظ، ولا صخّاب ولا فحّاش، ولا عيّاب ولا مدّاح، يتغافل عما لا يشتهي، فلا يؤيس منه راجيه، ولا يخيّب فيه مؤمّليه. قد ترك نفسه من ثلاث: من المراء، والإكثار، وما لا يعنيه. وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحدا ولا يعيّره، ولا يطلب عثراته ولا عورته، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه. إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطّير، فإذا سكت تكلموا، ولا يتنازعون عنده الحديث، من تكلم أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم عنده حديث أولهم، يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون منه. ويصبر للغريب على الجفوة في مسألته ومنطقه، حتى أن كان أصحابه ليستجلبونهم، وكان يقول: إذا رأيتم طالب الحاجة يطلبها فأرفدوه، وكان لا يقبل الثناء إلا من مكافئ، ولا يقطع على أحد كلامه حتى يجوز، فيقطعه بنهي أو قيام)

وقلت له حينما سألك عن سكوته ﷺ: (كان سكوت رسول اللّه ﷺ على أربع: على الحلم، والحذر، والتقدير، والتفكر. فأما التقدير ففي تسوية النظر، والاستماع بين الناس. وأما تفكره ففيما يبقى أو يفنى. وجمع له الحلم في الصبر، فكان لا يغضبه شيء ولا يستفزّه. وجمع له الحذر في أربع: أخذه بالحسن ليقتدى به. وتركه القبيح لينتهى عنه. واجتهاده الرأي في صلاح أمته. والقيام فيما جمع لهم خير الدنيا والآخرة)

هذه بعض أوصافك لرسول الله ﷺ، وأنت أعرف الناس به، وأكثرهم معاشرة ومعايشة له.. ولو أن الأمة أخذت بها، واكتفت، لما طال رسول الله ﷺ تلك التشويهات التي ألقاها الشيطان على ألسنة من لم يعرفوه، ولم يقدروه حق قدره.

معرفة المعاد:

أما المعارف المرتبطة بالمعاد.. فقد بثثت لنا منها الكثير.. ولاتخلو خطبة ولا رسالة من رسائلك من ذكر الموت وما بعده..وليس ذلك عجيبا منك، فأنت ابن القرآن.. وما كان لك أن تقصر في منهجه الذي يربط الدنيا بالآخرة، ويربط العمل بالجزاء.

ومن كلماتك المأثورة ـ سيدي ـ في هذا قولك في وصيتك لابنك الحسن، والتي تقول فيها له: (يا بنيّ، أكثر من ذكر الموت، وذكر ما تهجم عليه، وتفضي بعد الموت إليه، حتّى يأتيك وقد أخذت منه حذرك، وشددت له أزرك، ولا يأتيك بغتة فيبهرك. وإيّاك أن تغترّ بما ترى من إخلاد أهل الدّنيا إليها وتكالبهم عليها، فقد نبّأك الله عنها، ونعت هي لك عن نفسها، وتكشّفت لك عن مساويها. فإنّما أهلها كلاب عاوية، وسباع ضارية، يهرّ بعضها على بعض، ويأكل عزيزها ذليلها، ويقهر كبيرها صغيرها، نعم معقّلة وأخرى مهملة، قد أضلّت عقولها، وركبت مجهولها، سروح عاهة بواد وعث، ليس لها راع يقمها، ولا مسيم يسيمها، سلكت بهم الدّنيا طريق العمى، وأخذت بأبصارهم عن منار الهدى، فتاهوا في حيرتها، وغرقوا في

نعمتها، واتّخذوها ربّا فلعبت بهم ولعبوا بها، ونسوا ما وراءها) (1)

ومنها قولك في خطبة من خطبك: (فاتّقوا الله عباد اللّه، وبادروا آجالكم بأعمالكم، وابتاعوا ما يبقى لكم بما يزول عنكم، وترحّلوا فقد جدّ بكم، واستعدّوا للموت فقد أظلّكم، وكونوا قوما صيح بهم فانتبهوا، وعلموا أنّ الدّنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا.. فإنّ الله سبحانه لم يخلقكم عبثا، ولم يترككم سدى، وما بين أحدكم وبين الجنّة أو النّار إلّا الموت أن ينزل به.. وإنّ غاية تنقصها اللّحظة، وتهدمها السّاعة، لجديرة بقصر المدّة، وإنّ غائبا يحدوه الجديدان اللّيل والنّهار، لحريّ بسرعة الأوبة، وإنّ قادما يقدم بالفوز أو الشّقوة، لمستحقّ لأفضل العدّة، فتزوّدوا في الدّنيا من الدّنيا، ما تحرزون به أنفسكم غدا)

وقلت في خطبة أخرى: (بادروا الموت وغمراته، وامهدوا له قبل حلوله، وأعدّوا له قبل نزوله، فإنّ الغاية القيامة، وكفى بذلك واعظا لمن عقل، ومعتبرا لمن جهل. وقبل بلوغ الغاية ما تعلمون من ضيق الأرماس، وشدّة الإبلاس، وهول المطّلع، وروعات الفزع، واختلاف الأضلاع، واستكاك الأسماع، وظلمة اللّحد، وخيفة الوعد، وغمّ الضّريح، وردم الصّفيح.. فاللّه اللّه، عباد اللّه! فإنّ الدّنيا ماضية بكم على سنن، وأنتم والسّاعة في قرن، وكأنّها قد جاءت بأشراطها، وأزفت بأفراطها، ووقفت بكم على صراطها.. وكأنّها قد أشرفت بزلازلها، وأناخت بكلاكلها، وانصرمت الدّنيا بأهلها، وأخرجتهم من حضنها، فكانت كيوم مضى، أو شهر انقضى، وصار جديدها رثّا، وسمينها غثّا، في موقف ضنك المقام، وأمور مشتبهة عظام، ونار شديد كلبها، عال لجبها، ساطع لهبها، متغيّظ زفيرها، متأجّج سعيرها، بعيد خمودها، ذاك وقودها، مخوف وعيدها، عم قرارها، مظلمة أقطارها، حامية قدورها، فظيعة أمورها) (2)

ثم رحت ترغبهم في الجنة ونعيمها، وتقول: ﴿وسِيقَ الَّذِينَ

1() نهج البلاغة: الكتاب رقم(31)

2() نهج البلاغة: الخطبة رقم(190)

اتَّقَـوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَـراً[الزمـر: 73]، قـد أمن العـذاب، وانقطع العتاب، وزحزحوا عن النّار، واطمأنّت بهم الدّار، ورضوا المثوى والقرار، الّذين كانت أعمالهم في الـدّنيا زاكيـة، وأعينهم باكية، وكان ليلهم في دنيـاهم نهـارا، تخشّـعا واسـتغفارا، وكـان نهـارهم ليلا، توحّشـا وانقطاعـا، فجعـل اللـه لهم الجنّـة مآبـا، والجزاء ثوابا، وكـانُوا أَحَـقَّ بِهـا وأَهْلَها، في ملـك دائم، ونعيم قائم.. فارعوا عبـاد اللّـه، مـا برعايتـه يفـوز فـائزكم، وبإضـاعته يخسر مبطلكم، وبادروا آجالكم بأعمالكم، فـإنّكم مرتهنـون بمـا أسلفتم، ومدينون بما قدّمتم، وكأن قـد نـزل بكم المخـوف، فلا رجعة تنالون، ولا عثرة تقالون، اسـتعملنا اللـه وإيّـاكم بطاعتـه، وطاعة رسوله، وعفا عنّا وعنكم بفضل رحمته)

ومن ذلك قولـك في خطبـة من خطبـك في تزهيـد النـاس عن الدنيا: (للموت تولدون، وإلى القبور تنقلـون، وعلى الـتراب تتوسّدون، وإلى الدود تسلّمون، وإلى الحساب تبعثون.. يـا ذوي الحيل والآراء، والفقـه والأنبـاء، اذكـروا مصـارع الآبـاء، فكـأنكم بـالنفوس قـد سـلبت، وبالأبـدان قـد عـريت، وبـالمواريث قـد قسـمت، فتصـير يـا ذا الـدلال، والهيئـة والجمـال، إلى منزلـة شعثاء، ومحلّة غبراء، فتنـوّم على خـدّك في لحـدك، في مـنزل قـلّ زوّاره، ومـلّ عمّالـه، حتّى يشـقّ عن القبـور، وتبعث إلى النشور. فإن ختم لك بالسعادة، صـرت إلى الحبـور، وأنت ملـك مطـاع، وآمن لا تـراع، يطـوف عليكم ولـدان، كـأنهم الجمـان، بكأس من معين، بيضاء لذّة للشاربين. أهل الجنّة فيها يتنعّمون، وأهل النار فيها يعذّبون، هؤلاء في السندس والحرير يتبخـترون، وهؤلاء في الجحيم والسعير يتقلّبـون، هـؤلاء تحشـى جمـاجمهم بمسك الجنان، وهؤلاء يضربون بمقامع النيران، هـؤلاء يعـانقون الحور في الحجال، وهؤلاء يطوّقون أطواقـا في النـار بـالأغلال، فله فزع قد أعيا الأطباء، وبه داء لا يقبل الدواء) (1)

ومما جاء فيها قولك: (اسمع يـا ذا الغفلـة والتصـريف، من ذوي الوعظ والتعريف، جعل يوم الحشر يوم العرض والسـؤال، والحباء والنكـال، ويـوم تقلب فيـه أعمـال الأنـام، وتحصـى فيـه

(1) مستدرك نهج البلاغة للمحمودي: ج 2 ص 37- 43.

جميـع الآثـام، يـوم تـذوب من النفـوس أحـداق عيونهـا، وتضـع الحوامل ما في بطونهـا، ويفـرّق بين كـل نفس وحبيبهـا، ويحـار في تلـك الأهـوال عقـل لبيبهـا. إذ تنكّـرت الأرض بعـد حسـن عمارتها، وتبدلت بالخلق بعد أنيق زهرتها، وأخـرجت من معـادن الغيب أثقالها، ونفضت إلى الله أحمالهـا، يـوم لا ينفـع الجـدّ، إذا عاينوا الهول الشـديد فاسـتكانوا، وعـرف المجرمـون بسـيماهم فاسـتبانوا. فانشـقّت القبـور بعـد طـول انطباقهـا، واستسـلمت النفوس إلى الله بأسبابها، وكشف عن الآخـرة غطاؤهـا، وظهـر للخلق أنباؤها. فدكّت الأرض دكّا دكّا، ومدّت لأمر يـراد بهـا مـدّا مدّا، واشتد المثارون إلى الله شدّا شدّا، وتزاحفت الخلائـق إلى المحشر زحفا زحفا، وردّ المجرمون على الأعقاب ردّا ردّا، وجدّ الأمر- ويحك يا إنسان- جدّا جـدّا، وقرّبـوا للحسـاب فـردا فـردا، وجاء ربك والملك صفا صفا، ويسألهم عما عملـوا حرفـا حرفـا. وجيء بهم عـراة الأبـدان، خشـعا أبصـارهم، أمـامهم الحسـاب، ومن ورائهم جهنم، يســمعون زفيرهــا، ويــرون ســعيرها، فلم يجدوا ناصرا ولا وليا يجيرهم من الذل، فهم يغـدون سـراعا إلى مواقف الحشر، يسـاقون سـوقا. فالسـماوات مطويّـات بيمينـه كطيّ الســجلّ للكتب، والعبــاد على الصــراط وجلت قلــوبهم، يظنون أنهم لا يسلمون، ولا يؤذن لهم فيتكلّمون، ولا يقبل منهم فيعتذرون، قد ختم على أفواههم، واسـتنطقت أيـديهم وأرجلهم بمـا كـانوا يعملـون، يـا لهـا من سـاعة! مـا أشـجا مواقعهـا من القلوب حين ميّـز بين الفـريقين: فريـق في الجنـة، وفريـق في السعير، من مثل هذا فليهرب الهـاربون، وإذا كـانت الـدار مثـل الآخرة، فلها يعمل العاملون)

وهكذا في كل خطبك تنقـل لهم معـاني القـرآن المرتبطـة بالمعاد، وتصـورهم لهـا تصـويرا، وتنفـذ من خلالهـا إلى قلـوبهم وأرواحهم..

ومما يرتبط بالمعاد دعواتك الكثيرة التي تسـأل اللـه فيهـا حسن العاقبة بأدب وخلق رفيع.. ومنها قولك في بعض أدعيتك: (إلهي كيف أسكت بالإفحـام لسـان ضـراعتي، وقـد أقلقـني مـا أبهم عليّ من مصير عاقبتي؟.. إلهي قـد علمت حاجـة جسـمي

إلى ما تكفّلت له من الرزق في حياتي، وعرفت قلّة استغنائي عنه في الجنّة بعد وفاتي، فيا من سمح لي به متفضّلا في العاجل، لا تمنعنيه يوم فاقتي إليه في الآجل.. إلهي إن عذّبتني فعبد خلقته لما أردت فعذّبته، وإن رحمتني فعبد ألفيته مسيئا فأنجيته.. إلهي لا احتراس من الذنب إلّا بعصمتك، ولا وصول إلى عمل الخيرات إلّا بمشيئتك، كيف لي بإفادة ما سلبتني فيه مشيئتك؟ وكيف لي باحتراس من الذنب ما لم تدركني فيه عصمتك؟.. إلهي أنت دللتني على سؤال الجنّة قبل معرفتها، فأقبلت النفس بعد العرفان على مسألتها، أفتدلّ على خيرك السؤّال ثم تمنعه، وأنت الكريم المحمود في كلّ ما تصنعه، يا ذا الجلال والإكرام؟.. إلهي إن كنت غير مستأهل لما أرجو من رحمتك، فأنت أهل أن تجود على المذنبين بفضل سعتك.. إلهي نفسي قائمة بين يديك، وقد أظلّها حسن توكّلها عليك، فاصنع بي ما أنت أهله، وتغمّدني برحمتك.. إلهي إن كان دنا أجلي، ولم يقرّبني منك عملي، فقد جعلت الاعتراف بالذنب وسائل عللي، فإن عفوت فمن أولى منك بذلك، وإن عذّبت فمن أعدل منك في الحكم هنالك.. إلهي إنّك لم تزل بارّا بي أيّام حياتي، فلا تقطع برّك بي بعد وفاتي.. إلهي كيف أيأس من حسن نظرك بعد مماتي وأنت لم تولّني إلّا الجميل في حياتي.. إلهي إن ذنوبي قد أخافتني، ومحبّتي لك قد أجارتني، فتولّ في أمري ما أنت أهله، وعد بفضلك على من غمره جهله، يا من لا تخفى عليه خافية، صلّ على محمّد وعلى آل محمّد، واغفر لي ما خفي عن الناس من أمري)[1]

ومنها قولك: (الهي كأني بنفسي قد أضجعت في حفرتها، وانصرف عنها المشيّعون من عشيرتها، وناداها من شفير القبر ذوو مودّتها ورحمها، المعادي لها في الحياة عند صرعتها، ولم يخف على الناظرين إليها ذلّ فاقتها، ولا على من قد رآها توسّدت الثرى عجز حيلتها، فقلت: ملائكتي فريد نأى عنه الأقربون، ووحيد جفاه الأهلون، وخذله المؤمّلون، نزل بي قريبا، وأصبح في اللحد غريبا، وقد كان لي في دار الدنيا راعيا،

1() مسند الإمام علي: 2/516.

ولنظري إليه في هذا اليوم راجيا، فتحسن عند ذلك ضيافتي، وتكون أشفق عليّ من أهلي وقرابتي)[1]

ومنها قولك: (إلهي سترت عليّ في الدنيا ذنوبا ولم تظهرها، فلا تفضحني يوم ألقاك على رؤوس العالمين، واسترها عليّ هناك يا أرحم الراحمين.. إلهي لو طبّقت ذنوبي بين السماء والأرض، وخرقت النجوم، وبلغت أسفل الثرى، ما ردّني اليأس عن توقّع غفرانك، ولا صرفني القنوط عن انتظار رضوانك.. إلهي سعت نفسي إليك لنفسي تستوهبها، وفتحت أفواه أملها تستوجبها، فهب لها ما سألت، وجد لها بما طلبت، فإنك أكرم الأكرمين، بتحقيق أمل الآملين)[2]

إلى آخر دعواتك الكثيرة، والممتلئة بالمعاني السامية الرفيعة.

1() الصحيفة العلوية.

2() الصحيفة العلوية.

سيدي ومولاي.. حبيب الله ورسوله..

عندما نتأمل ما وصل إلينـا من بحـر علمـك الواسـع نـدرك حقيقة مدى صدق قوله ﷺ: (أنا مدينـة العلم، وعلى بابهـا، فمن أراد العلم فليأت الباب)(1)

وندرك معها بعض تلك المظالم العظيمـة الـتي ابتلاك اللـه بها.. والتي عبرت عنها بقولك، وأنت تخاطب كـل تلـك الجمـوع الـتي أعرضـت عنـك لتأخـذ دينهـا من الطلقـاء واليهـود وتلاميـذ اليهود.. ونسوك أنت.. مع أنك عمـرت طـويلا بينهم.. ومـع أنـك تربيت حياتك كلها في حضن رسول الله ﷺ.. وكنت معـه صـباح مساء.. وكنت تتلقى علومه وتعرف منـه أسـرار كـل مـا يتـنزل عليه.. وكانت علومك كلها من مشكاة النبوة الخالصـة الـتي لم تتدنس بأي دنس.

لقد كنت تقول لهم مرغبا فيمـا عنـدك من العلم الخـالص: (سلوني قبل أن تفقدوني، فـو الّـذي نفسـي! بيـده لا تسـألوني عن شـيء فيمـا بينكم وبين السّـاعة، ولا عن فئـة تهـدي مائـة وتضلّ مائة إلاّ أنبأتكم بناعقها وقائدها وسـائقها، ومنـاخ ركابهـا، ومحطّ رحالها، ومن يقتل من أهلها قتلا، ومن يموت منهم موتا)(2)

وكنت تقـول لهم: (سـلوني عن كتـاب اللـه، فـو اللـه! مـا نزلت آية من كتاب الله في ليل ونهـار ولا مسـير، ولا مقـام إلاّ وقد أقرأنيها رسول الله ﷺ وعلّمني تأويلها...)(3)

1() الترمذى (5/637، رقم 3723)، والحاكم (3/138، رقم 4639)، وغيرهما.

2() شرح الأخبار 1: 139، وقد روى الحاكم في المستدرك [رقم الحديث: (3394)] عن عامر بن واثلة، قال: سمعت علياً قـام، فقـال: سـلوني قبلأن تفقـدوني، ولن تسـألوا بعدي مثلي، فقام ابن الكواء فقـال: من الـذين بدلوانعمـة اللـه كفـراً وأحلـوا قـومهم دار البوار؟، قال: منافقو قريش، قال: فمنالذين ضل سعيهم في الحياة الـدنيا وهم يحسـبون أنهم يحسنون صنعا؟، قال: منهم أهل حروراء)، قال الحاكم: هذا حديث صحيح عال.

أذكر جيدا أنه عندما قلت هذا انبرى لك أحد الجاهلين بقدرك، وقال: يا أمير المؤمنين، فما كان ينزل عليه، وأنت غائب عنه؟

فأجبته بقولك: (كان يحفظ عليّ رسول الله ﷺ ما كان ينزل عليه من القرآن، وأنا غائب عنه، حتّى أقدم عليه فيقرأنيه، ويقول: يا عليّ، أنزل الله بعدك عليّ كذا وكذا، وتأويله كذا وكذا، فيعلّمني تنزيله وتأويله)(1)

بل ورد في تفسير قوله تعالى:﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة:12] أن النبي ﷺ قال لك عند نزولها: (سألت الله أن يجعلها أُذنك يا عليّ)، وقد استجاب الله دعاء نبيه ﷺ، وكنت تقول: (فما نسيت شيئاً بعد ذلك وما كان لي أن أنسى)(2)

بل إن سعيد بن المسيّب، وفي الزمن الذي تولى فيه الطلقاء، شهد لك بذلك، وكان يقول: (لم يكن أحد من الصحابة يقول: سلوني، إلاّ عليّ بن أبي طالب)(3)

ولذلك كنت تقول مخاطبا أصحابك: (لو تعلمون ما أعلم ممّا طوي عنكم غيبه، إذا لخرجتم إلى الصّعدات تبكون على أعمالكم، وتلتدمون على أنفسكم، ولتركتم أموالكم لا حارس لها ولا خالف عليها، ولهمّت كلّ امرئ منكم نفسه لا يلتفت إلى غيرها.. ولكنّكم نسيتم ما ذكّرتم، وأمنتم ما حذّرتم، فتاه عنكم رأيكم، وتشتّت عليكم أمركم، ولوددت أنّ اللّه فرّق بيني وبينكم، وألحقني بمن هو أحقّ بي منكم: قوم واللّه ميامين الرّأي، مراجيح الحلم، مقاويل بالحقّ، متاريك للبغي، مضوا

3() الطبقات الكبرىٰ 2 / 338..

1() الاحتجاج: 139.

2() انظر: تفاسير: الطبري، والسيوطي، والرازي، وابن كثير، والقرطبي، والشوكاني، وغيرهم عند تفسيرهم للآية.

3() تاريخ دمشق 42 / 399، أُسد الغابة 4 / 22، الرياض النضرة 3 / 166.

قدما على الطّريقة، وأوجفوا على المحجّة، فظفروا بالعقبى الدّائمة، والكرامة الباردة) [1]

لن أحدثك عن كل علومك.. فذلك مما لا أطيقه أنا ولا غيري.. ولهذا سأقتصر على بعض ما وصلنا من علومك التي ترتبط بنا وبواقعنا.. وهي أربعة علوم: علم القرآن، وعلم الاستشراف، وعلم المراتب والمنازل، وعلم الحقائق والمقاصد.

علم القرآن:

أما علم القرآن الكريم، فقد أخذته ـ سيدي ومولاي ـ بالسند العالي من رسول الله ﷺ، ولم تمزج فيه لا كعب الأحبار، ولا عبد الله بن سلام.. بل كنت خالص التلمذة فيه على حبيبك ومربيك رسول الله ﷺ..

وقد رزقك الله مع تلك التلمذة عقلا وثابا للمعاني، وروحا كالمرآة الصافية التي تتجلى فيها الحقائق، لذلك كانت حقائق القرآن الكريم بين يديك تنهل منها ما تشاء.. ولهذا لا عجب أن تكون كل كلماتك من نبع القرآن الكريم الخالص.

لقد كنت ترى بعينيك ـ سيدي ـ كيف ترك المسلمون كتابهم المعجز الواضح البين، وراحوا إلى الأحبار والرهبان.. وراحوا قبلها وبعدها إلى كل صاحب جهل وهوى ليتعلموا على يديه حقائق القرآن، ونسوا أن القرآن الكريم لا يحتاج إلى كل ذلك.. فهو بذاته، ولمن تدبره ووعاه، كاف لتوضيح كل حقائق الوجود.. وما تزيده تلك التفسيرات إلا تعقيدا وتأويلا وتحريفا.

لقد كنت تنادي فيهم كل حين بالعودة إلى القرآن، وترك ذلك الفضول الذي لا يغنيهم شيئا.. وكنت تقول لمن رأيته يبحث في الله وفي حقائق الوجود بعيدا عن هدي القرآن ـ ناصحا وموصيا وواعظا ـ: (فما دلك القرآن عليه من صفته فاتبعه ليوصل بينك وبين معرفته، وائتم به، واستضئ بنور هدايته، فإنها نعمة وحكمة أوتيتها، فخذ ما أوتيت وكن من الشاكرين، وما

[1] () نهج البلاغة: الخطبة رقم(116)

دلك الشيطان عليه مما ليس في القرآن عليك فرضه، ولا في سنة الرسول وأئمة الهدى أثره، فكل علمه إلى الله عز وجل، فإن ذلك منتهى حق الله عليك)(1)

وكنت تخاطب من تصور أن الرسوخ في العلم هو معرفة عدد أصحاب الكهف أو أسماءهم، أو معرفة تفاصيل قصص الأنبياء بقولك: (اعلم أن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم الله عن الاقتحام في السدد المضروبة دون الغيوب، فلزموا الاقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب فقالوا: آمنا به كل من عند ربنا، فمدح الله عز وجل اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علما، وسمى تركهم التعمق في حاله، ما لم يكلفهم البحث عنه منهم رسوخا، فاقتصر على ذلك، ولا تقدر عظمة الله على قدر عقلك، فتكون من الهالكين) (2)

وكنت تنادي أولئك الغافلين الذين اغتبروا يالأخبار والآثار عن كل من هب ودب، وتركوا القرآن.. وتقول لهم في خطبة من خطبك العصماء: (نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أرسله بكتاب فصله، وأحكمه وأعزه، وحفظه بعلمه، وأحكمه بنوره، وأيده بسلطانه، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ولا يخلقه طول الرد، ولا يفنى عجائبه، من قال به صدق، ومن عمل أجر، ومن خاصم به فلج، ومن قاتل به نصر، ومن قام به هدي إلى صراط مستقيم. فيه نبأ من كان قبلكم، والحكم فيما بينكم، وخبر معاد كم، أنزله بعلمه وأشهد الملائكة بتصديق.. ففي اتباع ما جاءكم من الله الفوز العظيم، وفي تركه الخطأ المبين، قال: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى﴾ [طه:123]، فجعل في اتباعه كل خير يرجى في الدنيا والآخرة، فالقرآن آمر وزاجر، حد فيه الحدود، وسن فيه السنن، وضرب فيه الأمثال، وشرع فيه الدين، إعذرا أمر نفسه وحجة على

---

(1) نهج البلاغة: رقم 89.

(2) نهج البلاغة: رقم 89.

خلقه، أخذ على ذلك ميثاقهم، وارتهن عليه أنفسـهم، ليـبين لهم ما يأتون وما يتقـون، ليهلـك من هلـك عن بينـة ويحـيى من حي عن بينة وإن الله سميع عليم)(1)

وقلت في خطبـة أخـرى: (عليكم بكتـاب اللـه فإنـه الحبـل المتين، والنور المبين، والشفاء النافع، والري النـاقع، والعصـمة للمتمسك والنجاة للمتعلق، لا يعوج فيقوم، ولا يزيـغ فيسـتعتب، ولا تخلقه كـثرة الـرد، وولـوج السـمع من قـال بـه صـدق، ومن عمل به سبق)(2)

وقلت في خطبـة أخـرى: (واعلمـوا أن هـذا القـرآن هـو الناصح الذي لا يغش، والهادي الذي لا يضل، والمحـدث الـذي لا يكذب، وما جالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان: زيادة في هدى، أو نقصان من عمى. واعلموا أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لاحد قبل القرآن من غنى، فاستشفوه من أدوائكم واستعينوا به على لأوائكم، فان فيه شفاء من أكـبر الـداء، وهـو الكفـر والنفـاق والغي والضـلال، فاسـألوا اللـه بـه، وتوجهوا إليه بحبه ولا تسألوا به خلقه، إنـه مـا توجـه العبـاد إلى الله بمثله. واعلموا أنه شافع مشـفع، وقائـل مصـدق، وإنـه من شفع له القرآن يوم القامة شفع فيه، ومن محل به القرآن يـوم القيامة صدق عليـه، فإنـه ينـادي منـاد يـوم القيامـة: ألا إن كـل حارث مبتلى في حرثه وعاقبة عمله، غير حرثة القرآن، فكونـوا من حرثتـه وأتباعـه، واسـتدلوه على ربكم، واستنصـحوه على أنفسكم، واتهموا عليه آراء كم، واستعشـوا فيـه أهـواءكم.. وإن الله سـبحانه لم يعـظ أحـدا بمثـل هـذا القـرآن فإنـه حبـل اللـه المـتين، وسـببه الأمين، وفيـه ربيـع القلب، وينـابيع العلم، ومـا للقلب جلاء غيره، مع أنه قـد ذهب المتـذكرون، وبقي الناسـون والمتناسون) (3)

1() تفسير العياشي ج 1 ص 7.

2() حلية الأولياء، 1 / 68.

3() نهج البلاغة: الخطبة رقم(176)

وقد حدث الحارث الأعور عن سر حرصك على الدعوة للقرآن الكريم، وعلاقة الفتن بهجره، فقال: دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فقلت: يا أمير المؤمنين إنا إذا كنا عندك سمعنا الذي نسد به ديننا، وإذا خرجنا من عندك سمعنا أشياء مختلفة مغموسة، لا ندري ما هي؟ قال: أو قد فعلوها؟ قلت: نعم، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: أتاني جبرئيل فقال: يا محمد سيكون في أمتك فتنة، قلت: فما المخرج منها؟ فقال كتاب الله فيه بيان ما قبلكم من خير وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من وليه من جبار فعمل بغيره قصمه الله، ومن التمس الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، لا تزيفه الأهواء ولا تلبسه الألسنة، ولا يخلق عن الرد، ولا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء هو الذي لم تكنه الجن إذ سمعه، أن قالوا: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴾ [الجن:1-2]، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن اعتصم به هدي إلى صراط مستقيم، هو الكتاب العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)[4]

وفي خطبة أخرى قلت: (ثم أنزل عليه الكتاب نورا لا تطفا مصابيحه وسراجا لا يخبو توقده، وبحرا لا يدرك قعره، ومنها جا لا يضل نهجه، وشعاعا لا يظلم ضوؤه، وفرقانا لا يخمد برهانه، وتبيانا لا تهد أركانه، وشفاء لا تخشى أسقامه، وعزا لا تهزم أنصاره، وحقا لا تخذل أعوانه، فهو معدن الايمان وبحبوحته وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه وأثا في الاسلام وبنيانه وأودية الحق وغيطانه وبحر لا ينزفه المستنزفون، وعيون لا ينضبها الماتحون ومناهل لا يغيضها الواردون، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون وأعلام لا يعمى عنها السائرون، وآكام لايجوز عنها القاصدون، جعله الله ريا لعطش العلماء، وربيعا لقلوب الفقهاء، ومحاج لطرق الصلحاء، ودواء ليس بعده داء، ونورا ليس معه ظلمة، وحبلا وثيقا عروته، ومعقلا منيعا

4() آلاء الرحمن في تفسير القرآن، 38.

ذروته، وعزا لمن تولاه، وسلما لمن دخله، وهـدى لمن أئتم بـه، وعذرا لمن انتحله، وبرهانـا لمن تكلم بـه، وشـاهدا لمن خاصـم به، وفلجا لمن حاج به، وحـاملا لمن حمله ومطيـة لمن أعملـه، وآية لمن توسـم، وجنـة لمن اسـتلام، وعلمـا لمن وعى وحـديثا لمن روى، وحكما لمن قضى)[1]

لا يمكنني ـ سيدي ـ أن أعـرض كـل مـا وصـلنا من خطبـك وأحاديثك الجميلة حول القرآن.. فهي كثـيرة وممتلئـة بالمعـاني الرفيعة.. ولو أن الذين عاصـروك.. أو الـذين ابتعـد بينـك وبينهم الزمان أخذوا بكلماتك حوله.. وعاشوها وطبقوها.. لكان وضـعنا الآن غير وضعنا.. لكنهم أهملوا الكتاب كمـا أهملـوك.. وضـيعوا الوصية بالكتاب، كما ضيعوا الوصية بك.

علم الاستشراف:

أما علم الاستشراف ــ سـيدي ومـولاي ــ فهـو من العلـوم الـتي ورثتهـا من حبيبـك رسـول اللـه ﷺ.. كمـا ورثتهـا بسـبب صحبتك الطويلة وتدبرك العميق للقرآن الكريم.

فقـد كنت بمـا آتـاك اللـه من علم البصـيرة تخـبرهم بمـا سيحيق بهذه الأمة من أنواع البلاء والفتن.. وحينهـا سـألك بعض أصحابك، فقال: لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب؟!

فضحكت من قوله، وقلت له ـ وكان كلبيّا ـ: (يـا أخـا كلب، ليس هــو بعلم غيب، وإنّمــا هــو تعلّم من ذي علم، وإنّمــا علم الغيب: علم السّاعة، وما عـدّده اللّـه سـبحانه بقولـه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَـدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِـأَيِّ أَرْضٍ تَمُـوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان:34]، فيعلم اللّه سبحانه ما في الأرحام: من ذكر أو أنثى، وقبيح أو جميل، وسخيّ أو بخيل، وشقيّ أو سعيد، ومن يكون في النّار حطبا أو في الجنـان للنّـبيّين مرافقـا، فهـذا علم الغيب الّـذي لا يعلمـه أحـد إلّا اللّـه، ومـا سـوى ذلـك فعلم علّمه اللّه نبيّه ﷺ فعلّمنيه، ودعا لي بأن يعيـه صـدري، وتضـطمّ

[1] () نهج البلاغة: الخطبة رقم(198).

عليه جوانحي) (1)

وبما أن المهمة التي كلفت بها في هذه الأمة كما أخبر رسول الله ﷺ هي مواجهة التحريف والتبديل والتأويل لحقيقة الدين، فلذلك كثرت وصاياك في هذا، والتي حددت فيها أنواع الفتن، وأسبابها، ومواطنها، وبالغت في النصيحة في ذلك..

ومن ذلك قولك ـ سيدي ـ في تحذير العرب خصوصا من التبديل والتغيير، حتى لا يستبدل بهم غيرهم، فقد قلت في ذلك: (ثمّ إنّكم معشر العرب أغراض بلايا قد اقتربت، فاتّقوا سكرات النّعمة، واحذروا بوائق النّقمة، وتثبّتوا في قتام العشوة، واعوجاج الفتنة، عند طلوع جنينها، وظهور كمينها، وانتصاب قطبها، ومدار رحاها، تبدأ في مدارج خفيّة، وتؤول إلى فظاعة جليّة، شبابها كشباب الغلام، وآثارها كآثار السّلام، يتوارثها الظّلمة بالعهود، أوّلهم قائد لآخرهم، وآخرهم مقتد بأوّلهم، يتنافسون في دنيا دنيّة، ويتكالبون على جيفة مريحة، وعن قليل يتبرّأ التّابع من المتبوع، والقائد من المقود، فيتزايلون بالبغضاء، ويتلاعنون عند اللّقاء) (2)

وقد صدقتك الأيام في هذا، فالعرب اليوم.. وقبل فترة طويلة ركنوا إلى الدنيا وشهواتها، وتصارعوا على حطامها، وغيروا وبدلوا ونسوا كثيرا.

ثم رحت تصف الفتن وصفا دقيقا، وكأنك تشاهدها بعينك، فقلت: (ثمّ يأتي بعد ذلك طالع الفتنة الرّجوف، والقاصمة الزّحوف، فتزيغ قلوب بعد استقامة، وتضلّ رجال بعد سلامة، وتختلف الأهواء عند هجومها، وتلتبس الآراء عند نجومها، من أشرف لها قصمته، ومن سعى فيها حطمته، يتكادمون فيها تكادم الحمر في العانة، قد اضطرب معقود الحبل، وعمي وجه الأمر، تغيض فيها الحكمة، وتنطق فيها الظّلمة، وتدقّ أهل البدو بمسحلها، وترضّهم بكلكلها، يضيع في غبارها الوحدان، ويهلك

---

1 () نهج البلاغة: الخطبة رقم(116)

2 () نهج البلاغة: الخطبة رقم(151)

في طريقها الرّكبان، ترد بمرّ القضاء، وتحلب عبيط الدّماء، وتثلم منار الدّين، وتنقض عقد اليقين، يهرب منها الأكياس، ويدبّرها الأرجاس، مرعاد مبراق، كاشفة عن ساق، تقطع فيها الأرحام، ويفارق عليها الإسلام، بريئها سقيم، وظاعنها مقيم)

ثم رحت تنصحهم بما ينبغي عليهم عند انتشار نيران الفتن، فقلت: (فلا تكونوا أنصاب الفتن، وأعلام البدع، والزموا ما عقد عليه حبل الجماعة، وبنيت عليه أركان الطّاعة، واقدموا على اللّه مظلومين، ولا تقدموا عليه ظالمين، واتّقوا مدارج الشّيطان، ومهابط العدوان، ولا تدخلوا بطونكم لعق الحرام؛ فإنّكم بعين من حرّم عليكم المعصية، وسهّل لكم سبل الطّاعة)

وقد كنت داعية إلى مواجهة الفتن، وعدم السكون لها، أو السكوت عنها، وقد حدث أبو عطاء عن وصيتك في ذلك، فقال: خرج أمير المؤمنين علي بن أبي طالب محزونا يتنفّس، فقال: كيف أنتم وزمان قد أظلّكم؟ تعطّل فيه الحدود، ويتّخذ المال فيه دولا، ويعادى أولياء اللّه، ويوالى فيه أعداء اللّه؟ قلنا: فإن أدركنا الزمان فكيف نصنع؟ قال: (كونوا كأصحاب عيسى عليه السّلام نشروا بالمناشير، وصلبوا على الخشب، موت في طاعة اللّه عزّ وجلّ خير من حياة في معصية اللّه) [1]

ومن خطبك التي دللت فيها على المخرج من الفتنة، قولك ـ وأنت تخاطب أهل البصرة ـ: (من استطاع عند ذلك أن يعتقل نفسه على اللّه عزّ وجل فليفعل، فإن أطعتموني فإنّي حاملكم- إن شاء اللّه- على سبيل الجنّة، وإن كان ذا مشقّة شديدة، ومذاقة مريرة.. فبالإيمان يستدلّ على الصّالحات، وبالصّالحات يستدلّ على الإيمان، وبالإيمان يعمر العلم، وبالعلم يرهب الموت، وبالموت تختم الدّنيا، وبالدّنيا تحرز الآخرة، وبالقيامة تزلف الجنّة، وتبرّز الجحيم للغاوين، وإنّ الخلق لا مقصر لهم عن القيامة، مرقلين في مضمارها إلى الغاية القصوى قد شخصوا من مستقرّ الأجداث، وصاروا إلى مصاير

[1] () دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم: ص 113- 114.

الغايات، لكلّ دار أهلها، لا يستبدلون بهـا، ولا ينقلـون عنهـا. وإنّ الأمـر بـالمعروف والنّهي عن المنكـر لخلقـان من خلـق اللّـه سبحانه، وإنّهما لا يقرّبان من أجل، ولا ينقصان من رزق) (1)

ثم رحت تنصحهم بكتاب الله.. والـذي لم تخلـو خطبـة من خطبك ولا موعظـة من مواعظـك من الـدعوة إليـه، لأنـك تعلم كيف ستئول علاقة المسلمين به، وكيف تغير معانيـه، فقلت: (و عليكم بكتاب اللّه؛ فإنّه الحبل المتين، والنّـور المـبين، والشّـفاء النّافع، والرّيّ النّاقع، والعصمة للمتمسّـك، والنّجـاة للمتعلّـق، لا يعوجّ فيقام، ولا يزيغ فيسـتعتب، ولا تخلقـه كـثرة الـرّدّ، وولـوج السّمع، من قال به صدق، ومن عمل به سبق)

حينها قام إليك رجل، فقال: يا أمـير المؤمـنين، أخبرنـا عن الفتنة، وهل سألت رسول اللّه ﷺ عنها؟

فقلت لـه: إنّـه لمّـا أنـزل اللّـه سـبحانه قولـه: ﴿الم (1) أَحَسِـــبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُـــوا أَن يَقُولُـــوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُـــون﴾ [العنكبوت:1-2]، علمت أنّ الفتنة لا تـنزل بنـا ورسـول اللـه ﷺ بين أظهرنا، فقلت: يا رسول اللّه، ما هـذه الفتنـة الّـتي أخـبرك اللّـه تعـالى بهـا؟ فقـال: (يـا عليّ، إنّ أمّـتي سـيفتنون بعـدي)، فقلت: يـا رسـول اللّــه، أو ليس قــد قلت لي يــوم أحــد حيث استشهد من استشـهد من المسـلمين، وحـيزت عنّي الشّـهادة، فشقّ ذلك عليّ، فقلت لي: (أبشر فـإنّ الشّـهادة من ورائـك)؟ فقــال لي: (إنّ ذلــك لكــذلك، فكيــف صــبرك إذا؟)، فقلت: يــا رسـول اللّـه، ليس هـذا من مـواطن الصّـبر، ولكن من مـواطن البشرى والشّكر، وقال: (يا عليّ، إنّ القوم سيفتنون بـأموالهم، ويمنّون بدينهم على ربّهم، ويتمنّـون رحمتـه، ويـأمنون سـطوته، ويسـتحلّون حرامــه بالشّــبهات الكاذبــة، والأهــواء السّــاهية؛ فيستحلّون الخمر بالنّبيذ، والسّحت بالهديّة، والرّبا بالبيع)، قلت: يا رسول اللّه، فبأيّ المنازل أنزلهم عند ذلـك؟ أ بمنزلـة ردّة أم بمنزلة فتنة؟ فقال: (بمنزلة فتنة)(2)

1() نهج البلاغة: الخطبة رقم(156)

2() نهج البلاغة: الخطبة رقم(156)

وفي كلمة أخرى من كلماتـك النـيرة الـتي وصـلتنا ذكـرت موقــف مشــعلي الفتن من القــرآن الكــريم، وهجــرهم لــه، واحتقارهم لأهله، فقلت: (و إنّه سـيأتي عليكم من بعـدي زمـان ليس فيه شيء أخفى من الحقّ، ولا أظهر من الباطل، ولا أكـثر من الكـذب على اللّـه ورسـوله، وليس عنـد أهـل ذلـك الزّمـان سـلعة أبـور من الكتـاب إذا تلي حـقّ تلاوتـه، ولا أنفـق منـه إذا حرّف عن مواضعه، ولا في البلاد شيء أنكر من المعــروف، ولا أعرف من المنكر، فقـد نبـذ الكتـاب حملتـه، وتناسـاه حفظتـه. فالكتاب يومئذ وأهله طريدان منفيّان، وصاحبان مصـطحبان في طريق واحد لا يؤويهما مؤو. فالكتاب وأهله في ذلك الزّمان في النّاس وليسا فيهم، ومعهم وليسـا معهم، لأنّ الضّـلالة لا توافـق الهدى وإن اجتمعا. فاجتمع القـوم على الفرقـة، وافـترقوا على الجماعة، كأنّهم أئمّة الكتـاب، وليس الكتـاب إمـامهم، فلم يبـق عندهم منه إلّا اسمه، ولا يعرفون إلّا خطّه وزبره، ومن قبـل مـا مثّلـوا بالصّـالحين كـلّ مثلـة، وسـمّوا صـدقهم على اللّـه فريـة، وجعلوا في الحسنة عقوبة السّيّئة) (1)

وفي خطبة أخـرى رحت تـذكر الفتن وأسـبابها، فقلت: (ألا بأبي وأمّي! هم من عدّة أسـماؤهم في السّـماء معروفـة، وفي الأرض مجهولة، ألا فتوقّعوا ما يكون من إدبار أموركم، وانقطاع وصلكم، واسـتعمال صـغاركم، ذاك حيث تكـون ضـربة السّـيف على المــؤمن أهــون من الــدّرهم من حلّــه، ذاك حيث يكــون المعطى أعظم أجرا من المعطي، ذاك حيث تسكرون من غــير شـراب، بـل من النّعمـة والنّعيم، وتحلفـون من غـير اضـطرار، وتكذبون من غير إحراج، ذاك إذا عضّكم البلاء كمــا يعضّ القتب غـارب البعـير، مـا أطـول هـذا العنـاء، وأبعـد هـذا الرّجـاء؟ أيّهـا النّـاس، ألقـوا هـذه الأزمّـة الّـتي تحمـل ظهورهـا الأثقـال من أيـديكم، ولا تصـدّعوا على سـلطانكم فتـذمّوا غبّ فعـالكم، ولا تقتحموا ما استقبلتم من فـور نـار الفتنـة، وأميطـوا عن سـننها، وخلّوا قصد السّبيل لها- فقد لعمري- يهلـك في لهبهـا المـؤمن،

1() نهج البلاغة: الخطبة رقم 147.

ويسلم فيها غير المسلم) [1]

وفي خطبة أخرى رحت تـذكر فتنـة بـني أميـة، ومـا تجلبـه للأمة من أنـواع الانحـراف في الـدين والـدنيا، فقلت: (إنّي أرى أهل الشام على باطلهم أشدّ اجتماعـا منكم على حقّكم، واللّـه لتوطؤنّ هكذا وهكذا- وضـرب برجلـه على المنـبر، حـتى سـمع صوته من في آخر المسجد، وقال-: ثمّ ليستعملنّ عليكم اليهـود والنّصـارى، حتّى تنفـوا- يعـني إلى أطـراف الأرض- ثمّ لا يـرغم اللّه إلّا بآنافكم) [2]

وفي حديث آخر رحت تصف بعض مظاهر الفتن التي تنزل بهذه الأمة لإعراضها عن وصـايا نبيـه بـالثقلين، فقلت: (إذا كـان زعيم القوم فاسقهم، وأكرم الرجل اتّقـاء شـرّه، وعظّم أربـاب الدّنيا، واستخفّ بحملة القرآن، وكانت تجارتهم الرباء، ومـأكلهم أموال اليتامى، وعطّلت المساجد، وأكرم الرجـل صـديقه وعـقّ أباه، وتواصلوا بالباطـل، وقطعـوا الأرحـام، واتخـذوا كتـاب اللّـه مزامير، وتفقّه الناس لغير الدّين، وأكـل الرجـل أمانتـه، وأوتمن الخونة، وخوّن الأمناء، واستعمل السفهاء، ورفعت الأصوات في المسـاجد، واتّخـذت طاعـة اللـه بضـاعة، وكـثر القـرّاء، وقـلّ الفقهاء، فعند ذلك توقّعـوا ثلاثـا: توقّعـوا ريحـا حمـراء، وخسـفا وزلازل، وأمورا عظاما) [3]

ولم تكتـف ــ سـيدي ــ بتلـك الأوصـاف الـتي وصـفت بهـا عصرك والعصور بعدك، وإنمـا رحت في خطبـك الكثـيرة تحلـل أسبابها، وتعطي العلاج الناجع لها.

ومن ذلـك خطبتـك العظيمـة المعروفـة بــ (القاصـعة) [4]، والتي شخصـت فيهـا الصـراع بين المشـروع الإلهي والمشـروع

[1] () نهج البلاغة: الخطبة رقم(187)

[2] () مستدرك نهج البلاغة للمحمودي: ج 2 ص 591- 592 الخطبة رقم(325)

[3] () مستدرك نهج البلاغة للمحمودي: ج 3 ص 436- 437 الخطبة رقم(116)

[4] () هي خطبة طويلة مملوءة بالمعاني، انظر: نهج البلاغة: الخطبة رقم(192)

الشيطاني.. والتي حذرت فيها من إبليس، وبينت أنـه لن يغفـل عن هذه الأمة كما لم يغفل عن غيرها من الأمم.. وأنه سيحرف دينها كما حرف سائر الأديان..

ومما ذكرته فيها قولك: (فاعتبروا بما كـان من فعـل اللّـه بإبليس، إذ أحبط عمله الطّويل، وجهده الجهيـد، وكـان قـد عبـد اللّه ستّة آلاف سنة، لا يـدرى أ من سـني الـدّنيا، أم من سـني الآخرة؟ عن كبر ساعة واحدة.. فمن ذا بعـد إبليس يسـلم على اللّه بمثل معصيته؟ كلّا، ما كان اللّه سبحانه ليدخل الجنّة بشـرا بأمر أخرج به منها ملكا، إنّ حكمه في أهل السّماء وأهل الأرض لواحد، وما بين اللّه وبين أحد من خلقـه هـوادة في إباحـة حمى حرّمه على العالمين)

ثم رحت تحـذر من الوقـوع في حبائـل الشـيطان، وخدمـة مشروعة التحريفي، فقلت: (فاحـذروا عبـاد اللّـه عـدوّ اللّـه، أن يعـديكم بدائـه، وأن يسـتفزّكم بندائـه، وأن يجلب عليكم بخيلـه ورجلـه. فلعمـري لقـد فـوّق لكم سـهم الوعيـد، وأغـرق إليكم بـالنّزع الشّـديد، ورمـاكم من مكـان قـريب، فقـال: ﴿رَبِّ بِمَـا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِين﴾ [الحجر:39]، قـذفا بغيب بعيـد، ورجمـا بظنّ غـير مصـيب، صـدّقه بـه أبنـاء الحميّة، وإخـوان العصـبيّة، وفرسـان الكـبر والجاهليّـة، حتّى إذا انقـادت لـه الجامحـة منكم، واسـتحكمت الطّماعيّـة منـه فيكم، فنجمت الحـال من السّـرّ الخفيّ إلى الأمـر الجليّ، اسـتفحل سلطانه عليكم، ودلف بجنوده نحوكم، فأقحموكم ولجات الـذّلّ، وأحلّوكم ورطات القتل، وأوطؤوكم إثخـان الجراحـة، طعنـا في عيونكم، وحزّا في حلوقكم، ودقّا لمناخركم، وقصـدا لمقـاتلكم، وسوقا بخزائم القهر إلى النّـار المعـدّة لكم، فأصـبح أعظم في دينكم حرجا، وأورى في دنيـاكم قـدحا، من الّـذين أصـبحتم لهم مناصبين، وعليهم متألّبين، فاجعلوا عليه حدّكم، وله جدّكم)

قم رحت ـ سيدي ـ تحذر من التعصب والعصـبية، ومـا ينتج عنها من أحقاد الجاهلية وصـراعاتها، فقلت: (فـأطفئوا مـا كمن في قلـوبكم من نـيران العصـبيّة، وأحقـاد الجاهليّـة، فإنّمـا تلـك

الحميّة تكون في المسلم من خطرات الشّيطان ونخواته، ونزغاته ونفثاته، واعتمدوا وضع التّذلّل على رؤوسكم، وإلقاء التّعزّز تحت أقدامكم، وخلع التّكبّر من أعناقكم، واتّخذوا التّواضع مسلحة بينكم، وبين عدوّكم إبليس وجنوده، فإنّ له من كلّ أمّة جنودا وأعوانا، ورجلا وفرسانا، ولا تكونوا كالمتكبّر على ابن أمّه، من غير ما فضل جعله اللّه فيه، سوى ما ألحقت العظمة بنفسه، من عداوة الحسد، وقدحت الحميّة في قلبه من نار الغضب، ونفخ الشّيطان في أنفه من ريح الكبر، الّذي أعقبه اللّه به النّدامة، وألزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة)

ثم رحت توبخهم، وتوبخ كل من وقع في شرك الشيطان، وراح يخدم مشروعه، فقلت: (ألا وقد أمعنتم في البغي، وأفسدتم في الأرض، مصارحة للّه بالمناصبة، ومبارزة للمؤمنين بالمحاربة، فاللّه اللّه في كبر الحميّة، وفخر الجاهليّة، فإنّه ملاقح الشّنئان، ومنافخ الشّيطان، الّتي خدع بها الأمم الماضية، والقرون الخالية، حتّى أعنقوا في حنادس جهالته، ومهاوي ضلالته، ذللا عن سياقه، سلسا في قياده، أمرا تشابهت القلوب فيه، وتتابعت القرون عليه، وكبرا تضايقت الصّدور به)

ثم رحت تصف مكامن الداء التي استخدمها الشيطان، وهم الكبراء والطغاة والسادة سواء كانوا من أهل السياسة أو من أهل العلم، فقلت: (ألا فالحذر الحذر من طاعة ساداتكم وكبرائكم، الّذين تكبّروا عن حسبهم، وترفّعوا فوق نسبهم، وألقوا الهجينة على ربّهم، وجاحدوا اللّه على ما صنع بهم، مكابرة لقضائه، ومغالبة لآلائه، فإنّهم قواعد أساس العصبيّة، ودعائم أركان الفتنة، وسيوف اعتزاء الجاهليّة.. فاتّقوا اللّه ولا تكونوا لنعمه عليكم أضدادا، ولا لفضله عندكم حسّادا، ولا تطيعوا الأدعياء الّذين شربتم بصفوكم كدرهم، وخلطتم بصحّتكم مرضهم، وأدخلتم في حقّكم باطلهم، وهم أساس الفسوق، وأحلاس العقوق.. اتّخذهم إبليس مطايا ضلال، وجندا بهم يصول على النّاس، وتراجمة ينطق على ألسنتهم، استراقا لعقولكم، ودخولا في عيونكم، ونفثا في أسماعكم، فجعلكم مرمى نبله، وموطئ قدمه، ومأخذ يده)

ثم رحت تذكرهم، وتذكر الأجيـال من بعـدهم بعـواقب من خضع لمشروع الشيطان، ونسي وابتعـد عن مشـروع الـرحمن، فقلت: (فاعتبروا بمـا أصـاب الأمم المسـتكبرين من قبلكم من بأس اللّه وصولاته، ووقائعه ومثلاته، واتّعظوا بمثـاوي خـدودهم، ومصـارع جنـوبهم، واسـتعيذوا باللّـه من لـواقح الكـبر، كمـا تستعيذونه من طوارق الـدّهر. فلـو رخّص اللّـه في الكـبر لأحـد من عباده، لرخّص فيه لخاصّـة أنبيائـه وأوليائـه، ولكنّـه سـبحانه كـرّه إليهم التّكـابر، ورضـي لهم التّواضـع، فألصـقوا بـالأرض خـدودهم، وعفّـروا في التّـراب وجـوههم، وخفضـوا أجنحتهم للمؤمـنين، وكـانوا قومـا مستضـعفين، قـد اختـبرهم اللّـه بالمخمصة، وابتلاهم بالمجهدة، وامتحنهم بالمخـاوف، ومخضـهم بالمكاره)

إلى آخر خطبتك الطويلة ـ سـيدي ـ والـتي لا نسـتطيع أن نفسـرها بـأكثر من قراءتهـا، وإعـادة قراءتهـا كـل حين لنعيش معانيها العظيمة.. ولتغرس فينا من قيم التواضـع والعبوديـة مـا يهزم مشروع الشيطان من جذوره.

لن أحـدثك سـيدي على مـا وصـلنا من إنبائـك عن أخبـار المسـتقبل، والـتي صـدقتها الأيـام، لأن من قـومي من لا يحب الحديث في هذه الأمور.

لكني فقط أريـد أن أذكـر لـك حـديثا من أحاديثـك العجيبـة التي رأيناها في زماننا رأي العين.. ورآها الكثـير.. ولكن العيـون العمي تغض أبصـارها عن حـديثك.. ولـو كـان حـديثا لخصـمك لأشـاعوك، ولجعلـوا منـه نبـوءة من النبـوءات، ومكرمـة من المكرمات.

فقد حدثتنا قبل تلك القرون الطويلة عن أولئك المجـرمين الذين اكتوينا بنـارهم.. فوصـفتهم خـير وصـف وأصـدقه، فقلت: (إذا رأيتم الرايات السود فالزموا الأرض فلا تحركـوا أيـديكم ولا أرجلكم، ثم يظهر قوم ضعفاء لا يؤبه لهم، قلوبهم كزبر الحديد، هم أصحاب الدولة، لا يفون بعهد ولا ميثـاق، يـدعون إلى الحـق وليسوا من أهله، أسماؤهم الكنى ونسـبتهم القـرى، وشـعورهم

مرخاة كشعور النساء، حتى يختلفوا فيما بينهم، ثم يؤتي الله الحق من يشاء)[1]

إن هذا الحديث معجزة من معجزاتك سيدي، لمن يريد أن يعرف قدرك.. فكل كلمة فيه تدل على [داعش]، أو ما يسمونها [تنظيم الدولة الإسلامية]، فأول لفظة في نبوءتك الصادقة قولك: (لا يؤبه بهم): وهذا متحقق في الواقع، اذ أنه لم يأبه بهم أحد إلى أن اجتاحوا نصف العراق، وهزموا المسلحين في سوريا.. وقولك (قلوبهم كزبر الحديد)، تصف قسوة قلوبهم، وهي محل اتفاق، بل رآها العالم أجمع.. وقولك (هم أصحاب الدولة) هو الشفرة، والسر، والمعجزة، فهذا متحقق بشكل لا يمكن لأحد أن يخترعه قبل 1200 سنة.. وقولك (لا يفون بعهد ولا ميثاق) متواتر عنهم، وقصص نكثهم بالعهود وقتلهم الوسطاء والضيوف متواترة.. وقولك (يدعون إلى الحق وليسوا من أهله) متحقق أيضاً، ولذلك يغرون كثيراً من الناس، فيظنونهم أهل حق، والعلم بهم هش، لأن الناس يتبعون أشباههم.. وقولك (أسماؤهم الكنى ونسبتهم القرى)، منطبق تماما معهم، حيث نجدهم يسمون: أبو فلان البغدادي، أو فلان الشيشاني، أبو فلان الليبي، وهذا متحقق فيهم كلهم، وليس مجرد نسبة نادرة.. وقولك (وشعورهم مرخاة كشعور النساء) يصفهم بدقة..

فهذه ثمان صفات مجتمعة فيهم لا تجتمع في غيرهم[2].. وهي مجرد نبوءة واحدة من نبوءاتك.. وما أكثرها.. وما أكثر عبرها.. وما أقل المعتبرين بها.

التحليل والتصنيف:

أما علم التحليل والتصنيف.. فهو عجيبة من عجائبك.. فأنت تصف الحقائق، وتقسمها تقسيما بديعا محيطا، وكأنك

---

[1] () رواه نعيم بن حماد، وقد ذكر الشيخ حسن بن فرحان المالكي أن إسناده حسن - بالقرائن - لاسيما مع تصديق الواقع له.

[2] () انظر: حديث علي بن أبي طالب في داعش، لحسن بن فرحان المالكي.

تراها مجسمة بين عينيك..

وقد وصلنا من تحليلاتك وتصنيفاتك ما يؤسس لمعارف وعلوم كثيرة.. ولو أن الأمة اهتدت بهديها واكتفت بها، لحافظت على أصالة دينها، وما وقعت في الكثير من الدجل الذي وقت فيه.

من ذلك قولك في وصف القلب، وما يتعلق به من صفات متضادة: (لقد علّق بنياط هذا الإنسان بضعة هي أعجب ما فيه وذلك القلب، وذلك أنّ له موادّ من الحكمة، وأضدادا من خلافها؛ فإن سنح له الرّجاء أذلّه الطّمع، وإن هاج به الطّمع أهلكه الحرص، وإن ملكه اليأس قتله الأسف، وإن عرض له الغضب اشتدّ به الغيظ، وإن أسعده الرّضا نسي التّحفّظ، وإن غاله الخوف شغله الحذر، وإن اتّسع له الأمر استلبته الغرّة، وإن أفاد مالا أطغاه الغنى، وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع، وإن عضّته الفاقة شغله البلاء، وإن جهده الجوع قعد به الضّعف، وإن أفرط به الشّبع كظّته البطنة، فكلّ تقصير به مضرّ، وكلّ إفراط له مفسد) [1]

ومن ذلك تصنيفك لقوام الدنيا والدين، والذي عبرت عنه بقولك: (قوام الدّين والدّنيا بأربعة: عالم مستعمل علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلّم، وجواد لا يبخل بمعروفه، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه، فإذا ضيّع العالم علمه استنكف الجاهل أن يتعلّم، وإذا بخل الغنيّ بمعروفه باع الفقير آخرته بدنياه) [2]

ومن ذلك هذا التصنيف العجيب للإيمان وأركانه، والذي أجبت به عبادة بن قيس الذي سألك عنه، فقلت على البديهة: (الإيمان على أربعة أركان: الصّبر، واليقين، والعدل، والجهاد) [3]

---

[1] نهج البلاغة: الحكمة(108)

[2] نهج البلاغة: الحكمة(372).

[3] دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم، للقاضي القضاعي ص 114- 119 .

ثم رحت تبين أركان الصبر، فقلت: (والصّبر من ذلـك على أربعة أركان: على الشـوق، والشـفقة، والزهـد، والـترقب، فمن اشتاق إلى الجنّة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النّار رجــع عن الحرمات، ومن زهد في الدنيا هانت عليـه المصـيبات، ومن ترقّب الموت سارع في الخيرات)

ثم رحت تبين أركان اليقين، فقلت: (اليقين من ذلــك على أربعــة أركــان: على تبصــرة الفطنــة، وموعظــة العـبرة، وتأويـل الحكمة بتبيّن العبرة، ومن تبيّن العبرة عرف السنّة، ومن عرف السنّة فكأنّما كان في الأولين، فاهتدى إلى التي هي أقوم)

ثم رحت تبين أركان العدل، فقلت: (العــدل من ذلـك على أربعة أركان: على غامض الفهم، وغمــرة العلم، وزهــرة الحكم، وروضــة الحكم، فمن فهم فسّــر جمــل العلم، ومن علم شــرع غرائب الحكم، ومن شرع غرائب الحكم دلّته على معادن الحلم فلم يضــلّ. من حلم لم يفــرّط في أمــره، وعــاش في النّــاس حميدا)

ثم رحت تبين أركان الجهاد، فقلت: (الجهـاد من ذلـك على أربعــة أركــان: على الأمــر بــالمعروف، والنهي عن المنكــر، والصدق في المواطن، وشنآن الفاسقين، فمن أمـر بـالمعروف شدّ ظهر المؤمنين، ومن نهى عن المنكر أرغم أنف المنــافقين، ومن صدق في المواطن قضى ما عليـه، ومن شـنئ الفاسـقين فقد غضب لله جلّ وعزّ، ومن غضب لله جلّ ثناؤه، له)

ثم خــاطبت ابن قيس قــائلا: (ذلــك الإيمــان يــا ابن قيس ودعائمه وأركانه. أفهمت؟)، فلم يملك ـ وهو منبهر من حكمتـك وعلمك وبديهتك وحضـور حجتـك ــ إلا أن يقـول: (نعم، يـا أمـير المؤمنين، أرشدك اللّه فقد أرشدت)

ومن تلــك التصــنيفات مــا ذكرتــه في بعض مواعظــك في الحث على اغتنام الفرصـة، وتـرك التسـويف، حيث قلت: (إنمـا الدهر ثلاثة أيام- أنت فيما بينهن-: مضى أمس بما فيه فلا يرجع أبدا، فإن كنت عملت فيه خيرا لم تحـزن لذهابـه، وفـرحت بمـا

أسلفته فيه، وإن كنت قد فرّطت فيه، فحسرتك شديدة لذهابه وتفريطك فيه.. وأنت في يومك الذي أصبحت فيه من غد في غرّة! ولا تدري ولعلّك لا تبلغه؟ وإن بلغته لعلّ حظّك فيه في التفريط مثل حظّك في الأمس الماضي عنك! فيوم من الثلاثة قد مضى وأنت فيه مفرّط، ويوم تنتظره ولست أنت منه على يقين من ترك التفريط، وإنما لك من الثلاثة هو يومك الذي أصبحت فيه) (1)

ومن تصنيفاتك البديعة المرتبطة بعلم النفس ذكرك للخصال التي يكشفها اللسان من حقيقة الإنسان، فقد قلت فيها: (أيها الناس، إن في الإنسان عشر خصال يظهرها لسانه: شاهد يخبر عن الضمير، وحاكم يفصل بين الخطاب، وناطق يردّ به الجواب، وشافع تدرك به الحاجة، وواصف تعرف به الأشياء، وأمير يأمر بالحسن، وواعظ ينهى عن القبيح، ومعزّ تسكّن به الأحزان، وحامد تجلى به الضغائن، ومونق يلهي الأسماع)

ومنها هذا التنصيف المرتبط بالعلاقات الاجتماعية: (لا يكون الصّديق صديقا حتّى يحفظ أخاه في ثلاث: في نكبته، وغيبته، ووفاته) (2)

ومنها تصنيفاتك البديعة لمكارم الأخلاق، وهي تؤسس لعلم الأخلاق تأسيسا متينا قويا.. وقد أوصيت بها ابنك ريحانة رسول الله ﷺ وسيد شباب أهل الجنة الإمام الحسن(3)، فقلت له: احذر من الأمور ثلاثا، وخف من ثلاث، وارج ثلاثا، ووافق ثلاثا، واستحي من ثلاث، وافزع إلى ثلاث، وشحّ على ثلاث، وتخلّص إلى ثلاث، واهرب إلى ثلاث، واهرب من ثلاث، وجانب ثلاثا، يجمع الله لك بذلك حسن السيرة في الدنيا والآخرة)

ثم رحت تفصل له في كل واحدة منها، وتبين له أسرار وصيتك المرتبطة بها.. ومن ذلك قولك في الخلال التي حذرت

1() مستدرك نهج البلاغة للمحمودي: ج 3 ص 255- 256 الخطبة رقم(66)

2() نهج البلاغة: الحكمة(134)

3() دستور معالم الحكم: ص 79- 82.

منها: (فأما الذي أمرتك أن تحذرها: فاحذر الكبر، والغضب، والطمع.. فأما الكبر: فإنه خصلة من خصال الأشرار، والكبرياء رداء الله عزّ وجلّ، ومن أسكن الله قلبه مثقال حبة من كبر أورده النار.. والغضب يسفّه الحليم، ويطيش العالم، ويفقد معه العقل، ويظهر معه الجهل.. والطمع فخ من فخاخ إبليس، وشرك من عظيم احتباله، يصيد به العلماء والعقلاء، وأهل المعرفة وذوي البصائر)

ومن ذلك قولك في الخلال التي طلبت منه الخوف منها: (خف اللّه، وخف من لا يخاف الله، وخف لسانك فإنه عدوّك على دينك، يؤمنك الله جميع ما خفته)

ومن ذلك قولك في الخلال التي طلبت منه الرجاء فيها: (ارج عفو الله عن ذنوبك، وارج محاسن عملك، وارج شفاعة نبيك ﷺ)

ومن ذلك قولك في الخلال التي طلبت منه الموافقة فيها: (وافق كتاب اللّه، ووافق سنة نبيك ﷺ، ووافق ما يوافق الحق والكتاب)

ومن ذلك قولك في الخلال التي طلبت منه الاستحياء منها: (استح من مطالعة الله إيّاك وأنت مقيم على ما يكره، واستح من الحفظة الكرام الكاتبين، واستح من صالح المؤمنين)

ومن ذلك قولك في الخلال التي طلبت منه الفزع منها: (افزع إلى الله في ملمّات أمورك، وافزع إلى التوبة في مساوي عملك، وافزع إلى أهل العلم وأهل الأدب)

ومن ذلك قولك في الخلال التي طلبت منه الشح عليها: (شح على عمرك أن تفنيه مما هو عليك لا لك، وشحّ على دينك ولا تبذله للغضب، وشحّ على كلامك إلّا ما كان لك ولا عليك)

ومن ذلك قولك في الخلال التي طلبت منه التخلص منها: (تخلّص إلى معرفتك نفسك وإظهار عيوبها ومقتك إياها،

وتخلّص إلى تقـوى اللّـه، ثم تخلّص إلى إخمـال نفسـك وإخفـاء ذكرك)

ومن ذلك قولك في الخلال التي طلبت منـه الهـرب منهـا: (اهـرب من الكـذب، واهـرب من الظـالم وإن كـان ولـدك أو والـدك، واهـرب من مـواطن الامتحـان الـتي يحتـاج فيهـا إلى صبرك)

ومن ذلـك قولـك في الخلال الـتي طلبت منـه مجانبتهـا: (جانب هواك وأهل الأهواء، وجانب الشـر وأهـل الشـر، وجـانب الحمقى وإن كانوا متقرّبين أو مشيخة مختصّين)

ومن ذلك ما ورد في وصيتك له بعـد أن ضـربك ابن ملجم، والتي قلت له فيها: (يا بني، احفظ عني أربعا وأربعـا، لا يضـرك ما عملت بهن شيء) [1]

ثم ذكرت له الأربع الأولى، فقلت: (إن أغنى الغنى العقـل، وأكثر الفقر الحمق، وأوحش الوحشـة العجب، وأكـرم الحسـب حسن الخلق)

ثم ذكرت له الأربع الثانية، فقلت: (يا بني، وإيّاك ومصـادقة الأحمق! فإنه يريد أن ينفعك فيضرك.. وإيّاك ومصادقة الكذّاب! فإنه يقرّب عليك البعيد، ويبعّد عليك القريب.. وإيّـاك ومصـادقة البخيل! فإنه يقعد بك عند أحوج ما تكون إليه.. وإيّاك ومصـادقة الفاجر! فإنه يبيعك في نفاقه)

ومنها قولك في الأعمال وموجباتها والكرم الإلهي المرتبط بهـا: (من أعطي أربعـا لم يحـرم أربعـا: من أعطي الـدّعاء لم يحرم الإجابة، ومن أعطي التّوبة لم يحـرم القبـول، ومن أعطي الاسـتغفار لم يحـرم المغفـرة، ومن أعطي الشّـكر لم يحـرم الزّيادة) [2]

---

1 () دستور معالم الحكم: ص 89- 90.

2 () نهج البلاغة: الحكمة(135)

التحقيق والمقاصدية:

أما علم التحقيق والمقاصـدية ومـا يتفـرع منـه من علـوم، فكـل خطبـك ورسـائلك تصـب فيـه.. ذلـك أنـك لا تتحـدث في الرسـوم، وإنمـا تتحـدث في الحقـائق.. الحقـائق الـتي تعيشـها وتراهـا، وتتلقاهـا من تعليم رسـول اللـه ﷺ، ومن تـدبر القـرآن الكريم.

ولو أن الأمة أخذت بعلومك في هذا، لعرفت كيـف تتعامـل مـع الـدين، ولمـا ضـيعت قيمـه ومقاصـده انشـغالا بطقوسـه ورسومه.

ومن كلماتك في هذا ـ سـيدي ــ هـذه الكلمـات، بـل هـذه الجواهر المقاصدية العالية، والتي تشمل الدين كله: (فرض اللّه الإيمان تطهيرا من الشّرك، والصّلاة تنزيهـا عن الكـبر، والزّكـاة تسـبيبا للـرّزق، والصّـيام ابتلاء لإخلاص الخلـق، والحجّ تقربـة للدّين، والجهاد عزّا للإسلام، والأمر بالمعروف مصـلحة للعـوامّ، والنّهي عن المنكر ردعا للسّـفهاء، وصـلة الـرّحم منمـاة للعـدد، والقصاص حقنا للدّماء، وإقامة الحدود إعظاما للمحـارم، وتـرك شرب الخمـر تحصـينا للعقـل، ومجانبـة السّـرقة إيجابـا للعفّـة، وتـرك الزّنـا تحصـينا للنّسـب، وتـرك اللّـواط تكثـيرا للنّسـل، والشّهادات استظهارا على المجاحدات، وتـرك الكـذب تشـريفا للصّـدق، والسّـلام أمانـا من المخـاوف، والأمانـة نظامـا للأمّـة، والطّاعة تعظيما للإمامة) [1]

ومن ذلـك قولـك في تعريـف الإسـلام: (لأنسـبنّ الإسـلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي، الإسلام: هو التّسـليم، والتّسـليم هـو اليقين، واليقين هو التّصديق، والتّصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل) [2]

ومن ذلــك ـــ ســيدي ـــ قولــك في أصــناف المــروءة، ومظاهرهـا، وشـمولها للكثـير من الشـرائع والشـعائر، وعـدم

[1] () نهج البلاغة: الحكمة(252)

[2] () نهج البلاغة: الحكمة(125)

اقتصارها على ما كانت العرب تفهم منها: (مروءة المرء المسلم مروءتان: مروءة في حضر، ومروءة في سفر.. وأما مروءة الحضر: فقراءة القرآن، ومجالسة العلماء، والنظر في الفقه، والمحافظة على الصلوات في الجماعات.. وأما مروءة السفر: فبذل الزاد، وقلة الخلاف على من صحبك، وكثرة ذكر اللّه عزّ وجلّ في كل مصعد ومهبط، ونزول وقيام وقعود)

ومن ذلك قولك للذين انشغلوا بالرسوم عن الحقائق، فتوهموا الاستغفار ألفاظا تردد لا سلوكا يشمل الحياة جميعا، فقد سمعت رجلا يقول: (أستغفر اللّه)، فقلت له: (ثكلتك أمّك! أ تدري ما الاستغفار؟ الاستغفار: درجة العلّيّين، وهو اسم واقع على ستّة معان: أوّلها: النّدم على ما مضى.. والثّاني: العزم على ترك العود إليه أبدا..و الثّالث: أن تؤدّي إلى المخلوقين حقوقهم، حتّى تلقى اللّه أملس ليس عليك تبعة.. والرّابع: أن تعمد إلى كلّ فريضة عليك ضيّعتها فتؤدّي حقّها.. والخامس: أن تعمد إلى اللّحم الّذي نبت على السّحت فتذيبه بالأحزان، حتّى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد.. والسّادس: أن تذيق الجسم ألم الطّاعة كما أذقته حلاوة المعصية.. فعند ذلك تقول: أستغفر اللّه) [1]

ومن ذلك سيدي ما ورد في وصيتك لابنك محمد بن الحنفية، والذي شرحت له فيها من خلال القرآن الكريم شرائع الدين ومقاصدها[2].

ومما جاء فيها قولك له: (يا بني، لا تقل ما لا تعلم، بل لا تقل كل ما تعلم؛ فإن اللّه تبارك وتعالى قد فرض على جوارحك كلها فرائض يحتجّ بها عليك يوم القيامة ويسألك عنها، وذكّرها ووعظها وحذّرها وأدّبها ولم يتركها سدى، فقال اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولا﴾ [الإسراء:36]، وقال عزّ وجل: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ

[1] () نهج البلاغة: الحكمة(417)

[2] () مستدرك نهج البلاغة للمحمودي: ج 7 ص 204- 400.

وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ [النور:15].. ثم استعبدها بطاعته فقال عزّ وجلّ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون ﴾ [الحج:77]، فهذه فريضة جامعة واجبة على الجوارح)

ثم رحت سيدي تفصل في عبودية كل جارحة من الجوارح، بعد أن بينت من معاني قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:18] (يعني بالمساجد الوجه واليدين والركبتين والإبهامين)

فذكرت أن الله تعالى (خصّ كل جارحة من جوارحك بفرض ونصّ عليها، ففرض على السمع أن لا تصغي به على المعاصي، فقال عزّ وجل: ﴿وقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِها ويُسْتَهْزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ﴾ [النساء: 140])، وغيرها من الآيات الكريمة التي ذكرتها في خطبتك.

وذكرت أن الله تعالى فرض على البصر أن لا ينظر إلى ما حرّم الله عزّ وجل عليه، فقال عزّ من قائل: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ ويَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾[النور: 30])

وذكرت أن الله تعالى (فرض على اللسان الإقرار والتعبير عن القلب بما عقد عليه، فقال عزّ وجلّ: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وما أُنْزِلَ إِلَيْنا﴾[البقرة: 136]، وقال عزّ وجل: ﴿وقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾[النحل: 106]

وذكرت أن الله تعالى (فرض على القلب وهو أمير الجوارح، الذي به تعقل وتفهم، وتصدر عن أمره ورأيه، فقال عزّ وجل: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ﴾، وقال تعالى حين أخبر عن قوم أعطوا الإيمان بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم: ﴿الَّذِينَ قالُوا آمَنَّا بِأَفْواهِهِمْ ولَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾، وقال عزّ وجلّ: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾، وقال عزّ وجل: ﴿وإِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ ويُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ﴾

وهكذا رحت إلى كل الجوارح تذكر الفرائض المرتبطة بها، مستدلا على ذلك بالقرآن الكريم، والمعاني العظيمة التي حواها.

ثم ختمت وصيتك له بدعوته للقرآن الكريم، فهو الكتاب الذي حوى كل شيء، فقلت له: (فهذا ما فرض اللّه تبارك وتعالى على جوارحك، فاتق اللّه يا بني واستعملها بطاعته ورضوانه، وإيّاك أن يراك اللّه تعالى عند معصيته! أو يفقدك عند طاعته، فتكون من الخاسرين، وعليك بقراءة القرآن، والعمل بما فيه، ولزوم فرائضه وشرائعه، وحلاله وحرامه، وأمره ونهيه، والتهجّد به، وتلاوته في ليلك ونهارك، فإنه عهد من اللّه تبارك وتعالى إلى خلقه، فهو واجب على كل مسلم أن ينظر كل يوم في عهده ولو خمسين آية. واعلم أنّ درجات الجنّة على عدد آيات القرآن، فإذا كان يوم القيامة يقال لقارئ القرآن: اقرأ وارق، فلا يكون في الجنّة بعد النبيين والصدّيقين أرفع درجّة منه)

وهكذا ـ سيدي ـ رحت ببصيرتك النافذة تفسر سبب ما كان عليه الأنبياء عليهم السلام من فاقة وحاجة مقارنة بالطواغيت والمجرمين، فقلت في خطبتك التي حذرت فيها من المشروع الشيطاني للإنسان: (و لقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون عليهما السّلام على فرعون، وعليهما مدارع الصّوف، وبأيديهما العصيّ، فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه، ودوام عزّه، فقال: أ لا تعجبون من هذين، يشرطان لي دوام العزّ وبقاء الملك، وهما بما ترون من حال الفقر والذّلّ، فهلّا ألقي عليهما أساورة من ذهب؟ إعظاما للذّهب وجمعه، واحتقارا للصّوف ولبسه، ولو أراد اللّه سبحانه لأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذّهبان، ومعادن العقيان، ومغارس الجنان، وأن يحشر معهم طيور السّماء، ووحوش الأرضين لفعل، ولو فعل لسقط البلاء، وبطل الجزاء، واضمحلّت الأنباء، ولما وجب للقابلين أجور المبتلين، ولا استحقّ المؤمنون ثواب المحسنين، ولا لزمت الأسماء معانيها، ولكنّ اللّه سبحانه جعل رسله أولي قوّة في عزائمهم، وضعفة فيما ترى الأعين من

حالاتهم، مع قناعـة تملأ القلـوب والعيـون غـنى، وخصاصـة تملأ الأبصار والأسماع أذى)

ثم فسرت سر كون الأنبيـاء من ضـعفة النـاس، فقلت: (و لو كانت الأنبياء أهل قـوّة لا تـرام، وعـزّة لا تضـام، وملـك تمـدّ نحوه أعناق الرّجال، وتشدّ إليه عقد الرّحـال، لكـان ذلـك أهـون على الخلق في الاعتبار، وأبعـد لهم في الاسـتكبار، ولآمنـوا عن رهبة قاهرة لهم، أو رغبـة مائلـة بهم، فكـانت النّيّـات مشـتركة، والحسنات مقتسـمة، ولكنّ اللّـه سـبحانه أراد أن يكـون الاتّبـاع لرسله، والتّصديق بكتبه، والخشـوع لوجهـه، والاسـتكانة لأمـره، والاستسـلام لطاعتـه، أمـورا لـه خاصّـة، لا تشـوبها من غيرهـا شـائبة، وكلّمـا كـانت البلـوى والاختبـار أعظم، كـانت المثوبـة والجزاء أجزل)

ومثل ذلك رحت تفسر أسرار اختيـار اللـه تعـالى للأمـاكن التي يجب فيها الحج، فقلت معبرا بلسانك البليغ: (أ لا تـرون أنّ اللّه سبحانه اختبر الأوّلين من لدن آدم (صلوات الله عليـه) إلى الآخرين من هذا العـالم، بأحجـار لا تضـرّ ولا تنفـع، ولا تبصـر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام، الّذي جعله للنّاس قيامـا. ثمّ وضـعه بأوعر بقاع الأرض حجرا، وأقلّ نتائق الدّنيا مدرا، وأضيق بطـون الأودية قطرا، بين جبـال خشـنة، ورمـال دمثـة، وعيـون وشـلة، وقرى منقطعة، لا يزكو بها خفّ، ولا حافر ولا ظلف. ثمّ أمر آدم عليه السّلام وولده، أن يثنوا أعطافهم نحوه، فصار مثابة لمنتجع أسفارهم، وغاية لملقى رحـالهم، تهـوي إليـه ثمـار الأفئـدة، من مفـاوز قفـار سـحيقة، ومهـاوي فجـاج عميقـة، وجزائـر بحـار منقطعة، حتّى يهزّوا مناكبهم ذللا، يهلّلـون للّـه حولـه، ويرملـون على أقدامهم شعثا غبرا له. قد نبذوا السّـرابيل وراء ظهـورهم، وشوّهوا بإعفاء الشّعور محاسن خلقهم، ابتلاء عظيما، وامتحانـا شديدا، واختبارا مبينا، وتمحيصا بليغا، جعله اللّـه سـببا لرحمتـه، ووصلة إلى جنّته)

ثم بينت أنـه (لـو أراد سـبحانه أن يضـع بيتـه الحـرام، ومشـاعره العظـام، بين جنّـات وأنهـار، وسـهل وقـرار، جمّ

الأشـجار، داني الثّمـار، ملتـفّ البـنى، متّصـل القـرى، بين بـرّة سـمراء، وروضـة خضـراء، وأريـاف محدقـة، وعـراص مغدقـة، ورياض ناضرة، وطرق عامرة، لكان قد صغر قدر الجــزاء، على حسب ضعف البلاء. ولو كان الأساس المحمول عليها، والأحجار المرفوع بها، بين زمرّدة خضراء، وياقوته حمـراء، ونـور وضـياء، لخفّف ذلك مصارعة الشّكّ في الصّدور، ولوضع مجاهدة إبليس عن القلوب، ولنفى معتلج الرّيب من النّـاس. ولكنّ اللّـه يختـبر عبـاده بـأنواع الشّـدائد، ويتعبّـدهم بـأنواع المجاهـد، ويبتليهم بضروب المكاره، إخراجا للتّكبّر من قلوبهم، وإسكانا للتّذلّل في نفوسـهم، وليجعـل ذلـك أبوابـا فتحـا إلى فضـله، وأسـبابا ذللا لعفوه)

وهكـذا رحت تفسـر أسـرار العبوديـة المودعـة في كـل الشـعائر، فقلت: (عن ذلـك مـا حـرس اللّـه عبـاده المؤمـنين بالصّلوات والزّكوات، ومجاهدة الصّيام في الأيّـام المفروضـات، تسـكينا لأطـرافهم، وتخشـيعا لأبصـارهم، وتـذليلا لنفوسـهم، وتخفيضا لقلوبهم، وإذهابا للخيلاء عنهم، ولما في ذلك من تعفير عتاق الوجوه بالتّراب تواضعا، والتصاق كرائم الجـوارح بـالأرض تصاغرا، ولحوق البطون بالمتون من الصّـيام تـذلّلا، مـع مـا في الزّكاة من صرف ثمرات الأرض وغـير ذلـك إلى أهـل المسـكنة والفقر. انظروا إلى ما في هذه الأفعال من قمع نـواجم الفخـر، وقدع طوالع الكبر)

ثم ختمت حـديثك عن هـذه الحقـائق العظيمـة بالـدروس العمليـة المرتبطـة بهـا، فقلت: (فاللّـه اللّـه! في عاجـل البغي، وآجله وخامة الظّلم، وسوء عاقبـة الكـبر، فإنّهـا مصـيدة إبليس العظمى، ومكيدته الكبرى، الّتي تساور قلوب الرّجـال مسـاورة السّموم القاتلة، فما تكدي أبدا، ولا تشوي أحدا، لا عالما لعلمه، ولا مقلّا في طمره)

وهكـذا حـذرت في وصـاياك لكميـل من الاغـترار بظـواهر العبادات دون التحقق بحقائقها، فقلت: (يا كميل، لا تغترّ بأقوام يصلّون فيطيلون، ويصومون فيـداومون، ويتصـدّقون فيحسـبون

أنهم موفّقون.. يا كميل، أقسم بالله لسمعت رسول اللّه ﷺ يقول: (إن الشيطان إذا حمل قوما على الفواحش مثل: الزنا وشرب الخمر والربا، وما أشبه ذلك من الخنا والمآثم، حبّب إليهم العبادة الشديدة، والخشوع والركوع، والخضوع والسجود، ثم حملهم على ولاية الأئمة الذين ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ﴾ [القصص: 41])

سيدي ومولاي.. حبيب الله ورسوله..

من المعاني العظيمة التي أتـذكرها في هـذه الأيـام.. أيـام شهادتك.. تلك المواعظ الكثيرة الممتلئة بالرقة، والـتي لا تـزال كتب الرقائق ترددهـا، وتنسـج على منوالهـا.. فـأنت من أسـس لهذا النوع من الأدب الرفيع، وما يرتبط به من علوم.

لقد كانت مواعظك سـيدي حروفـا نورانيـة شـع بهـا قلبـك المليء بالطهر والسمو.. فلذلك برزت طـاهرة جميلـة سـامية.. كل من تعلق بهـا، وشـرب منهـا طهـر بهـا وحلـق في سـموات العرفان العالية.

وكيف لا يكون لكلماتك كل ذلك التـأثير.. وكـل كلام يـبرز، وعليه كسوة النور الذي منه برز.. وهل هناك كسوة نور أشرف من كسوتك التي كساك بها ربك وحبيبك رسول الله ﷺ..

وكلماتك سيدي ليست مجرد كلمـات جوفـاء ترددهـا.. بـل هي حقائق عظمى، فكل كلمة بحر من بحار النور.. ومعراج من معارج الترقي.

كم تمنيت سيدي لو أسـمعتك كـل كلماتـك الـتي وصـلتنا.. فهي كثيرة جدا.. وكل كلمة منهـا قـاموس من الكلمـات.. وكـل معنى منها محيط من المعاني..

لكني ـ سيدي ـ سأقتصر على بعض ما وصلنا من وصـايـاك ومواعظك لأهلك وأصحابك، ولعامة الناس، ولأعدائك.

مواعظه لأهله:

أما مواعظك لأهلك.. فقد كنت فيها مصداقا لقولـه تعـالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًـا نَّحْنُ نَرْزُقُـكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه:132]

وكنت فيها مصداقا لسنة الأنبياء عليهم الصـلاة والسـلام الـذين

أخبر الله عن أحدهم، وهو إسماعيل عليه السلام، فقال: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم:55]

وكنت فيها مصداقا لسنة الأولياء والحكماء الذين أخبر الله عن أحدهم، وهو لقمان عليه السلام، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:13]

وقد وردنا من مواعظك لأهلك الكثير مما لا نزال ننعم به..

ومنها وصيتك لابنك الحسن[1]، والتي تقول فيها له: (إنّي أوصيك بتقوى الله، أي بنيّ، ولزوم أمره، وعمارة قلبك بذكره، والاعتصام بحبله، وأيّ سبب أوثق من سبب بينك وبين اللّه إن أنت أخذت به؟)

ثم رحت تقول له في كلمات جامعة: (أحي قلبك بالموعظة، وأمته بالزّهادة، وقوّه باليقين، ونوّره بالحكمة، وذلّله بذكر الموت، وقرّره بالفناء، وبصّره فجائع الدّنيا، وحذّره صولة الدّهر، وفحش تقلّب اللّيالي والأيّام، واعرض عليه أخبار الماضين، وذكّره بما أصاب من كان قبلك من الأوّلين، وسر في ديارهم وآثارهم، فانظر فيما فعلوا وعمّا انتقلوا، وأين حلّوا ونزلوا، فإنّك تجدهم قد انتقلوا عن الأحبّة، وحلّوا ديار الغربة، وكأنّك عن قليل قد صرت كأحدهم)

إن كل كلمة من هذه الكلمات سيدي تحتاج إلى مجلدات لشرحها، وبيان الأسرار المودعة فيها، وأنا أعجب من الأمة تركت هذه الحكم الجليلة البارزة من تلميذ النبوة الأكبر، وراحت تنهل من كلمات الأحبار والرهبان، ممن لم يستوعبوا الإسلام، ولم يدركوا قيمه.

ثم قلت له ـ سيدي ـ وأنت تعظه: (فأصلح مثواك، ولا تبع آخرتك بدنياك، ودع القول فيما لا تعرف، والخطاب فيما لم تكلّف، وأمسك عن طريق إذا خفت ضلالته؛ فإنّ الكفّ عند حيرة الضّلال خير من ركوب الأهوال.. وأمر بالمعروف تكن من أهله، وأنكر المنكر بيدك ولسانك، وباين من فعله بجهدك،

[1] () نهج البلاغة: الكتاب رقم(31)

وجاهد في اللّه حقّ جهاده، ولا تأخذك في اللّه لومة لائم، وخض الغمـرات للحـقّ حيث كـان، وتفقّـه في الـدّين، وعـوّد نفسـك التّصبّر على المكـروه، ونعم الخلـق التّصـبر في الحـقّ.. وألجئ نفسك في أمورك كلّها إلى إلهك؛ فإنّك تلجئها إلى كهف حريـز، ومـانع عزيـز، وأخلص في المسـألة لربّـك؛ فـإنّ بيـده العطـاء والحرمـان، وأكـثر الاسـتخارة، وتفهّم وصـيّتي، ولا تـذهبنّ عنـك صفحا؛ فـإنّ خـير القـول مـا نفـع، واعلم أنّـه لا خـير في علم لا ينفع، ولا ينتفع بعلم لا يحقّ تعلّمه)

ومن كلماتـك الممتلئـة بالمعـاني في وصـيتك إليـه قولـك: (واعلم يا بنيّ، أنّ أحبّ ما أنت آخذ بـه إليّ من وصـيّتي: تقـوى اللّه، والاقتصار على ما فرضه اللّه عليك، والأخذ بما مضى عليه الأوّلون من آبائك، والصّالحون من أهـل بيتـك، فـإنّهم لم يـدعوا أن نظروا لأنفسهم كما أنت ناظر، وفكّـروا كمـا أنت مفكّـر، ثمّ ردّهم آخر ذلك إلى الأخذ بما عرفوا، والإمساك عمّا لم يكلّفـوا؛ فإن أبت نفسك أن تقبل ذلـك دون أن تعلم كمـا علمـوا، فليكن طلبك ذلك بتفهّم وتعلّم، لا بتورّط الشّبهات، وعلق الخصومات، وابدأ قبل نظرك في ذلـك بالاسـتعانة بإلهـك، والرّغبـة إليـه في توفيقك، وترك كـلّ شـائبة أولجتـك في شـبهة، أو أسـلمتك إلى ضلالة؛ فإن أيقنت أن قد صفا قلبك فخشع، وتمّ رأيـك فـاجتمع، وكان همّك في ذلك همّا واحدا، فانظر فيما فسّرت لك، وإن لم يجتمع لك ما تحبّ من نفسـك، وفـراغ نظـرك وفكـرك، فـاعلم أنّك إنّما تخبط العشواء، وتتورّط الظّلمـاء، وليس طـالب الـدّين من خبط أو خلط، والإمساك عن ذلك أمثل)

ومما ورد في وصيتك من المعاني العرفانية الرفيعة قولك: (فتفهّم يا بنيّ وصيّتي، واعلم أنّ مالك الموت هو مالك الحيـاة، وأنّ الخالق هـو المميت، وأنّ المفـني هـو المعيـد، وأنّ المبتلي هو المعافي، وأنّ الدّنيا لم تكن لتسـتقرّ إلّا على مـا جعلهـا اللّـه عليه من النّعماء والابتلاء، والجزاء في المعاد، أو ما شاء ممّـا لا تعلم.. فإن أشكل عليك شـيء من ذلـك فاحملـه على جهالتـك؛ فإنّك أوّل ما خلقت به جاهلا ثمّ علّمت، وما أكـثر مـا تجهـل من الأمر، ويتحيّر فيه رأيك، ويضلّ فيه بصرك، ثمّ تبصره بعد ذلـك،

فاعتصم بالّذي خلقك، ورزقك وسوّاك، وليكن له تعبّدك، وإليه رغبتك، ومنه شفقتك)

هذا جزء بسيط مما ذكرته لابنك الحسن.. وهو وحده كاف لأن يكون مدرسة في التربية والعرفان والسلوك.. وكل القيم النبيلة.

ومما حفظت لنا الدواوين من وصاياك وصيتك لابنيك الحسن والحسين عند احتضارك، وقبل استشهادك.. وهي وصية جامعة لكل ألوان الخير محذرة من كل أنواع الفتن، ومما ورد فيها قولك: (أوصيكما بتقوى اللّه، وأن لا تبغيا الدّنيا وإن بغتكما، ولا تأسفا على شيء منها زوي عنكما، وقولا بالحقّ، واعملا للأجر، وكونا للظّالم خصما، وللمظلوم عونا) [1]

ثم رحت توصيهما بفروع البر وتفاصيله، فقلت: (أوصيكما وجميع ولدي وأهلي، ومن بلغه كتابي، بتقوى اللّه ونظم أمركم، وصلاح ذات بينكم؛ فإنّي سمعت جدّكما ﷺ يقول: (صلاح ذات البين أفضل من عامّة الصّلاة والصّيام))

ثم رحت تؤكد عليهم، وبإلحاح شديد الالتزام بهذه الوصايا: (اللّه، اللّه في الأيتام! فلا تغبّوا أفواههم، ولا يضيعوا بحضرتكم.. واللّه، اللّه في جيرانكم! فإنّهم وصيّة نبيّكم، ما زال يوصي بهم حتّى ظننّا أنّه سيورّثهم.. واللّه، اللّه في القرآن! لا يسبقكم بالعمل به غيركم.. واللّه، اللّه في الصّلاة! فإنّها عمود دينكم.. واللّه، اللّه في بيت ربّكم! لا تخلّوه ما بقيتم؛ فإنّه إن ترك لم تناظروا.. واللّه، اللّه في الجهاد! بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم في سبيل اللّه، وعليكم بالتّواصل والتّباذل، وإيّاكم والتّدابر والتّقاطع)

ثم رحت توصيهم بمواصلة مسيرتك من بعده، حتى لا يسيطر الدجالون على الدين، فينحرفوا به عن مساره.. لقد قلت لهم: (لا تتركوا الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر؛ فيولّى عليكم شراركم، ثمّ تدعون فلا يستجاب لكم)

---

[1] () نهج البلاغة: الكتاب رقم(47)

مواعظه لأصحابه:

هذا بعض ما وصلنا من وصاياك لابنيك الطـاهرين ريحـانتي رسـول اللـه ﷺ، وسـيدي شـباب أهـل الجنـة.. أمـا وصـاياك ومواعظك لأصحابك ومن تبعك في زمنـك أو بعـده، فهي كثـيرة جدا.. بل كل كلمة من كلماتك وصية وموعظة لهم.

ومن جملة تلك الوصايا والمواعظ مـا حـدث عنـه تلميـذك النجيب نوف البكاليّ، فقال: رأيت أمير المؤمنين ذات ليلة وقـد خرج من فراشه، فنظر في النّجوم، فقـال لي: يـا نـوف، أراقـد أنت أم رامـق؟ فقلت: بـل رامـق.. قـال: (يـا نـوف، طـوبى للزّاهدين في الـدّنيا، الرّاغـبين في الآخـرة، أولئـك قـوم اتّخـذوا الأرض بساطا، وترابها فراشـا، وماءهـا طيبـا، والقـرآن شـعارا، والدّعاء دثارا، ثمّ قرضوا الدّنيا قرضـا على منهـاج المسـيح.. يـا نوف، إنّ داود عليه السّلام قام في مثل هذه السّاعة من اللّيل، فقال: إنّها لساعة لا يدعو فيها عبد إلّا استجيب له، إلّا أن يكـون عشّارا، أو عريفا، أو شرطيّا) [1]

وقد وصلنا في الروايات أنك سمعت رجلا من أصحابك يذمّ الدّنيا، فقلت له: (أيّها الـذّامّ للـدّنيا، المغـترّ بغرورهـا، المخـدوع بأباطيلها، أ تغـترّ بالـدّنيا ثمّ تـذمّها؟ أنت المتجـرّم عليهـا أم هي المتجرّمة عليك؟ متى استهوتك أم متى غرّتك؟ أ بمصارع آبائك من البلى؟ أم بمضاجع أمّهاتـك تحت الثّـرى؟ كم علّلت بكفّيـك، وكم مرّضت بيديك؟ تبتغي لهم الشّفاء، وتستوصف لهم الأطبّاء غـداة لا يغـني عنهم دواؤك، ولا يجـدي عليهم بكـاؤك، لم ينفـع أحدهم إشفاقك، ولم تسعف فيه بطلبتك، ولم تدفع عنه بقوّتك، وقد مثّلت لك به الدّنيا نفسك، وبمصرعه مصرعك)

ثم بينت له الموقف الصحيح من الـدنيا، فقلت: (إنّ الـدّنيا دار صـدق لمن صـدقها، ودار عافيـة لمن فهم عنهـا، ودار غـنى لمن تزوّد منها، ودار موعظة لمن اتّعظ بها، مسجدا أحبّاء اللّـه، ومصـلّى ملائكـة اللّـه، ومهبـط وحي اللّـه، ومتجـر أوليـاء اللّـه، اكتسبوا فيها الرّحمة، وربحـوا فيهـا الجنّـة.. فمن ذا يـذمّها وقـد

[1] () نهج البلاغة: الحكمة(104)

آذنت ببينها، ونـادت بفراقهـا، ونعت نفسـها وأهلهـا؟ فمثّلت لهم ببلائهـا البلاء، وشـوّقتهم بسـرورها إلى السّـرور، راحت بعافيـة، وابتكرت بفجيعة ترغيبا وترهيبا، وتخويفا وتحذيرا، فـذمّها رجـال غـداة النّدامـة، وحمـدها آخـرون يـوم القيامـة، ذكّـرتهم الـدّنيا فتذكّروا، وحدّثتهم فصدّقوا، ووعظتهم فاتّعظوا) (1)

وقد وصلنا في الروايات أيضا أنك سمعت رجلا يقـول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ﴾، فقلت له: (إنّ قولنـا: إِنَّا لِلَّهِ إقـرار على أنفسـنا بالملـك، وقولنـا: وإِنَّا إِلَيْـهِ راجِعُـونَ إقـرار على أنفسـنا بالهلك) (2)

ووصلنا أن بعض أصـحابك رأى عليـك إزارا خلقـا مرقوعـا، فسـألك عنـه، فقلت لـه: (يخشـع لـه القلب، وتـذلّ بـه النّفس، ويقتـدي بـه المؤمنـون، إنّ الـدّنيا والآخـرة عـدوّان متفاوتـان، وسـبيلان مختلفـان، فمن أحبّ الـدّنيا وتولّاهـا أبغض الآخـرة وعاداها، وهما بمنزلة المشـرق والمغـرب ومـاش بينهمـا، كلّمـا قرب من واحد بعد من الآخر، وهما بعد ضرّتان)(3)

لكن أعظم تلـك الوصـايا والمواعـظ ــ سـيدي ــ وكلهـا عظيمة، وصيتك إلى كميل بن زياد.. وهي وصـية ممتلئـة بتعليم الأدب والأخلاق العالية، والسلوك الحضاري الرفيع.

ومما ورد فيهـا ممـا يتعلـق بـآداب الطعـام قولـك لـه: (يـا كميل، ما من حركة إلّا وأنت محتاج فيها إلى معرفة.. يا كميـل، إذا أكلت الطعام فسم باسم اللّه، الذي لا يضـر مـع اسـمه داء، وهـو الشـفاء من جميـع الأدواء.. يـا كميـل، إذا أكلت الطعـام فواكل الطعام ولا تبخل عليه؛ فإنك لم ترزق الناس شيئا، واللّـه يجـزل لـك الثـواب بـذلك.. يـا كميـل، أحسـن خلقـك، وابسـط جليسـك، ولا تنهـرنّ خادمـك.. يـا كميـل، إذا أنت أكلت فطـوّل أكلـك ليسـتوفي من معـك، ويـرزق منـه غـيرك.. يـا كميـل، إذا

1() نهج البلاغة: الحكمة(131)

2() نهج البلاغة: الحكمة(99)

3() نهج البلاغة: الحكمة(103)

استوفيت طعامك فاحمد اللّه على ما رزقك، وارفع بذلك صوتك ليحمده سواك، فيعظم بذلك أجرك.. يا كميل، لا توقّرن معدتك طعاما، ودع فيها للماء موضعا وللريح مجالا.. يا كميل، لا تنفد طعامك فإن رسول اللّه ﷺ لم ينفده.. يا كميل، لا ترفعن يدك عن الطعام إلّا وأنت تشتهيه، فإذا فعلت ذلك فأنت تستمرئه.. يا كميل، صحة الجسد من قلة الطعام وقلة الماء) (1)

ومما يتعلق منها بآداب التعامل مع المال قولك له: (يا كميل، البركة في المال من إيتاء الزكاة، ومواساة المؤمنين، وصلة الأقربين.. يا كميل، زد قرابتك المؤمن على ما تعطي سواه من المؤمنين، وكن بهم أرأف، وعليهم أعطف، وتصدق على المساكين.. يا كميل، لا تردنّ سائلا ولو بشقّ تمرة، أو من شطر عنب.. يا كميل، الصدقة تنمى عند اللّه.. يا كميل، حسن خلق المؤمن من التواضع، وجماله التعطّف، وشرفه الشفقة، وعزّه ترك القال والقيل)

ومما يتعلق منها بآداب التعامل مع المخالفين قولك له: (يا كميل، إيّاك والمراء! فإنك تغري بنفسك السفهاء، وإذا فعلت تفسد الإخاء.. يا كميل، إذا جادلت في اللّه تعالى فلا تخاطب إلا من يشبه العقلاء وهذا ضرورة..يا كميل، هم على كلّ سفهاء، كما قال اللّه تعالى: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَـكِن لاَّ يَعْلَمُون﴾ [البقرة:13].. يا كميل، في كلّ قوم صنف أرفع من قوم، فإيّاك ومناظرة الخسيس منهم! وإذا أسمعوك فاحتمل، وكن من الذين وصفهم اللّه تعالى فقال: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا﴾ [الفرقان:63].. يا كميل، قل الحق على كل حال، ووازر المتقين، واهجر الفاسقين، وجانب المنافقين، ولا تصاحب الخائنين)

ومما يتعلق منها بالموقف من الظلمة قولك له: (يا كميل، إيّاك وتطرّق أبواب الظالمين، والاختلاط بهم، والاكتساب منهم! وإيّاك أن تطيعهم، أو تشهد في مجالسهم بما يسخط اللّه

1 () مستدرك نهج البلاغة للمحمودي: ج 8 ص 208- 233 الكتاب رقم(30)

عليك، وإن اضطررت إلى حضورهم فداوم ذكر اللّه تعالى، وتوكّل عليه، واستعذ بالله من شرهم، وأطرق عنهم، وأنكر بقلبك فعلهم، وأجهر بتعظيم اللّه تعالى لتسمعهم؛ فإنهم يهابوك وتكفى شرهم)

ومما يتعلق منها بآداب الحياة الشخصية قولك له: (يا كميل، لا بأس بأن لا يعلم سرّك.. يا كميل، لا تري الناس افتقارك واضطرارك، واصبر عليه بعز وتستّر.. يا كميل، لا بأس بأن تعلم أخاك سرك، ومن أخوك؟ أخوك الذي لا يخذلك عند الشدة، ولا يقعد عنك عند الجريرة، ولا يخدعك حين تسأله، ولا يتركك وأمرك حتّى تعلمه، فإن كان مميلا أصلحه.. يا كميل، المؤمن مرآة المؤمن؛ لأنه يتأمله، ويسدّ فاقته، ويجمل حالته)

ومما يتعلق منها بحقوق الأخوة، والعلاقات بين المؤمنين قولك له: (يا كميل، المؤمنون إخوة، ولا شيء آثر عند كل أخ من أخيه.. يا كميل، إن لم تحب أخاك فلست أخاه)

ومما يتعلق منها بكيفية التعامل مع النعمة والبلاء قولك له: (يا كميل، احمد اللّه تعالى والمؤمنين على ذلك وعلى كل نعمة.. يا كميل، قل عند كل شدة: (لا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم) تكفها، وقل عند كل نعمة: (الحمد لله) تزاد منها، وإذا أبطأت الأرزاق عليك فاستغفر اللّه يوسّع عليك فيها)

ومما يتعلق منها بالتحذير من الشيطان قولك له: (يا كميل، إذا وسوس الشيطان في صدرك فقل: (أعوذ بالله القوي من الشيطان الغوي، وأعوذ بمحمد الرضي من شر ما قدّر وقضي، وأعوذ بإله الناس من شر الجنة والناس) تكفى مؤونة إبليس والشياطين معه، ولو أنهم كلهم أبالسة مثله.. يا كميل، إن لهم خدعا وشقاشق، وزخارف ووساوس، وخيلاء على كل أحد قدر منزلته في الطاعة والمعصية، فبحسب ذلك يستولون عليه بالغلبة.. يا كميل، لا عدو أعدى منهم، ولا ضار أضرّ بك منهم، أمنيّتهم أن تكون معهم غدا إذا جثوا في العذاب، لا يفتر عنهم بشرره، ولا يقصر عنهم، خالدين فيها أبدا.. يا كميل، سخط اللّه تعالى محيط بمن لم يحترز منهم باسمه

وبنبيّه وجميع عزائمه.. يا كميل، إنهم يخدعوك بأنفسهم، فإذا لم تجبهم مكروا بك وبنفسك بتحسينهم شهواتك، وإعطائك أمانيك وإرادتك، ويسوّلون لك وينسونك، وينهونك ويأمرونك، ويحسنون ظنك بالله عزّ وجلّ، حتى ترجوه فتغترّ بذلك فتعصيه وجزاء العاصي لظى.. يا كميل، إنه [الشيطان] يأتي لك بلطف كيده، فيأمرك بما يعلم أنك قد ألفته من طاعة لا تدعها، فتحسب أن ذلك ملك كريم وإنما هو شيطان رجيم، فإذا سكنت إليه واطمأننت حملك على العظائم المهلكة التي لا نجاة معها.. يا كميل، إن له فخاخا ينصبها فاحذر أن يوقعك فيها)

ومما يتعلق منها برعاية الأولويات، وتقديم ما قدم الله وتأخير ما أخر، قولك له: (يا كميل، لا رخصة في فرض، ولا شدة في نافلة.. يا كميل، إن اللّه عزّ وجلّ لا يسألك إلّا على الفرض، فإنما قدّمنا عمل النوافل بين أيدينا للأهوال العظام، والطامّة يوم المقام.. يا كميل، إن الواجب لله أعظم من أن تزيله الفرائض والنوافل، وجميع الأعمال، وصالح الأموال، ولكن من تطوّع خيرا فهو خير له)

ومما يتعلق منها برعاية مقاصد الدين، قولك له: (يا كميل، ليس الشأن أن تصلي وتصوم وتتصدق، الشأن أن تكون الصلاة بقلب نقي، وعمل عند اللّه مرضي، وخشوع سوي، وإبقاء للجدّ فيها.. يا كميل، عند الركوع والسجود وما بينهما تبتلّه العروق والمفاصل حتى تستوفي ولاء إلى ما تأتي به من جميع صلواتك.. يا كميل، انظر فيم تصلّي وعلام تصلّي، إن لم تكن من وجهه وحلّه فلا قبول)

ومما يتعلق منها بطلب الحلال، والتحذير من أكل الحرام، قولك له: (يا كميل، إن اللسان يبوح من القلب، والقلب يقوم بالغذاء، فانظر فيما تغذّي قلبك وجسمك، فإن لم يكن ذلك حلالا لم يقبل اللّه تعالى تسبيحك ولا شكرك.. يا كميل، افهم واعلم إنّا لا نرخّص في ترك أداء الأمانات لأحد من الخلق، فمن روى عني في ذلك رخصة فقد أبطل وأثم، وجزاءه النار بما كذب، أقسم لسمعت رسول اللّه ﷺ يقول لي قبل وفاته

بساعة مرارا ثلاثة: (يا أبا الحسن، أدّ الأمانة إلى البر والفاجر، فيما قلّ وجلّ حتّى في الخيط والمخيط)

مواعظه للعامة:

تلك ــ سيدي ــ بعض وصاياك ومواعظك لأصحابك المقربين.. أما مواعظك لعامة المسلمين.. فهي تشكل قاموسا من المعاني السامية الرفيعة التي تطهر النفس، وتملأ القلب بالمواجيد الصادقة، والروحانية السامية.

ولا يمكنني أن أسرد عليك ما وصلنا من مواعظك في هذا.. ولكني سأكتفي بذكر بعضها.. لأملأ نفسي من نورانية كلامك المقدس.

فمن ذلك أنك سرت في جنازة، فرأيت رجلا يضحك، فقلت: (كأنّ الموت فيها على غيرنا كتب.. وكأنّ الحقّ فيها على غيرنا وجب.. وكأنّ الّذي نرى من الأموات سفر عمّا قليل إلينا راجعون.. نبوّئهم أجداثهم، ونأكل تراثهم، كأنّا مخلّدون بعدهم.. ثمّ قد نسينا كلّ واعظ وواعظة، ورمينا بكلّ فادح وجائحة) [1]

ومن ذلك أنك عند رجوعك من صفّين، أشرفت على القبور بظاهر الكوفة، فقلت ــ تسمع من كان معك، وتعظهم بذلك ـ: (يا أهل الدّيار الموحشة، والمحالّ المقفرة، والقبور المظلمة، يا أهل التّربة، يا أهل الغربة، يا أهل الوحدة، يا أهل الوحشة، أنتم لنا فرط سابق، ونحن لكم تبع لاحق، أمّا الدّور فقد سكنت، وأمّا الأزواج فقد نكحت، وأمّا الأموال فقد قسمت، هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم؟)

ثمّ التفت إلى من كان معك، وقلت: (أما لو أذن لهم في الكلام لأخبروكم: أنّ خير الزّاد التّقوى)[2]

1() نهج البلاغة: الحكمة(122)

2() نهج البلاغة: الحكمة(130)

ومن ذلك أنـك مـررت بقـذر على مزبلـة، فقلت: (هـذا مـا بخل به الباخلون.. هذا ما كنتم تتنافسون فيه بالأمس) [1]

وفي موعظـة أخـرى قلت: (إنّمـا المـرء في الـدّنيا غـرض تنتضـل فيـه المنايـا، ونهب تبـادره المصـائب، ومـع كـلّ جرعـة شـرق، وفي كـلّ أكلـة غصـص، ولا ينـال العبـد نعمـة إلّا بفـراق أخـرى، ولا يسـتقبل يومـا من عمـره إلّا بفـراق آخـر من أجلـه، فنحن أعوان المنـون، وأنفسـنا نصـب الحتـوف، فمن أين نرجـو البقاء، وهذا اللّيل والنّهار لم يرفعا من شيء شـرفا، إلّا أسـرعا الكرّة في هدم ما بنيا، وتفريق ما جمعا) [2]

وفي موعظة أخرى قلت: (يا أيّها النّاس، متاع الدّنيا حطام مـوبئ، فتجنّبـوا مرعـاه، قلعتهـا أحظى من طمأنينتهـا، وبلغتهـا أزكى من ثروتها، حكم على مكثر منها بالفاقة، وأعين من غــني عنهـا بالرّاحــة، من راقــه زبرجهـا أعقبت ناظريــه كمهـا، ومن استشـعر الشّـغف بهـا ملأت ضـميره أشـجانا، لهنّ رقص على سويداء قلبه: همّ يشغله، وغمّ يحزنه، كذلك حتّى يؤخذ بكظمـه، فيلقى بالفضـاء، منقطعـا أبهـراه، هيّنـا على اللّـه فنـاؤه، وعلى الإخوان إلقـاؤه، وإنّمـا ينظـر المـؤمن إلى الـدّنيا بعين الاعتبـار، ويقتــات منهـا ببطن الاضــطرار، ويســمع فيهـا بــأذن المقت، والإبغاض إن قيل أثرى قيل أكدى، وإن فرح له بالبقاء حـزن لـه بالفناء، هذا ولم يأتهم يوم فيه يبلسون) [3]

وفي موعظة أخرى قلت: (أيّها النّاس، اتّقوا اللّه فما خلـق امرؤ عبثا فيلهو، ولا ترك سدى فيلغو، وما دنيـاه الّـتي تحسّـنت له بخلف من الآخرة الّتي قبّحها سوء النّظر عنده، وما المغـرور الّذي ظفر من الدّنيا بأعلى همّته كالآخر الّذي ظفـر من الآخـرة بأدنى سهمته.. أوصيكم عبـاد اللّـه بتقـوى اللّـه، الّـذي ألبسـكم الرّياش، وأسبغ عليكم المعـاش، فلـو أنّ أحـدا يجـد إلى البقـاء

1() نهج البلاغة: الحكمة(195)

2() نهج البلاغة: الحكمة(191)

3() نهج البلاغة: الحكمة(367)

سلّما، أو لدفع الموت سبيلا، لكان ذلك سليمان بن داود عليه السّلام، الّذي سخّر له ملك الجنّ والإنس، مع النّبوّة وعظيم الزّلفة، فلمّا استوفى طعمته، واستكمل مدّته، رمته قسيّ الفناء، بنبال الموت، وأصبحت الدّيار منه خالية، والمساكن معطّلة، وورثها قوم آخرون، وإنّ لكم في القرون السّالفة لعبرة، أين العمالقة وأبناء العمالقة؟)(1)

ثم رحت تصيح بصوتك المجلجل الذي تهتز له القلوب والأرواح: (أين الفراعنة وأبناء الفراعنة؟.. أين أصحاب مدائن الرّسّ، الّذين قتلوا النّبيّين، وأطفؤوا سنن المرسلين، وأحيوا سنن الجبّارين؟.. أين الّذين ساروا بالجيوش، وهزموا بالألوف، وعسكروا العساكر، ومدّنوا المدائن؟)

وفي موعظة أخرى، قلت: (أيّها النّاس، إنّي قد بثثت لكم المواعظ، الّتي وعظ الأنبياء بها أممهم، وأدّيت إليكم ما أدّت الأوصياء إلى من بعدهم، وأدّبتكم بسوطي فلم تستقيموا، وحدوتكم بالزّواجر فلم تستوسقوا، للّه أنتم! أ تتوقّعون إماما غيري يطأ بكم الطّريق، ويرشدكم السّبيل؟ ألا إنّه قد أدبر من الدّنيا ما كان مقبلا وأقبل منها ما كان مدبرا، وأزمع التّرحال عباد اللّه الأخيار، وباعوا قليلا من الدّنيا لا يبقى، بكثير من الآخرة لا يفنى)(2)

ثم رحت تذكرهم بإخوانهم الذين استشهدوا في صفين، وتقول لهم: (ما ضرّ إخواننا الّذين سفكت دماؤهم وهم بصفّين، ألّا يكونوا اليوم أحياء، يسيغون الغصص، ويشربون الرّنق؟ قد واللّه، لقوا اللّه فوفّاهم أجورهم، وأحلّهم دار الأمن بعد خوفهم)

ثم رحت تسميهم واحدا واحدا، وتقول: (أين إخواني الّذين ركبوا الطّريق، ومضوا على الحقّ؟.. أين عمّار؟.. وأين ابن التّيّهان؟.. وأين ذو الشّهادتين؟.. وأين نظراؤهم من إخوانهم الّذين تعاقدوا على المنيّة، وأبرد برؤوسهم إلى الفجرة؟)

1() نهج البلاغة: الحكمة(370)

2() نهج البلاغة: الخطبة رقم 182.

ثمّ ضربت بيـدك على لحيتـك الشّـريفة الكريمـة، فـأطلت البكاء، ثمّ قلت: (أوه على إخواني، الّذين تلوا القرآن فأحكموه، وتدبّروا الفرض فأقـاموه، أحيـوا السّـنّة، وأمـاتوا البدعـة، دعـوا للجهاد فأجابوا، ووثقوا بالقائد فاتّبعوه)

ثمّ ناديت بأعلى صوتك: (الجهاد، الجهاد عباد اللّـه، ألا وإنّي معسكر في يومي هذا، فمن أراد الرّواح إلى اللّه فليخرج)

مواعظه لأعدائه:

هـذه سـيدي بعض مواعظـك لعامـة المسـلمين.. والـتي شملت جميع المجالات..

ووعظك ونصائحك سيدي لم تخص بها هؤلاء.. بل أرسـلت بها حتى إلى أعدائك الذين عاندوك وخاصموك، فقد كنت ترسل لهم الرسائل كل حين تذكرهم بالله..

ومن ذلك ما أرسلت إلى معاوية، تقول له: (من عبـد اللـه علي أمير المؤمنين إلى معاويـة بن أبي سـفيان. أمـا بعـد فـإن الدنيا دار تجارة، وربحها أو خسرها الآخـرة، فالسـعيد من كـانت بضاعته فيها الاعمال الصالحة، ومن رأى الـدنيا بعينهـا، وقـدرها بقدرها، وإني لأعظك مع علمي بسابق العلم فيك مما لا مردلـه دون نفاذه، ولكن الله تعالى أخذ على العلماء أن يؤدوا الامانـة، وأن ينصحوا الغوي والرشيد، فـاتق اللـه، ولا تكن ممن لا يرجـو لله وقارا، ومن حقت عليه كلمـة العـذاب، فـإن اللـه بالمرصـاد وإن دنياك ستدبر عنك، وستعود حسـرة عليـك فـاقلع عمـا أنت عليه من الغي والضلال على كبر سنك وفناء عمرك، فإن حالـك اليوم كحال الثوب المهيل الذي لا يصلح من جانب إلا فسـد من آخر، وقد أرديت جيلا من الناس كثيرا، خدعتهم بغيـك، وألقيتهم في مـوج بحـرك تغشـاهم الظلمـات، وتتلاطم بهم الشـبهات، فجاروا عن وجهتهم ونكصوا على أعقابهم وتولـوا على أدبـارهم وعولـوا على أحسـابهم إلا من فـاء من أهـل البصـائر فـإنهم فارقوك بعد معرفتك، وهربوا إلى الله من موازرتـك، إذ حملتهم على الصعب، وعدلت بهم عن القصد.. فاتق الله يا معاويـة في

نفسـك، وجـاذب الشـيطان قيـادك، فـإن الـدنيا منقطعـة عنـك، والآخرة قريبة منك، والسلام)[1]

(1) نهج البلاغة: رسائل 32.

سيدي ومولاي.. حبيب الله ورسوله..

من المعاني العظيمة التي أتـذكرها في هـذه الأيـام.. أيـام شـهادتك.. حكمتـك الـتي تسـلب الألبـاب.. وبيانـك الـذي خضـع لحكمك، واستسلم لها، وعبر عنها بما لا طاقة لأحد بمثله.

وما وصلنا من خطبك ورسـائلك وكلماتـك كلهـا دليـل على ذلك.. فكلها بحار من النور والحكمة، تسقي من شرب منها كل ألوان الأدب والسلام والأخلاق والحقيقة.

وقد شهد لك بذلك الجميع.. وأكثرهم شهادة لك من عرف العربيـة وأسـرارها.. ثم نهـل من بحـر كلماتـك، فعـرف أسـرار الإعجاز فيها.

ومنهم الشعبي الذي قال عنـك، وعن حكمـك: (تكلم أمـير المؤمـنين علي بتسـع كلمـات ارتجلهن ارتجـالا، فقـأن عيـون البلاغة، وأيتمن جواهر الحكمة، وقطعن جميع الأنام عن اللحـاق بواحدة منهن: ثلاث منها في المناجاة، وثلاث منهـا في الحكمـة، وثلاث منها في الأدب: أمـا اللـواتي في المناجـاة، فقـال: (كفى بي عزا أن أكـون لـك عبـدا، وكفى بي فخـرا أن تكـون لي ربـا، أنت كمـا أحب فـاجعلني كمـا تحب).. وأمـا اللاتي في الحكمـة فقال: (قيمة كل امرئ ما يحسنه، وما هلك امـرؤ عـرف قـدره، والمرء مخبوء تحت لسانه).. وأما اللاتي في الأدب فقال: (امنن على من شـئت تكن أمـيره، واحتج إلى من شـئت تكن أسـيره، واستغن عمن شئت تكن نظيره)[1]

وقال الأديب الكبير عبد الحميـد الكـاتب – الـذي قيل عنه: (فتحت الرسـائل بعبـد الحميـد، وختمت بـابن العميـد) - عنـدما سئل عن سر بلاغته: (حفظت سبعين خطبـة من خطب الإمـام

1() الخصال للصدوق ج١ص٤٩.

علي، ففاضت ثم فاضت)(1)

ولــذلك كــانت كلماتــك ســيدي مدرســة في تعليم الأدب والحكمة، يحفظها الأدباء، ويتـدربون بهـا على الحكمـة والتعبـير عنها، وقد قـال ابن نباتـه – وهـو صـاحب الخطب المشـهورة -: (حفظت من الخطابـة كـنزا لا يزيـده الإنفـاق إلاّ سـعة وكـثرة، حفظت مائة فصل من مواعظ علي بن أبي طالب)(2)

وقــال الجاحــظ – وهو أشــهر الأدبــاء على الإطلاق– في وصف مائة كلمة جمعها من كلامـك: (إن لأمـير المؤمـنين مائـة كلمة، كل كلمة منها تفي بألف من محاسن كلام العرب)(3)

وقال ـ تعليقا على قولك(قيمـة كـل امـرئ مـا يحسـنه) ــ: (فلـو لم نقـف في هـذا الكتـاب إلاّ على هـذه الكلمـة لوجـدناها كافية شافية، ومجزية مغنية، بل لوجـدناها فاضـلة عن الكفايـة، وغير مقصرة عن الغاية، وأحسن الكلام ما كان قليله يغـني عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه، وكأن الله عـز وجـل قـد ألبسـه من الجلالة، وغشاه من الحكمة على حسب نية صاحبه، وتقـوى قائله، فإذا كان شريفا، واللفظ بليغا، وكان صحيح الطبـع، بعيـدا عن الاستكراه، ومنزها عن الاختلال، مصـونا عن التكلـف، صـنع في القلب صنع الغيث في التربة الكريمة، ومتى فصلت الكلمـة على هــذه الشــريطة، ونفــذت من قائلهــا على هــذه الصــفة، أصـحبها اللـه من التوفيـق ومنحهـا من التأييـد مـا لا يمتنـع عن تعظيمها صدور الجبابرة، ولا يذهل عن فهمها عقول الجهلة)(4)

وقال الأديب الكبير الشريف الرضي – الذي تشرف بجمــع الكثير من كلماتـك-: (إذ كـان أمـير المؤمـنين مشـرع الفصـاحة وموردهــا، ومنشــأ البلاغــة ومولــدها، ومنــه ظهر مكنونها وعنه

1() نقلا عن أمراء البيان لمحمد كرد علي ج١ص٤٥.

2() نقلا عن مجلة تراثنا : العدد الخامس ١٤٠٦ ص١٥.

3() مجلة تراثنا: العدد الخامس ص ٣٢..

4() انظر: البيان والتبيين للجاحظ، نقلا عن الطراز المذهب ج١ص١٦٧.

أخـذت قوانينها، وعلى أمثلته حـذا كل قائـل خطيب، وبكلامـه استعان كل واعظ بليغ، ومع ذلك فقد سبق وقصروا، وقد تقـدم وتأخروا، لأن كلامـه الكلام الـذي عليه مسـحة من العلم الإلهي، وفيه عبقة من الكلام النبوي)[1]

وقـال العلامـة شـمس الـدين الحنفي الشـهير بسـبط ابن الجـوزي: (كـان علي ينطـق بكلام قـد حـف بالعصـمة، ويتكلم بميزان الحكمة، كلام ألقى الله عليـه المهابـة، فكـل من طـرق سـمعه راقـه فهابـه، وقـد جمـع اللـه لـه بين الحلاوة والملاحـة، والطلاوة والفصاحة، لم تسـقط لـه كلمـة، ولا بـارت لـه حجـة، أعجز الناطقين، وحاز السبق في السابقين)[2]

وقال الشيخ محمد بن طلحة الشافعي: (الفصـاحة تنسـب إليه، والبلاغة تنقـل عنـه والبراعـة تسـتفاد منـه، وعلم المعـاني والبيان غريزة فيه)[3]

وقــال ابن أبي الحديــد – الأديب الكبــير شــارح كلماتك-: (واعلم أننا لا يتخالجنا الشك في أنه عليه السلام أفصح من كل نــاطق بلغــة العــرب من الأولين والآخــرين، إلاّ من كلام اللــه سبحانه، وكلام رسول الله ﷺ)

وقـال في التفريـق بين كلامـك وكلام غـيرك: (إن سـطرا واحدا من (نهج البلاغة) يساوي ألـف سـطر من كلام ابن نباتـه، وهو الخطيب الفاضل الذي اتفق الناس على أنـه أوحـد عصـره في فنه)[4]

وقد أورد الشـبه الـتي يوردهـا من ناصـب لـك العـداء في التشكيك في كلماتك، لأنهم لكبرهم وصلفهم يرون أنـه لا يصـح

1() مقدمة (نهج البلاغة)

2() عن تذكرة خواص الأئمة ص ١٢٨.

3() عن مطالب السؤال ج١ص١٣٧.

4() شرح النهج ج٢ص ٤٥٤..

أن يروي عنك إلا من كان معهم وفيهم، وأكثرهم كانوا في صف أعدائك.. أما من صحبك وكـان معـك ووالاك، فيحرمونـه شـرف الرواية عنك، فقال: (كثير من أرباب الهـوى يقولـون: إن كثـيراً من النهج البلاغة كلام محدث صـنعه قـوم من فصـحاء الشـيعة، وربمـا عـزوا بعضـه إلى الرضـي أبي الحسـن أو غـيره، وهـؤلاء أعمت العصبية أعينهم فضلوا عن النهج الواضـح، وركبـوا بنيـات الطريق ضلالة وقلة معرفة بأساليب الكلام)

ثم راح يبرهن على ذلك بالحجج العقليـة الواضـحة، فقـال: (وأنت إذا تأملت نهج البلاغة وجدته كله ماءً واحداً ونفساً واحـداً وأسلوباً واحداً كالجسم البسيط الذي ليس بعضه مخالفاً لبـاقي الأبعاض في الماهية، وكالقرآن أوله كأوسطه، وأوسطه كآخره، وكل سورة منه وكـل آيـة مماثلـة في المأخـذ والمـذهب والفن والطريق والنظم لباقي الآيات والسور)[1]

ومثله قال الأستاذ الشيخ محمد عبده ــ شـارح كلماتـك ــ: (ذلك الكتاب الجليل هو جملة ما اختاره السيد الشريف الرضي رحمه الله من كلام سيدنا ومولانـا أمـير المؤمـنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. جمع متفرقـة، وسـماه بهـذا الاسـم (نهج البلاغة)، ولا أعلم اسماً أليق بالدلالة على معناه منه، وليس في وسعي أن أصف هذا الكتاب بأزيد مما دل عليه اسمه)[2]

وقد قال في وصفه ووصفك: (وأحياناً كنت أشــهد أن عقلاً نورانيــاً، لا يشــبه خلقــاً جســدانياً، فصــل عن المــوكب الإلهي، واتصل بالروح الإنساني، فخلعه عن غاشيات الطبيعة وسـما بـه إلى الملكوت الأعلى، ونما به إلى مشهد النـور الأجلى، وسـكن بــه إلى عمــار جــانب التقــديس بعــد استخلاصــه من شــوائب التلــبيس. وآنــاتٍ كــأني أســمع خطيب الحكمــة ينــادي بأعليــاء الكلمة، وأولياء أمر الأمـة، يعـرفهم مواقـع الصـواب، ويبصـرهم مواضع الارتياب، ويحـذرهم مزالـق الاضـطراب، ويرشـدهم إلى دقــائق السياســة، ويهــديهم طــرق الكياســة، ويرتفــع بهم إلى

[1] ابن أبي الحديد المعتزلي: شرح نهج البلاغة، ج ١ ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

[2] الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: نهج البلاغة، شرح محمد عبده، ص ٨.

منصات الرئاسة، ويصعدهم شرف التدبير، ويشرف بهم على حسن المصير)(1)

وقال الشيخ محمد أبو زهرة: (وعلي سيد خطباء تلك الفترة، انفتق لسانه بالبيان الرائع، والقول السائغ،والحكمة الفائقة، حتى أورث الأخلاف طائفة من الخطب هي نهج البيان،ومشرع الحكمة ونور الحق ووضح الحقيقة)(2)

وقال الباحث الكبير أحمد الحوفي: (وصف القدماء والمحدثون الإمام عليا بالبلاغة، ولم يشذ أحد عن هذا الإجماع)(3)

وقال محمد عبد المنعم خفاجي: (إمام الخطباء من المسلمين بعد رسول الله ﷺ، وكان بطلا مقداما وفارسا شجاعا، علما من أعلام الإسلام، كما كان خطيبا مصقعا وبليغا منطقيا)

وقال: (كان علي في الذروة من البلاغة والبيان والفصاحة، وكان أخطب الخطباء بعد رسول الله ﷺ)(4)

وقال عن نهج البلاغة: (كتاب جليل، وأثر أدبي خالد بعد كلام الله وكلام رسوله... هذا وقد تتلمذ على الكتاب وتثقف بثقافته الكثيرون من عاشقي الأدب ودارسيه في القديم والحديث، ولا يزال حتى اليوم من أهم كتب الأدب والثقافة الدينية والعربية.. والكتاب عالي الأسلوب، فخم العبارة، مصقول البيان، لطيف الروح، مشرقها، ينحدر إلى النفس بسهولة، ويدخل إلى القلب بغير استئذان)(5)

1() الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: نهج البلاغة، شرح محمد عبده، ص ٨.

2() الخطابة ص ٢٥٨.

3() بلاغة الإمام علي ص ١٤٤.

4() الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام.

5() الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام ص ١٣٦.

وقال الأستاذ أبـو الفضـل البليـاوي – أسـتاذ الأدب في دار العلوم -: (حكيم الإسلام وخطيبه وفارسـه، ووارث رسـول اللـه ﷺ في الأدب والبلاغــة والعلم بلا خلاف، وإمامتــه في ذلــك لم تنازع قط، أخطب المسلمين، وإمام المنشـئين، وأحـد أصـحاب الأساليب والمذاهب في الإنشاء وآثاره الأدبيـة من خطب وكتب وحكم – ما صح منها – جمال اللغة العربية وبدائع النثر العـربي، وموضوع دراسة الأديب والباحث)[1]

وقال الدكتور حسن إبـراهيم حسـن: (وكـان علي مضـرب الأمثـال في الفصـاحة، يلقي القـول فيأخـذ بمجـامع القلـوب، ويخطب الخطبة فيثير النفوس ويحمسها للحرب)[2]

وقــال الأســتاذ محمــد فريــد وجــدي: (اجتمعت في علي خصـــال لم تجتمـــع لغـــيره من الخلفـــاء وهي العلم الغزيـــر والشجاعة العالية والفصاحة الباهرة، وكان مـع هـذا حاصـلا من محامد الأخلاق ومكارم الطباع على مالا يتفق لغير الكاملين من الأفراد)[3]

وقال الفاضل الآلوسي: (هذا كتاب نهج البلاغة قد اسـتودع من خطب الإمام علي بن أبي طالب ما هو قبس من نور الكلام الإلهي وشمس تضيء بفصاحة المنطق النبوي)[4]

وقـال الأديب الكبـير أحمـد حسـن الزّيـات: (ولا نعلم بعـد رسول الله ﷺ فيمن سلف وخلف أفصح من علي في المنطـق، ولا أبلّ منه ريقاً في الخطابـة، كـان حكيمـاً تتفجـر الحكمـة من بيانه، وخطيباً تتدفّق البلاغـة على لسـانه، وواعظـاً ملء السـمع والقلب، ومترسلاً بعيد غور الحجـة، ومتكلمـاً يضـع لسـانه حيث يشاء، وهو بالإجماع أخطب المسلمين وإمام المنشئين، وخُطبـه

1() مختارات من أدب العرب للندوي هامش ص ٣٧.

2() تاريخ الإسلام ج١ص٢٧٣..

3() دائرة معارف القرن العشرين ج٦ص٦٥٩.

4() بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ٣ / ١٨٠..

في الحثّ على الجهاد ورسائله إلى معاوية ووصف الطاووس والخفاش والدنيا، وعهده للأشتر النخعي تعدّ من معجزات اللسان العربي وبدائع العقل البشري، وما نظن ذلك قد تهيأ له إلا لشدة خلاطه الرسول ومرانه منذ الحداثة على الكتابة له والخطابة في سبيله)[1]

وقال الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد: (فهذا كتاب (نهج البلاغة) وهو ما اختاره الشريف الرضي أبو الحسن محمد ابن الحسن الموسوي من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وهو الكتاب الذي جمع بين دفتيه عيون البلاغة وفنونها، وتهيأت به للناظر فيه أسباب الفصاحة، ودنا منه قطافها، إذ كان من كلام أفصح الخلق – بعد الرسول ﷺ – منطقا، وأشدهم اقتدارا، وأبرعهم حجة، وأملكهم للغة، يديرها كيف شاء، الحكيم الذي تصدر الحكمة عن بيانه، والخطيب الذي يملأ القلب سحر بيانه، العالم الذي تهيأ له من خلاط الرسول وكتابة الوحي والكفاح عن الدين بسيفه ولسانه منذ حداثته ما لم يتهيأ لأحد سواه)[2]

وقال الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم عن (نهج البلاغة): (ومنذ أن صدر هذا الكتاب عن جامعه، سار في الناس ذكره، وتألق نجمه، أشأم وأعرق، وأنجد وأتهم، وأعجب به حيث كان، وتدارسوه في كل مكان، لما اشتمل عليه من اللفظ المنتقى، والمعنى المشرق، وما احتواه من جوامع الكلم، في أسلوب متساوق الأغراض محكم السبك، يعد في الذروة العليا من النثر العربي الرائع)[3]

وقال العقاد - وهو الأديب المعروف ـ: (وللذوق الأدبي - أو الذوق الفني - ملتقى بسيرته كملتقى الفكر والخيال والعاطفة لأنه رضوان الله عليه كان أديباً بليغاً، له نهج من الأدب والبلاغة

1() تاريخ الأدب العربي: ٩٠.

2() مقدمة شرح النهج للإمام محمد عبده.

3() عن مقدمته على شرح ابن أبي الحديد.

يقتدي به المقتدون، وقسط من الذوق مطبوع يحمده المتذوقون وإن تطاولت بينه وبينهم السنون. فهو الحكيم الأديب والخطيب المبين، والمنشئ الذي يتصل إنشاؤه بالعربية ما اتصلت آيات الناشرين والناظمين)(1)

وقال الدكتور زكي نجيب محمود ـــ وهو الفيلسوف المعروف ـ: (لقد عرفت (نهج البلاغة) في صدر الصبا، بل لعل الصواب هو أني عرفته في أطراف الصبا الأولى، وبقيت منه نغمات في الأذن، ثم أخذت أسمع بعد ذلك – كلما لمع خطيب على منابر السياسة – قول الناس تعليقا على بلاغة الخطيب: لقد قرأ نهج البلاغة وامتلأ بفصاحته، وهاأنذا أعيد القراءة هذه الأيام، فإذا النغمات قد ازدادت في الأذنين حلاوة، وإذا العبارات كأنها أضافت طلاوة إلى طلاوة)(2)

وقد ذكر ــ بإعجاب شديد ــ ما في كلماتك من تحليلات فلسفية عميقة، مصبوبة في لغة بسيطة واضحة معجزة، فقال: (ونجول في أنظارنا في هذه المختارات من أقوال الإمام علي التي اختارها الشريف الرضي، وأطلق عليها نهج البلاغة، لنقف ذاهلين أمام روعة العبارة وعمق المعنى، فإذا حاولنا أن نصف هذه الأقوال تحت رؤوس عامة تجمعها، وجدناها تدور ــ على الأغلب ـ حول موضوعات رئيسية ثلاث، هي نفسها الموضوعات الرئيسية التي ترتد إليها محاولات الفلاسفة قديمهم وحديثهم على السواء، ألا وهي: الله والعالم والإنسان، وإذن، فالرجل ـ وإن لم يتعمدها ـ فيلسوف بمادته، وإن خالف الفلاسفة في أن هؤلاء قد غلب عليهم أن يقيموا لفكرتهم نسقاً يحتويها على صورة مبدأ ونتائجه، وأما هو فقد نثر القول نثراً في دواعيه وظروفه)(3)

---

(1) مقدمة كتاب (عبقرية الإمام علي)

(2) المعقول واللامعقول ص ٣١.

(3). د. زكي نجيب محمود: المعقول واللامعقول في التراث العربي، دار الشروق ـ بيروت، ص ٣٠..

ولم تكن الشهادة لك بالحكمة والبيان خاصة بالمسلمين، بل إن إخوانهم من المسيحيين ممن اطلعوا على كلماتك، لم يملكوا إلا أن يشهدوا لك بذلك..

ومنهم الأديب الكبير جبران خليل جبران الذي شهد لك بالشهادات الكثيرة، ومنها قوله: (إن علياً لمَن عمالقة الفكر والروح والبيان في كل زمان ومكان)[1]

ومنهم ميخائيل نعيمة الذي قال عنك: (بطولات الإمام ما اقتصرت على ميادين الحرب، فقد كان بطلاً في صفاء بصيرته وطهارة وجدانه وسِحر بيانه)[2]

ومنهم جورج جورداق الذي قال: (فالإمام بإجماع الباحثين رائد البلغاء في عصره حتى وبعد عصره.. وكل من عاصره كان عيالاً على نبعتين قرشيتين ثرتين.. النبعة المحمدية والنبعة العلوية.. أضف إلى النشأة والسيرة والبيئة ونوع الثقافة الخصائص العلوية الذاتية التي تكاد تقف وحدها في مجال الأخلاق والذوق والذكاء والعمق والشمولية وقوة التأمل والسبر.. تقف لتؤلف شخصية عجيبة خصبة معطاء.. شخصية تلتحم فيها مزايا الفارس والبطل إلى مزايا المصلح والأديب والخطيب الرباني الملتزم في هندسة نفسية وذهنية وفنية رائعة)[3]

ومنهم المفكر والأديب المسيحي (نصري سلهب) الذي قال عن كلماتك: (لو قدر لنهج البلاغة من ينقله، روحاً ومعنى، إلى بعض لغات الغرب، لأخذ عليٌّ مكانه بين أعظم المفكرين الذين خاطبوا القلوب والعقول والضمائر ليرقوا بها إلى ملكوت الله، ذلك الملكوت الذي لا يزول، حيث تنعم النفس بخلود أبدي في حضرة الله)[4]

1() الامام علي صوت العدالة الانسانية ٥/ ١٢١٣..

2() الامام علي صوت العدالة الانسانية ١/٢٢..

3() عن كتابه (علي وسقراط)

وقد دعا في كتابه الذي خصصه عنك (في خطى علي) إخوانه المسيحيين إلى قراءة كلماتك والتدبر في معانيها للتعرف على الإسلام الحقيقي الممتلئ بالروحانية والسلام.. والتي تقرب المسلم من المسيحي كما لا يقربه كلام آخر، ومن جملة كلامه عنك، وهو يخاطبك: (حياتك سفر قداسة لو يقرأه البشر ويعيشونه لاستحالت قلوبهم قطعاً من السماء، ذلك هو سر خلودك، يا علي: لأنك حي بالله، والله حي فيك)[1]

ومنهم الأديب والمفكر (عبد المسيح الإنطاكي) الذي اعتبر لسانك (اللسان الذي حفظ الرسالة، وهو اللسان الذي استطاع أن يحفظ حتى القرآن الكريم نفسه من الضياع والفساد) [2]

وهو يعتبرك إمام الفصحاء وأستاذ البلغاء ومعيار سلامة اللغة ومقياسها (لأن الذي يكون كلامه دون كلام الخالق، وفوق كلام المخلوقين، لابد وأن يكون إمام المخلوقين ومقياس سلامة لغتهم ومعيار بلاغتهم وفصاحتهم، العرب ومعلمهم بلا مراء، فما من أديب لبيب حاول إتقان صناعة التحرير إلا وبين يديه القرآن ونهج البلاغة، ذاك كلام الخالق وهذا كلام أشرف المخلوقين)[3]

وقد ذكر هذا الأديب المحب لك حديثاً قاله له مرة الأديب الكبير (إبراهيم اليازجي)، وهو قوله: (ما أتقنت الكتابة إلا بدرس القرآن العظيم ونهج البلاغة القويم، فهما كنز اللغة العربية الذي لا ينفذ وذخيرتها للمتأدب، وهيهات أن يظفر أديب بحاجته من هذه اللغة الشريفة إن لم يحيَ لياليه سهراً في مطالعتهما والتبحر في عالي أساليبهما)[4]

4() نصري سلهب: في حظي علي، ص 332.

1() نصري سلهب: في حظي علي، ص 30.

2() عبد المسيح الإنطاكي: ملحمة الإمام علي، ص ٦٧٦.

3() نفس المصدر السابق: ص ٦٩٩..

4() نفس المصدر السابق: ص ٧٠٠..

ومنهم الأديب والباحث (روكس بن زايد العزيزي) الذي قال عنك: (يقيناً، إن كل مثقف عربي، كل كاتب عربي، كل شاعر عربي، كل خطيب عربي مدين للإمام عل.. وانطلاقاً من هذه النقطة، فنحن لا نعد كاتباً أو أديباً عربياً مثقفاً ثقافة عربية أصيلة إن لم يقرأ القرآن ونهج البلاغة قراءات عميقة متواصلة) (1)

ومنهم المستشرق الفرنسي (هنري كوربان) الذي قال في كلماتك المبثوثة في نهج البلاغة: (وتأتي أهمية هذا الكتاب في الدرجة الأولى، بعد القرآن وأحاديث النبي، ليس بالنسبة للحياة الدينية في التشيع عموماً وحسب، بل بالنسبة لما في التشيع من فكر فلسفي. ويمكن اعتبار نهج البلاغة منهلاً من أهم المناهل التي استقى منها المفكرون الشيعة.. وإنك لتشعر بتأثير هذا الكتاب بصورة جمة من الترابط المنطقي في الكلام، ومن استنتاج النتائج السليمة، وخلق بعض المصطلحات التقنية العربية التي أدخلت على اللغة الأدبية والفلسفية فأضفت عليها غني وطلاوة، وذلك أنها نشأت مستقلة عن تعريب النصوص اليونانية)(2)

ومنهم الأديب الكبير (أمين نخلة) الذي اختار من كلماتك مائة كلمة وضعها في كتاب سماه (كتاب المئة)، متأسفا على على اختياره لهذا العدد فقط (إذ لا يستطيع المرء، برأيه، أن يجتزئ أو أن يفصل الأبناء الغوالي عن أمهم الرؤوم، وذلك لأن الروح واحدة والجوهر واحد) (3)

وقد قال في بعض المجالس عنك وعن كلماتك وآثارها النفسية والروحية: (من يريد أن يعالج أمراض نفسه، عليه أن يلجأ إلى خطب الإمام في نهج البلاغة، حتى يتعلم طريق

1() روكس بن زايد العزيزي: الإمام علي أسد الإسلام وقديسه، ص ٢٠٩.

2() الشيخ محمد حسن آل ياسين: نهج البلاغة.. لمن؟ ص ٦٥.

3() أمين نخلة: كتاب المئة، الدار الإسلامية ـ بيروت، ط ١/٢٠٠٢، ص ١١.

السير في ظل هذا الكتاب)[1]

ومنهم الباحث والأديب سليمان كتاني، الذي قال عنك: (وهل الكتاب (نهج البلاغة) غير تقويم للرجل الكبير في نهجه الطويل، الذي زرع عليه الإنسان قيمة تتبلور بالعقل الصحيح وتسمو بالفضيلة، وجعل الفضائل تنمو وتدور على محور واحد هو محور التقوى والإيمان بالله؟)

ثم راح يتساءل قائلا: (ومتى، وفي أية لحظة من لحظات عمره، لم يعبر عن هذا النهج الصريح؟ أفي إعلانه الرسالة وإيمانه بها، ولقد نذر نفسه للدعوة لها والجهاد في سبيلها، أم في تطبيقها دستوراً كاملاً لكل مجاري أفكاره وأقواله وأعماله من حيث كان زهده وتقواه وشجاعته وبطولته؟)[2]

هذه بعض شهاداتهم ـ سيدي ـ وهي لا تعبر إلا عن قطرة من بحر حقيقتك، وحقيقة تلك الكلمات النورانية التي كنت تنطق بها، فيصيخ الكون كله ليستمع لها.

وأئذن لي ـ سيدي ـ وأنا جالس بين يديك أن أتلو عليك بعض آيات الحكمة التي وصلتنا.. ولا زلنا نتنعم بها.. وإن كان كل كلامك حكمة.. وكله نور.. وكله هداية.

فمن ذلك أن بعضهم ـ هو زيد بن صوحان العبدي ـ قال لك[3]: يا أمير المؤمنين، أيّ سلطان أغلب وأقوى؟.. فأجبته على البديهة: الهوى.. فسألك: فأيّ ذلّ أذلّ؟.. فأجبته: الحرص على الدنيا.. فسألك: فأيّ فقد أشدّ؟.. فأجبته: الكفر بعد الإيمان.. فسألك: فأيّ دعوة أضلّ؟.. فأجبته: الداعي بما لا يكون.. فسألك: فأيّ عمل أفضل؟.. فأجبته: التقوى.. فسألك: فأيّ عمل أنجح؟.. فأجبته: طلب ما عند اللّه.. فسألك: فأيّ صاحبك أشرّ؟.. فأجبته: المزيّن لك معصية اللّه.. فسألك: فأيّ

1() مجموعة من المفكرين: نهج البلاغة والفكر الإنساني المعاصر، ص ٢٠٥..

2() سليمان كتاني: علي نبراس ومتراس، مصدر سابق: ص ٤٤٠.

3() دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم، ص 101- 103.

الخلق أقوى؟.. فأجبته: الحليم.. فسألك: فأيّ الخلـق أشـقى؟.. فأجبته: من باع دينه برضا غيره.. فسألك: فـأيّ الخلـق أشـحّ؟.. فأجبتـه: من أخـذ المـال من غـير حلّـه، فجعلـه في غـير حقّـه.. فسألك: فأيّ الناس أكيس؟.. فأجبته: من أبصر رشده من غيّـه، فمال إلى رشده.. فسألك: فمن أحلم النّاس؟.. فأجبته: الذي لا يغضب.. فسألك: فأيّ النّاس أثبت رأيا؟.. فأجبتـه: من لم يغـرّه الناس.. فسألك: فـأيّ النّـاس أحمـق؟.. فأجبتـه: المغـترّ بالـدنيا وهو يرى مـا فيهـا وتقلّب أحوالهـا.. فسـألك: فـأي النّـاس أشـدّ حسرة؟.. فأجبته: الذي حرم الدّنيا والآخرة، ذلك هـو الخسـران المبين.. فسألك: فأيّ الخلق أعمى؟.. فأجبته: الذي عمـل لغـير اللّه، يطلب بعمله الثواب من اللّه تعالى.. فسألك: فـأيّ القنـوع أفضل؟.. فأجبته: القانع بما أعطاه اللّه عزّ وجل.. فسألك: فـأيّ المصائب أشـد؟.. فأجبتـه: المصـيبة في الـدين.. فسـألك: فـأيّ الأعمـال أحبّ إلى اللّـه عـزّ وجـل؟.. فأجبتـه: انتظـار الفـرج.. فسـألك: فـأيّ النّـاس خـير عنـد اللّـه؟.. فأجبتـه: أخـوفهم للـه، وأصـبرهم على التقـوى، وأزهـدهم في الـدنيا.. فسـألك: فـأيّ الكلام أفضل عند اللّه؟.. فأجبته: كثرة ذكر اللّـه، والتضـرّع إليـه ودعاؤه.. فسألك: فـأيّ القـول أصـدق؟.. فأجبتـه: شـهادة أن لا اللّه إلّا اللّه.. فسألك: فأيّ الإيمان أفضـل عنـد اللّـه؟.. فأجبتـه: التسـليم والـورع.. فسـألك: فـأيّ النّـاس أكـرم؟.. فأجبتـه: من صدق في المواطن، وكفّ لسانه عن المحارم، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر.

ومن كلماتك الجامعة التي وصلتنا قولك في بعض خطبـك: (أيها الناس، من قلّ ذلّ، ومن جـاد سـاد، ومن كـثر مالـه رأس، ومن كثر حلمه نبل، ومن فكّر في ذات اللّـه تزنـدق، ومن أكـثر من شـيء عـرف بـه، ومن كـثر مزاحـه اسـتخفّ بـه، ومن كـثر ضحكه ذهبت هيبته. فسـد حسـب من ليس لـه أدب، إن أفضـل الفعـال صـيانة العـرض بالمـال، ليس من جـالس الجاهـل بـذي معقول. من جالس الجاهل فليستعدّ لقيـل وقـال، لن ينجـو من الموت غني بماله، ولا فقير لإقلاله) (1)

1) مستدرك نهج البلاغة للمحمودي: ج 1 ص 48- 63 الخطبة رقم(13)

ومنها قولك: (أيها الناس، إنه لا شـرف أعلى من الإسـلام، ولا كرم أعزّ من التقوى، ولا معقل أحـرز من الـورع، ولا شـفيع أنجح من التوبة، ولا لباس أجلّ من العافيـة، ولا وقايـة أمنـع من السلامة، ولا مال أذهب بالفاقة من الرضا والقنوع، ومن اقتصر على بلغة الكفـاف فقـد انتظم الراحـة. والرغبـة مفتـاح التعب، والاحتكار مطيّة النّصب، والحسد آفة الـدين، والحـرص داع إلى التقحّم في الذنوب، وهـو داع إلى الحرمـان، والبغي سـائق إلى الحين، والشّره جامع لمساوي العيوب، ربّ طمع خـائب، وأمـل كاذب، ورجاء يؤدّي إلى الحرمان، وتجارة تـؤول إلى الخسـران. ألا ومن تورّط في الأمور غير نـاظر في العـواقب، فقـد تعـرّض لمفضـحات النـوائب، وبئسـت القلادة الـذنب للمـؤمن.. أيهـا النـاس، إنـه لا كـنز أنفـع من العلم، ولا عـزّ أنفـع من الحلم، ولا حسب أبلغ من الأدب، ولا نصـب أوجـع من الغضـب، ولا جمـال أحسن من العقل، ولا قرين أشر من الجهل، ولا سوأة أسوأ من الكـذب، ولا حافـظ أحفـظ من الصـمت، ولا غـائب أقـرب من الموت.. أيهـا النـاس، إنـه من نظـر في عيب نفسـه شـغل عن عيب غـيره، ومن رضـي بـرزق اللّـه لم يأسـف على مـا في يـد غيره، ومن سلّ سيف البغي قتل به، ومن حفر لأخيه بـئرا وقـع فيها، ومن هتك حجاب غيره انكشفت عـورات بيتـه، ومن نسـي زلّته استعظم زلل غيره، ومن أعجب برأيه ضـلّ، ومن اسـتغنى بعقلـه زلّ، ومن تكبّـر على النـاس ذلّ، ومن سـفه على النـاس شتم، ومن خالط العلماء وقـر، ومن خالـط الأنـذال حقّـر، ومن حمل ما لا يطيق عجز.. أيهـا النـاس، إنـه لا مـال هـو أعـود من العقـل، ولا فقـر هـو أشـد من الجهـل، ولا واعـظ هـو أبلـغ من النصح، ولا عقل كالتدبير، ولا عبادة كالتفكّر، ولا مظـاهرة أوثـق من المشـاورة، ولا وحـدة أوحش من العجب، ولا ورع كـالكفّ، ولا حلم كالصبر والصمت) (2)

ومن ذلك قولك في بعض خطبك: (لا مال أعود من العقل، ولا وحـــدة أوحش من العجب، ولا عقـــل كالتّـــدبير، ولا كـــرم كالتّقوى، ولا قرين كحسن الخلق، ولا مـيراث كـالأدب، ولا قائـد

2) مستدرك نهج البلاغة للمحمودي: ج 1 ص 48- 63 الخطبة رقم(13)

كالتّوفيق، ولا تجارة كالعمل الصّالح، ولا ربح كالثّواب، ولا ورع كالوقوف عند الشّبهة، ولا زهد كالزّهد في الحرام، ولا علم كالتّفكّر، ولا عبادة كأداء الفرائض، ولا إيمان كالحياء والصّبر، ولا حسب كالتّواضع، ولا شرف كالعلم، ولا عزّ كالحلم، ولا مظاهرة أوثق من المشاورة) (1)

ومن ذلك قولك: (إذا استولى الصّلاح على الزّمان وأهله، ثمّ أساء رجل الظّنّ برجل لم تظهر منه حوبة فقد ظلم، وإذا استولى الفساد على الزّمان وأهله، فأحسن رجل الظّنّ برجل فقد غرّر) (2)

ومن ذلك أنك سئلت: كيف نجدك يا أمير المؤمنين؟، فأجبت: (كيف يكون حال من يفنى ببقائه، ويسقم بصحّته، ويؤتى من مأمنه) (3)

ومن ذلك قولك: (عجبت للبخيل يستعجل الفقر الّذي منه هرب، ويفوته الغنى الّذي إيّاه طلب، فيعيش في الدّنيا عيش الفقراء، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء. وعجبت للمتكبّر الّذي كان بالأمس نطفة ويكون غدا جيفة. وعجبت لمن شكّ في اللّه وهو يرى خلق اللّه. وعجبت لمن نسي الموت وهو يرى الموتى. وعجبت لمن أنكر النّشأة الأخرى وهو يرى النّشأة الأولى. وعجبت لعامر دار الفناء وتارك دار البقاء) (4)

ومن ذلك قولك: (الدّنيا دار ممرّ لا دار مقرّ، والنّاس فيها رجلان: رجل باع فيها نفسه فأوبقها، ورجل ابتاع نفسه فأعتقها) (5)

1() نهج البلاغة: الحكمة(113)

2() نهج البلاغة: الحكمة(114)

3() نهج البلاغة: الحكمة(115)

4() نهج البلاغة: الحكمة(126)

5() نهج البلاغة: الحكمة(133)

ومن ذلك قولك: (بكثرة الصّمت تكون الهيبة، وبالنّصفة يكثر المواصلون، وبالإفضال تعظم الأقدار، وبالتّواضع تتمّ النّعمة، وباحتمال المؤن يجب السّؤدد، وبالسّيرة العادلة يقهر المناوئ، وبالحلم عن السّفيه تكثر الأنصار عليه) (1)

ومن ذلك قولك: (من أصبح على الدّنيا حزينا فقد أصبح لقضاء اللّه ساخطا، ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به فقد أصبح يشكو ربّه، ومن أتى غنيّا فتواضع له لغناه ذهب ثلثا دينه، ومن قرأ القرآن فمات فدخل النّار فهو ممّن كان يتّخذ آيات اللّه هزوا، ومن لهج قلبه بحبّ الدّنيا التاط قلبه منها بثلاث: همّ لا يغبّه، وحرص لا يتركه، وأمل لا يدركه)(2)

ومن ذلك قولك: (من نظر في عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره، ومن رضي برزق اللّه لم يحزن على ما فاته، ومن سلّ سيف البغي قتل به، ومن كابد الأمور عطب، ومن اقتحم اللّجج غرق، ومن دخل مداخل السّوء اتّهم، ومن كثر كلامه كثر خطؤه، ومن كثر خطؤه قلّ حياؤه، ومن قلّ حياؤه قلّ ورعه، ومن قلّ ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النّار، ومن نظر في عيوب النّاس فأنكرها ثمّ رضيها لنفسه فذلك الأحمق بعينه، والقناعة مال لا ينفد، ومن أكثر من ذكر الموت رضي من الدّنيا باليسير، ومن علم أنّ كلامه من عمله قلّ كلامه إلّا فيما يعنيه) (3)

ومن ذلك قولك: (لا شرف أعلى من الإسلام، ولا عزّ أعزّ من التّقوى، ولا معقل أحسن من الورع، ولا شفيع أنجح من التّوبة، ولا كنز أغنى من القناعة، ولا مال أذهب للفاقة من الرّضا بالقوت، ومن اقتصر على بلغة الكفاف فقد انتظم الرّاحة، وتبوّأ خفض الدّعة، والرّغبة مفتاح النّصب، ومطيّة التّعب، والحرص والكبر والحسد دواع إلى التّقحّم في الذّنوب،

1() نهج البلاغة: الحكمة(224)

2() نهج البلاغة: الحكمة(228)

3() نهج البلاغة: الحكمة(349)

والشّرّ جامع مساوئ العيوب) [1]

ومن ذلك قولك في كلام الحكماء: (إنّ كلام الحكماء إذا كان صوابا كان دواء، وإذا كان خطأً كان داء) [2]

إلى آخر كلماتك ــ سيدي ــ التي يتقوت منها أصحاب العقول، ليسقوا بمائها الطاهر شجرة الحكمة في قلوبهم.. فأنت سيد الحكماء وأنت أستاذهم وأنت سراجهم الذي يستضيئون به.

1 () نهج البلاغة: الحكمة(371)

2 () نهج البلاغة: الحكمة(265)

سيدي ومولاي.. حبيب الله ورسوله..

من المعاني العظيمة التي أتـذكرها في هـذه الأيـام.. أيـام شهادتك.. إنسانيتك الكاملـة.. وشخصـيتك الجامعـة لكـل ألـوان الكمال.. فأنت البطل الشـجاع العابـد العـارف العـالم المحقـق المـدقق الفيلسـوف السياسـي القائـد صـاحب الأخلاق العاليـة والأدب الرفيع والفصاحة والبلاغة.. وكل ما خطر ببالنـا، ومـا لم يخطر.

وكيف لا تكون كـذلك سـيدي .. وهـل يمكن أن تكـون غـير ذلك، وأنت تربية رسول الله ﷺ الخالصـة، بـل أنت معجـزة من معجزاته الباهرة.. بل أنت القرآن الناطق.. وهل يمكن أن يكون القرآن الناطق مختلفا عن القرآن الصامت؟

ولهذا، فإن كل من عرفك، وشم أريجك، شهد لك بـالتفوق في كل مجال.. وقد سئل الجنيد عنـك، وهـو من يسـمونه سـيد الطائفة الصوفية، فأجاب: (لو تفرغ إلينا من الحروب لنقلنا عنه من هذا العلم ما لا يقوم له القلوب، ذاك أمير المؤمنين)[1]

وقـال الخليـل بن أحمـد ــ اللغـوي الكبـير، ومؤسـس علم العروض ـ عندما سئل عن فضائلك: (ما أقول في شخص أخفى أعـداؤه فضـائله حسـداً، وأخفى أوليـاؤه فضـائله خوفـاً وحـذراً، وظهر فيما بين هذين ما طبقت الشرق والغرب)[2]

وقال: (إحتياج الكل إليه واستغناؤه عن الكل دليل على أنه إمام الكل)[3]

وقال فيك أحمد بن حنبل ـ إمام أهل الحـديث ــ: (مـا جـاء

1() فرائد السمطين: 1/380.

2() مقدمة المناقب للخوارزمي: ص8.

3() عبقرية الإمام: ص 138.

لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ من الفضائل ما جاء لعلي بن أبي طالب)(1)

وقال فيك الواقدي ـ إمام أصحاب المغازي والسير ـ: (إن علياً كان من معجزات النبي ﷺ كالعصا لموسى (عليه السلام)، وإحياء الموتى لعيسى (عليه السلام)(2)

وقال النظام ـ إمام المعتزلة ـ (علي بن أبي طالب محنة للمتكلم، إن وفى حقه غلى، وإن بخسه حقه أساء، والمنزلة الوسطى دقيقة الوزن، حادة اللسان، صعبة الترقي إلا على الحاذق الذكي)(3)

وقال الفخر الرازي ـ وهو إمام من أئمة الأشاعرة الكبار ـ: (ومن اتخذ علياً إماماً لدينه فقد استمسك بالعروة الوثقى في دينه ونفسه)

وقال: (أما إن علي بن أبي طالب كان يجهر بالتسمية، فقد ثبت بالتواتر، ومن اقتدى في دينه بعلي بن أبي طالب فقد اهتدى، والدليل عليه قوله ﷺ: اللهم أدر الحق مع علي حيث دار)(4)

وقال أبو العيناء لعبيد اللّه بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل والمعتمد: (وما أقول في رجل تحبه أهل الذمة على تكذيبهم بالنبوة، وتعظمه الفلاسفة على معاندتهم لأهل الملة، وتصور ملوك الفرنج والروم صورته في بيعها وبيوت عباداتها، وتصور ملوك الترك والديلم صورته على أسيافها، وما أقول في رجل أقر له أعداؤه وخصومه بالفضل، ولم يمكنهم جحد مناقبه ولا كتمان فضائله، فقد علمت أنه استولى بنو أمية على سلطان الإسلام في شرق الأرض وغربها، واجتهدوا بكل حيلة

(1) فرائد السمطين: 1/79.

(2) الفهرست: ص111.

(3) سفينة البحار1/146.

(4) التفسير الكبير: 1 /205،207..

في إطفاء نوره والتحريف عليه ووضع المعايب والمثالب له، ولعنوه على جميع المنابر، وتوعدوا مادحيه بل حبسوهم وقتلوهم، ومنعوا من رواية حديث يتضمن له فضيلة أو يرفع له ذكراً، حتى حظروا أن يسمى أحد باسمه، فما زاده ذلك إلا رفعة وسمواً، وكان كالمسك كلما ستر انتشر عرفه، وكلما كتم يتضوع نشره، وكالشمس لا تستر بالراح، وكضوء النهار إن حجبت عنه عينا واحدة أدركته عيون كثيرة، وما أقول في رجل تعزى إليه كل فضيلة، وتنتهي إليه كل فرقة، وتتجاذبه كل طائفة، فهو رئيس الفضائل وينبوعها وأبو عذرها)[1]

وقال فيك ابن أبي الحديد ــ وهو إمام من كبار أئمة المعتزلة ـ تعليقا على قولك: (فعند اللّه نحتسبه ولدا ناصحا، وعاملا كادحا، وسيفا قاطعا، وركنا دافعا): (انظر إلى الفصاحة كيف تعطي هذا الرجل قيادها، وتملكه زمامها، فسبحان الله من منح هذا الرجل هذه المزايا النفيسة، والخصائص الشريفة، أن يكون غلام من أبناء عرب مكة لم يخالط الحكماء، وخرج أعرف بالحكمة من أفلاطون وأرسطو، ولم يعاشر أرباب الحكم الخلقية، وخرج أعرف بهذا الباب من سقراط، ولم يرب بين الشجعان لأن أهل مكة كانوا ذوي تجارة، وخرج أشجع من كل بشر مشى على الأرض) [2]

وقال ـ تعليقا على قولك: (سلكوا في بطون البرزخ سبيلا سلّطت الأرض عليهم فيه، فأكلت من لحومهم، وشربت من دمائهم): (وإني لأطيل التعجب من رجل يخطب في الحرب بكلام يدل على أن طبعه مناسب لطباع الأسود، ثم يخطب في ذلك الموقف بعينه إذا أراد الموعظة بكلام يدل على أن طبعه مشاكل لطباع الرهبان الذين لم يأكلوا لحماً ولم يريقوا دماً، فتارة يكون في صورة بسطام بن قيس (الشجاع)، وتارة يكون في صورة سقراط والمسيح بن مريم (عليهما السلام) الإلهي، وأقسم بمن تقسم الأمم كلها به لقد قرأت هذه الخطبة منذ

1() شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: 1/ 29، 17.

2() سفينة البحار1/146.

خمسين سنة وإلى الآن أكثر من ألـف مـرة، مـا قرأتهـا قـط إلا وأحدثت عندي روعة وخوفا وعظة، أثـرت في قلـبي وجيبـاً، ولا تأملتهـا إلا وذكـرت المـوتى من أهلي وأقـاربي وأربـاب ودي، وخيلت في نفسـي أني أنـا ذلـك الشـخص الـذي وصـف الإمـام حاله)[1]

وقد ذكر في مقدمة شرحه لكلماتك كيـف اسـتفادت منـك كل المدارس، وكيف نهل من علمك كل فحول العلم..

فذكر (أنّ أشرف العلوم هو العلم الإلهي، لأنّ شرف العلم بشرف المعلوم، ومعلومه أشرف الموجودات، فكان هو أشرف العلوم، ومن كلامه عليه السّلام اقتبس، وعنه نقل، وإليه انتهى، ومنه ابتدئ)

ثم راح يفصـل ذلـك، فـذكر أن (المعتزلـة الـذين هم أهـل التوحيـد والعـدل وأربـاب النظـر، ومنهم تعلّم النـاس هـذا الفن تلامذته وأصحابه، لأنّ كبيرهم واصل بن عطاء تلميذ أبي هاشــم عبد اللّه بن محمّد بن الحنفيـة، وأبـو هاشـم تلميـذ أبيـه، وأبـوه تلميذه عليه السّلام)

وهكذا (الأشعرية فـإنّهم ينتمـون إلى أبي الحسـن علي بن بشـر الأشـعري وهـو تلميـذ أبي علي الجبـائي، وأبـو علي أحـد مشائخ المعتزلة، فالأشعرية ينتهون بـأخرة إلى أسـتاذ المعتزلـة ومعلّمهم، وهو علي بن أبي طالب)

وهكذا (الإمامية والزيدية فانتماؤهم إليه ظاهر)

ومثل ذلك (علم الفقه، وهو عليه السّـلام أصـله وأساسـه، وكلّ فقيه في الإسلام فهو عيال عليه ومسـتفيد من فقهـه. أمّـا أصحاب أبي حنيفة كأبي يوسف، ومحمّد، وغيرهمـا فأخـذوا عن أبي حنيفة، وأمّا الشافعي فقرأ على محمّد بن الحسـن، فـيرجع فقهـه أيضـا إلى أبي حنيفـة، وأمّـا أحمـد بن حنبـل فقـرأ على الشافعي، فيرجع فقهـه أيضـا إلى أبي حنيفـة، وأبـو حنيفـة قـرأ على جعفر بن محمّد عليه السّلام وقرأ جعفر على أبيـه، وينتهي

---

[1] () شرح النهج لابن أبي الحديد: 11/150.

الأمـر إلى علي عليـه السّـلام، وأمّـا مالـك بن أنس فقـرأ على ربيعة الرّأي، وقرأ ربيعة على عكرمـة، وقـرأ عكرمـة على عبـد اللّه بن عباس، وقرأ عبد اللّـه بن عبـاس على عليّ، وإن شـئت رددت إليـه فقـه الشـافعي بقراءتـه على مالـك كـان لـك ذلـك، فهؤلاء الفقهاء الأربعة، وأمّا فقه الشيعة فرجوعه إليه ظاهر)

وهكذا رجع إليه الصحابة، (فإنّ فقهاء الصحابة كـانوا عمـر بن الخطاب وعبد اللّه بن عبـاس، وكلاهمـا أخـذا عن عليّ، أمّـا ابن عباس فظاهر، وأمّا عمر فقد عـرف كـلّ أحـد رجوعـه إليـه في كثـير من المسـائل الـتي أشـكلت عليـه وعلى غـيره من الصحابة، وقوله غير مرّة: (لو لا عليّ لهلك عمر)، وقولـه: (لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن)، وقوله: (لا يفتينّ أحد في المسجد وعليّ حاضر). فقد عرف بهذا الوجه أيضا انتهاء الفقه إليـه. وقـد روت العامّـة والخاصّـة قولـه ﷺ: (أقضـاكم عليّ)، والقضاء هو الفقه، فهـو إذن أفقههم، وروى الكـلّ أيضـا أنّـه ﷺ قـال لـه وقـد بعثـه الى اليمن قاضـيا: (اللّهم اهـد قلبـه، وثبّت لسانه). قال: فما شككت بعدها في قضاء بين اثنين)

وهكـذا كـان الأمـر في (علم الطريقـة والحقيقـة، وأحـوال التصوف، وقد عرفت أن أرباب هذا الفن في جميع بلاد الاسلام، إليه ينتهون، وعنده يقفون، وقد صـرح بـذلك الشـبلي، والجنيـد، وسري، وأبو يزيد البسطامى، وأبو محفـوظ معـروف الكـرخي، وغيرهم. ويكفيك دلالة على ذلك الخرقة التى هي شـعارهم إلى اليوم، وكونهم يسندونها بإسناد متصل إليه)

وهكذا كان الأمر في (علم النحو والعربية، وقد علم الناس كافـه أنـه هـو الـذى ابتدعـه وأنشـأه، وأملى على أبى الاسـود الدؤلى جوامعـه وأصـوله، من جملتهـا الكلام كلـه ثلاثـة أشـياء: اسم وفعـل وحـرف. ومن جملتهـا: تقسـيم الكلمـة إلى معرفـة ونكـرة، وتقسـيم وجـوه الاعـراب إلى الرفـع والنصـب والجـر والجزم، وهذا يكاد يلحق بالمعجزات، لان القوة البشـرية لا تفي بهذا الحصر، ولا تنهض بهذا الاستنباط)

وهكــذا كــان الأمــر في خصائصــك الخلقيــة والفضــائل

النفسانية والدينية..

أما الشجاعة: (فإنه أنسى الناس فيها ذكر من كان قبله، ومحا اسم من يأتي بعده، ومقاماته في الحرب مشهورة يضرب بها الامثال إلى يوم القيامة، وهو الشجاع الذى ما فر قط، ولا ارتاع من كتيبة، ولا بارز أحدا إلا قتله، ولا ضرب ضربة قط فاحتاجت الاولى إلى ثانية)

وأما القوة والأيد: (فبه يضرب المثل فيهما، قال ابن قتيبه في(المعارف): ما صارع أحدا قط إلا صرعه. وهو الذى قلع باب خيبر، واجتمع عليه عصبه من الناس ليقلبوه فلم يقلبوه، وهو الذى اقتلع هبل من أعلى الكعبة، وكان عظيما جدا، وألقاه إلى الارض. وهو الذى اقتلع الصخره العظيمة في أيام خلافته عليه السلام بيده بعد عجز الجيش كله عنها، وأنبط الماء من تحتها)

وأما السخاء والجود: (فحاله فيه ظاهرة، وكان يصوم ويطوي ويؤثر بزاده، وفيه أنزل ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان:8]، وروى المفسرون أنه لم يكن يملك إلا أربعة دراهم، فتصدق بدرهم ليلا، وبدرهم نهارا، وبدرهم سرا، وبدرهم علانية، فأنزل فيه: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون﴾ [البقرة:274]، وروي عنه أنه كان يسقي بيده لنخل قوم من يهود المدينة، حتى مجلت يده، ويتصدق بالاجرة، ويشد على بطنه حجرا. وقال الشعبى وقد ذكره عليه السلام: كان أسخى الناس، كان على الخلق الذي يحبه الله: السخاء والجود، ما قال: (لا) لسائل قط. وقال عدوه ومبغضه الذي يجتهد في وصمه وعيبه معاوية بن أبى سفيان لمحفن بن أبي محفن الضبي لما قال له: جئتك من عند أبخل الناس، فقال: ويحك ! كيف تقول إنه أبخل الناس، لو ملك بيتا من تبر وبيتا من تبن، لانفد تبره قبل تبنه. وهو الذى كان يكنس بيوت الاموال ويصلي فيها، وهو الذي قال: يا صفراء، ويا بيضاء، غري غيري. وهو الذي لم يخلف ميراثا، وكانت الدنيا كلها بيده

إلا ما كان من الشام)

وأمـــا الحلم والصـــفح: (فكـــان أحلم النـــاس عن ذنب، وأصفحهم عن مسئ، وقـد ظهـر صـحة مـا قلنـاه يـوم الجمـل، حيث ظفر بمروان بن الحكم وكان أعـدى النـاس لـه، وأشـدهم بغضا فصفح عنه. وكان عبد الله بن الزبـير يشـتمه على رؤوس الاشهاد، وخطب يوم البصرة فقال: قد أتاكم الوغـد اللـئيم علي بن أبى طالب وكان علي عليه السلام يقول: ما زال الزبير رجلا منا أهل البيت حتى شب عبد الله فظفر به يوم الجمل، فأخــذه أسيرا، فصفح عنه، وقال: اذهب فلا أرينك، لم يـزده على ذلـك. وظفر بسعيد بن العاص بعد وقعة الجمل بمكة، وكان له عــدوا، فأعرض عنه ولم يقل له شيئا. وقد علمتم مـا كـان من عائشـة في أمــره، فلمــا ظفــر بهــا أكرمهــا، وبعث معهــا إلى المدينــة عشرين امرأة من نساء عبد القيس عممهن بالعمـائم، وقلـدهن بالسيوف، فلما كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يـذكر به، وتأففت وقالت: هتك سترى برجاله وجنده الذين وكلهم بي، فلما وصلت المدينة ألقى النساء عمائمهن، وقلن لها: إنمـا نحن نســوه. وحاربــه أهــل البصــرة وضــربوا وجهــه ووجــوه أولاده بالسيوف، وشتموه ولعنوه، فلما ظفـر بهم رفـع السـيف عنهم، ونادى مناديه في أقطار العسكر: ألا لا يتبع مول، ولا يجهـز على جــريح، ولا يقتـل مستأسـر، ومن ألقى سـلاحه فهـو آمن، ومن تحيز إلى عسكر الامام فهـو آمن. ولم يأخـذ أثقـالهم، ولا سـبى ذراريهم، ولا غنم شيئا من أموالهم، ولو شاء أن يفعل كـل ذلـك لفعل، ولكنه أبى إلا الصـفح والعفـو وتقيـل سـنة رسـول اللﷺ يوم فتح مكة، فإنـه عفـا والاحقـاد لم تـبرد، والاسـاءة لم تنس. ولما ملك عسكر معاوية عليه الماء، وأحاطوا بشـريعة الفـرات، وقالت رؤساء الشـام لـه اقتلهم بـالعطش كمـا قتلـوا عثمـان عطشـا، سـألهم علي وأصـحابه أن يشـرعوا لهم شـرب المـاء، فقالوا: لا والله، ولا قطرة حتى تموت ظمأ كما مات ابن عفان، فلمـا رأى أنـه المـوت لا محالـة تقـدم بأصـحابه، وحمـل على عساكر معاويـة حملات كثيفـة، حـتى أزالهم عن مراكـزهم بعـد قتل ذريع، سقطت منه الرؤوس والايدي، وملكـوا عليهم المـاء، وصار أصحاب معاوية في الفلاة، لا ماء لهم، فقـال لـه أصـحابه

وشيعته: امنعهم الماء يا أمير المؤمنين، كما منعوك، ولا تسقهم منه قطرة، واقتلهم بسيوف العطش، وخذهم قبضا بالايدي فلا حاجه لك إلى الحرب، فقال: لا والله لا أكافئهم بمثل فعلهم، افسحوا لهم عن بعض الشريعة، ففي حد السيف ما يغني عن ذلك. فهذه إن نسبتها إلى الحلم والصفح فناهيك بها جمالا وحسنا، وإن نسبتها إلى الدين والورع فأخلق بمثلها أن تصدر عن مثله)

وأما الجهاد في سبيل الله: (فمعلوم عند صديقه وعدوه أنه سيد المجاهدين، وهل الجهاد لاحد من الناس إلا له ! وقد عرفت أن أعظم غزاة غزاها رسول الله ﷺ وأشدها نكاية في المشركين بدر الكبرى، قتل فيها سبعون من المشركين، قتل علي نصفهم، وقتل المسلمون والملائكة النصف الآخر. وإذا رجعت إلى مغازي محمد بن عمر الواقدي وتاريخ الاشراف ليحيى بن جابر البلاذري وغيرهما علمت صحة ذلك، دع من قتله في غيرها كأحد والخندق وغيرهما، وهذا الفصل لا معنى للاطناب فيه، لانه من المعلومات الضرورية، كالعلم بوجود مكة ومصر ونحوهما)

وأما الفصاحة: (فهو إمام الفصحاء، وسيد البلغاء، وفي كلامه قيل: دون كلام الخالق، وفوق كلام المخلوقين. ومنه تعلم الناس الخطابة والكتابة، قال عبد الحميد بن يحيى: حفظت سبعين خطبة من خطب الاصلع، ففاضت ثم فاضت. وقال ابن نباتة: حفظت من الخطابة كنزا لا يزيده الانفاق الا سعة وكثرة، حفظت مائة فصل من مواعظ علي بن أبى طالب. ولما قال محفن بن أبى محفن لمعاوية: جئتك من عند أعيا الناس، قال له: ويحك ! كيف يكون أعيا الناس ! فو الله ما سن الفصاحة لقريش غيره، ويكفى هذا الكتاب الذي نحن شارحوه دلالة على أنه لا يجارى في الفصاحة، ولا يبارى في البلاغة. وحسبك أنه لم يدون لاحد من فصحاء الصحابة العشر، ولا نصف العشر مما دون له، وكفاك في هذا الباب ما يقوله أبو عثمان الجاحظ في مدحه في كتاب (البيان والتبيين) وفي غيره من كتبه)

وأمــا ســجاحة الاخلاق، وبشــر الوجــه، وطلاقــة المحيــا، والتبســم: (فهــو المضــروب بــه المثــل فيــه.. قــال صعصــعة بن صــوحان وغــيره من شــيعته وأصــحابه: كــان فينــا كأحــدنا، لين جانب، وشدة تواضع، وسـهولة قيـاد، وكنـا نهابـه مهابـة الاسـير المربوط للسياف الواقف على رأسـه. وقـال معاويـة لقيس بن سعد: رحم الله أبا حسن، فلقد كان هشا بشـا، ذا فكاهـة، قـال قيس: نعم، كـان رسـول اللـه ﷺ يمـزح ويبتسـم إلى أصـحابه، وأراك تسر حسوا في ارتغاء، وتعيبه بذلك ! أما والله لقــد كــان مع تلك الفكاهة والطلاقة أهيب من ذي لبدتين قد مسه الطوى، تلك هيبة التقوى، وليس كما يهابـك طغـام أهـل الشـام !. وقـد بقى هذا الخلق متوارثا متنافلا في محبيه وأوليائه إلى الآن، كمـا بقي الجفـاء والخشـونة والوعـورة في الجـانب الآخـر، ومن لـه أدنى معرفة بأخلاق الناس وعوائدهم يعرف ذلك)

وأما الزهد في الـدنيا: (فهـو سـيد الزهـاد، وبـدل الابـدال، وإليه تشد الرحال، وعنـده تنفض الاحلاس، مـا شـبع من طعـام قط. وكان أخشن الناس مـأكلا وملبسـا، قـال عبـد اللـه بن أبي رافع: دخلت إليه يوم عيد، فقدم جرابا مختوما، فوجدنا فيه خبز شعير يابسا مرضوضا، فقدم فأكـل، فقلت: يـا أمـير المؤمـنين، فكيـف تختمـه؟ قـال: خفت هـذين الولـدين أن يلتـاه بسـمن أو زيت. وكان ثوبـه مرقوعـا بجلـد تـارة، وليـف أخـرى، ونعلاه من ليف. وكان يلبس الكرباس الغليظ، فإذا وجد كمه طـويلا قطعـه بشفرة، ولم يخطه، فكان لا يزال متسـاقطا على ذراعيـه حـتى يبقى سدى لا لحمة له، وكان يأتدم إذا ائتدم بخل أو بملح، فــإن ترقى عن ذلك فبعض نبات الارض، فإن ارتفع عن ذلـك فبقليـل من ألبــان الابــل، ولا يأكــل اللحم إلا قليلا، ويقــول: لا تجعلــوا بطــونكم مقــابر الحيــوان. وكــان مــع ذلــك أشــد النــاس قــوة وأعظمهم أيـدا، لا ينقض الجـوع قوتـه، ولا يخـون الاقلال منتـه. وهو الذي طلق الدنيا وكانت الامـوال تجـبى إليـه من جميـع بلاد الاسلام إلا من الشام، فكان يفرقها ويمزقها)

وأما العبادة: (فكان أعبـد النـاس وأكـثرهم صـلاة وصـوما، ومنه تعلم الناس صلاة الليل، وملازمة الاوراد وقيام النافلة، وما

ظنك برجل يبلغ من محافظته على ورده أن يبسط له نطع بين الصفين ليلة الهرير، فيصلي عليه ورده، والسهام تقع بين يديه وتمر على صماخيه يمينا وشمالا، فلا يرتاع لذلك، ولا يقوم حتى يفرغ من وظيفته ! وما ظنك برجل كانت جبهته كثفنة البعير لطول سجوده. وأنت إذا تأملت دعواته ومناجاته، ووقفت على ما فيها من تعظيم الله سبحانه وإجلاله، وما يتضمنه من الخضوع لهيبته، والخشوع لعزته والاستخذاء له، عرفت ما ينطوي عليه من الاخلاص، وفهمت من أي قلب خرجت، وعلى أي لسان جرت !. وقيل لعلي بن الحسين عليه السلام - وكان الغاية في العبادة: أين عبادتك من عبادة جدك؟ قال: عبادتي عند عبادة جدي كعبادة جدى عند عبادة رسول الله ﷺ)

وأما قراءته القرآن واشتغاله به: (فهو المنظور إليه في هذا الباب، اتفق الكل على أنه كان يحفظ القرآن على عهد رسول الله ﷺ، ولم يكن غيره يحفظه، ثم هو أول من جمعه، نقلوا كلهم أنه تأخر عن بيعة أبى بكر، فأهل الحديث لا يقولون ما تقوله الشيعة من أنه تأخر مخالفة للبيعة، بل يقولون: تشاغل بجمع القرآن فهذا يدل على أنه أول من جمع القرآن، لأنه لو كان مجموعا في حياه رسول الله ﷺ لما احتاج إلى أن يتشاغل بجمعه بعد وفاته ﷺ. وإذا رجعت إلى كتب القراءات وجدت أئمة القراء كلهم يرجعون إليه، كابي عمرو بن العلاء وعاصم بن أبي النجود وغيرهما، لانهم يرجعون إلى أبي عبد الرحمن السلمى القارئ، وأبو عبد الرحمن كان تلميذه، وعنه أخذ القرآن، فقد صار هذا الفن من الفنون التى تنتهى إليه أيضا، مثل كثير مما سبق)

وأما الرأي والتدبير: (فكان من أسد الناس رأيا، وأصحهم تدبيرا، وهو الذي أشار على عمر بن الخطاب لما عزم على أن يتوجه بنفسه إلى حرب الروم والفرس بما أشار. وهو الذى أشار على عثمان بأمور كان صلاحه فيها، ولو قبلها لم يحدث عليه ما حدث. وإنما قال أعداؤه: لا رأي له، لانه كان متقيدا بالشريعة لا يرى خلافها، ولا يعمل بما يقتضي الدين تحريمه. وقد قال عليه السلام: لو لا الدين والتقى لكنت أدهى العرب.

وغيره من الخلفاء كان يعمل بمقتضى ما يستصلحه ويستوفقه، سواء أ كـان مطابقـا للشـرع أم لم يكن. ولا ريب أن من يعمـل بما يؤدي إليه اجتهاده، ولا يقف مع ضوابط وقيـود يمتنـع لاجلهـا مما يرى الصلاح فيه، تكون أحواله الدنيوية إلى الانتظام أقـرب، ومن كان بخلاف ذلك تكون أحواله الدنيوية إلى الانتثار أقرب)

بل إنك فوق ذلك كلـه اسـتطعت أن تعـرض الإسـلام وقيم الإسلام بصورة جميلة بهرت غير المسلمين..

فقد قال عنك جبران خليل جبران ـ وهو الأديب المسـيحي الكبير ـ: (إن علي بن أبي طالب كلام اللـه النـاطق، وقلب اللـه الواعي، نسبته إلى من عداه من الأصـحاب شـبه المعقـول إلى المحسوس، وذاته من شدة الإقتراب ممسـوس في ذات اللـه) (1)

وقال فيك ميخائيل نعيمة: (وأما فضائله فإنها قد بلغت من العظم والجلال والإنتشار والاشتهار مبلغاً يسـمج معـه التعـرض لذكرها، والتصدي لتفصيلها، فصارت كما قال أبـو العينـاء لعبيـد الله بن يحيى بن خاقان، وزير المتوكل والمعتمد: (رأيتـني فيمـا أتعـاطى من وصـف فضـلك كـالمخبر عن ضـوء النهـار البـاهر والقمر الزاهـر، الـذي لا يخفى على النـاظر، فـأيقنت أني حيث انتهى بي القـــول منســـوب إلى العجـــز، مقصـــر عن الغايـــة، فانصرفت عن الثناء عليك إلى الدعاء لك، ووكلت الإخبـار عنـك إلى علم الناس بك)(2)

وقال: (تسألني عن الإمام علي، ورأيي أنـه من بعـد النـبي ﷺ سـيد العـرب على الاطلاق بلاغـة وحكمـة وتفهمـا للـدين وتحمسا للحق وتساميا عن الدنايا. فأنا مـا عـرفت في كـل من قرأت لهم من العرب رجلا دانت له اللغـة مثلمـا دانت لإبن ابي طـالب، سـواء في عظاتـه الدينيـة وخطبـه الحماسـية ورسـائله التوجيهية، او في تلك الشذور المقتضبة الـتي كـان يطلقهـا من

1() نقلا عن حاشية الشفاء ص 566 /.

2() نقلا عن شرح النهج لابن أبي الحديد: 1 /16.

حين الى حين مشحونة بالحكم الزمنية والروحية، متوهجة ببوارق الإيمان الحي ومدركة من الجمال في البيان حد الإعجاز، فكأنما اللآلىء بلغت بها الطبيعة حد الكمال، وكأنه البحر يقذف بتلك اللآلىء دونما عنت او عناء.. ليس بين العرب من صفت بصيرته صفاء بصيرة الإمام علي، ولا من أوتي المقدرة في إقتناص الصور التي انعكست على بصيرته وعرضها في إطار من الروعة هو السحر الحلال. حتى سجعه، وهو كثير، يسطو عليك بألوانه وبموسيقاه ولا سطو القوافي التي تبدو كما لو انها هبطت على الشاعر من السماء، فهي ما اتخذت مكانها في اواخر الأبيات إلا لتقوم بمهمة يستحيل على غيرها القيام بها. إنها هناك لتقول اشياء لا تستطيع كلمات غيرها ان تقولها، كالغلق في القنطرة. إن عليا لمن عمالقة الفكر والروح والبيان في كل زمان ومكان)

وقال فيك الأستاذ البحاثة المسيحي (بولس سلامة) في كتابه: (ملحمة الغدير): (قد يقول قائل: ولم آثرت عليا دون سواه من أصحاب محمد بهذه الملحمة ولا اجيب على هذا السؤال إلا بكلمات فالملحمة كلها جواب عليه. وسترى في سياقها بعض عظمة الرجل الذي يذكره المسلمون فيقولون: (رضى الله عنه، وكرم الله وجهه، والسلام عليه) ويذكره النصارى في مجالسهم فيتمثلون بحكمه ويخشعون لتقواه، ويتمثل به الزهاد في الصوامع فيزدادون زهدا وقنوتا. وينظر إليه المفكر فيستضئ بهذا القطب الوضاء ويتطلع إليه الكاتب الألمعي فيأتم ببيانه ويعتمده الفقيه المدره- زعيم القوم والمتكلم عنهم- فيسترشد بأحكامه. أما الخطيب فحسبه أن يقف في السفح ويرفع الرأس إلى هذا الطود الشامخ لتنهل عليه الآيات من عل. وينطلق لسانه بالكلام العربي المبين الذي رسخ قواعده أبو الحسن إذ دفعها إلى أبي الأسود الدؤلي فقال: انح هذا النحو. وكان علم النحو. ويقرا الجبان سيرة علي فتهدر في صدره النخوة وتستهويه البطولة. إذ لم تشهد الغبراء ولم تظل السماء أشع من ابن أبي طالب فعلي ذلك الساعد الأجدل اعتمد الإسلام يوم كان وليدا. فعلي هو بطل بدر، وخيبر، والخندق، ووادي الرمل، والطائف، واليمن.... وهو

المنتصر في صفين ويوم الجمل والنهروان والدافع عن الرسول يوم أحد وقيدوم السـرايا ولـواء المغـازي.. واعجب من بطولتـه الجسدية بطولته النفسـية فلم يـر اصـبر منـه على المكـاره إذا كانت حياته موصولة بالآلام منذ فتح عينيه على النور في الكعبة حـتى أغمضـها على الحـق في مسـجد الكوفـة... وبعـد فلم تجـادلني في أبي الحسـن؟ أو لم تقم في خلال العصـور فئـات من الناس تؤله الرجـل؟ ولا ريب أنهـا الضـلالة الكـبرى. ولكنهـا ضلالة تدلك على الحق إذ تدلك على مبلـغ افتتـان النـاس بهـذه الشخصية العظمى ولم يستطع خصوم الرجـل أن يأخـذوا عليـه مأخذا فاتهموه بالتشدد في إحقاق الحـق. أي انهم شـكوا كـثرة فضله فأرادوه دنيويا يمارى ويداري. وأراد نفسه روحانيـا رفيعـا يستميت في سبيل العدل. لا تأخذه في سبيل الله هوادة. وإنمـا الغضبة للحق ثورة النفوس القدسية التي يؤلمها أن ترى عوجا. أو لم يغضب السـيد المسـيح وهـو الـذروة في الوداعـة والحكم يوم دخل آلهيكل فوجد فيـه باعـة الحمـام والصـيارفة المـرابين فاخذ بيـده السـوط وقلب موائـدهم وطـردهم قـائلا: بيـتي بيت الصلاة يدعى وانتم جعلتموه مغارة للصوص)(1)

ثم عقب على هذه الشهادة بقولـه: (بقى لـك بعـد هـذا أن تحسبني شيعيا، فإذا كان التشيع تنقصا لأشخاص أو بغضا لفئات أو تهورا في المزالق الخطرة فلست كذلك، أما إذا كان التشـيع حبـا لعلي وأهـل الـبيت الطيـبين الأكـرمين وثـورة على الظلم وتوجعـا لمـا حـل بالحسـين ومـا نـزل بـأولاده من النكبـات في مطاوي التاريخ فإنني شيعي)

هذه شهادته ـ سيدي ـ وكم أتألم إذ أختم حديثي معك بها.. فالحـديث معـك لا يمـل.. وحسـبي أنـني أعيش كـل لحظـة في صـحبة كلماتـك إلى أن يـأتي ذلـك اليـوم الـذي أتشـرف فيـه بلقيـاك.. ولعلي أفـوز بـأن يختم لي بمثـل مـا ختم لـك، فـأقول عندما يطعنني عدوك: فزت ورب الكعبة.

(1) ملحمة الغدير، ص27- 28.